تاريخ الدعوة

مختصر تاريخ دعوة الأنبياء عليهم السلام ومن بعدهم

مقرر دراسي

تأليف

سلطان بن عمر بن عبد العزيز الحصين

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

تاريخ الدعوة

مختصر تاريخ دعوة الأنبياء عليهم السلام
ومن بعدهم

ⓒ سلطان عمر الحصين، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحصين، سلطان عمر

تاريخ الدعوة / سلطان عمر عبد العزيز الحصين ط١

المدينة المنورة، ١٤٤٢هـ.

٤٥٢ ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨-٥٨٥٨-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الدعوة الإسلامية ٢- قصص الأنبياء أ. العنوان

ديوي: ٢١٣ ١٤٤٢/٢١٧٣

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢١٧٣

ردمك: ٨-٥٨٥٨-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

هذا المؤلف واقع في الملك العام،

فلا تسري عليه المادة الثالثة من النظام السعودي لحماية حق المؤلف

تاريخ الدعوة

مختصر تاريخ دعوة الأنبياء عليهم السلام ومن بعدهم

مقرر دراسي

تأليف

سلطان بن عمر بن عبد العزيز الطحين

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	٩
التمهيد: المدخل إلى تاريخ الدعوة	١١
المبحث الأول: مفهوم تاريخ الدعوة، وأهمية دراسته، ومصادره.	١١
المبحث الثاني: حاجة البشرية للرسالات.	٢٤
المبحث الثالث: السمات المشتركة لدعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.	٢٦
المبحث الرابع: أساليب الأنبياء في الدعوة إلى الله.	٣٠
المبحث الخامس: السمات المشتركة للمدعوين المعاندين وموقفهم من دعوة الأنبياء.	٣٧
المبحث السادس: انتشار الإسلام في العالم.	٤٥
الفصل الأول: دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعبر منها	٥٩
المبحث الأول: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	٦٣
المبحث الثاني: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ	٧٢
المبحث الثالث: هود عَلَيْهِ السَّلَامُ	٧٨
المبحث الرابع: صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ	٨٣

الموضـــــوع	الصفحة
المبحث الخامس: إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	٨٩
المبحث السادس: إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٠٠
المبحث السابع: لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٠٨
المبحث الثامن: إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١١٤
المبحث التاسع: يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١١٦
المبحث العاشر: يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١١٨
المبحث الحادي عشر: أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٣٠
المبحث الثاني عشر: يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٣٤
المبحث الثالث عشر: موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٣٩
المبحث الرابع عشر: إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٥٢
المبحث الخامس عشر: داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٥٤
المبحث السادس عشر: سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٦٥
المبحث السابع عشر: شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٧٦
المبحث الثامن عشر: زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٨٢
المبحث التاسع عشر: يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٨٧
المبحث العشرون: عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ	١٨٩

الموضـــــوع	الصفحة
الفصل الثاني: دعوة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	١٩٩
المبحث الأول: الدعوة في العهد المكي وما فيها من عبر.	٢٠٣
المبحث الثاني: الدعوة في العهد المدني وما فيها من عبر.	٢٢٠
الفصل الثالث: تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين (١١ - ٤١هـ)	٢٣١
المبحث الأول: أهم ملامح الدعوة في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	٢٣٦
المبحث الثاني: أهم ملامح الدعوة في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	٢٥١
المبحث الثالث: أهم ملامح الدعوة في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	٢٦٦
المبحث الرابع: أهم ملامح الدعوة في عهد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	٢٨١
الفصل الرابع: تاريخ الدعوة في العهد الأموي ونماذج من الدعاة فيه (٤١-١٣٢هـ)	٢٩٣
المبحث الأول: أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد الأموي.	٢٩٧
المبحث الثاني: نماذج من العلماء في العهد الأموي.	٣٠٥
الفصل الخامس: تاريخ الدعوة في العهد العباسي ونماذج من الدعاة فيه (١٣٢-٦٥٦هـ)	٣١٧
المبحث الأول: أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد العباسي.	٣٢٠
المبحث الثاني: نماذج من العلماء في العهد العباسي.	٣٣٢

الموضـــــوع	الصفحة
الفصل السادس: تاريخ الدعوة في العهد المملوكي ونماذج من الدعاة فيه (٦٥٦-٩٢٣هـ)	**٣٤٥**
المبحث الأول: أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد المملوكي.	٣٤٩
المبحث الثاني: نماذج من العلماء في العهد المملوكي.	٣٥٩
الفصل السابع: تاريخ الدعوة في العهد العثماني ونماذج من الدعاة فيه (٦٩٨- ١٣٤٣هـ)	**٣٧٣**
المبحث الأول: أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد العثماني.	٣٧٧
المبحث الثاني: نماذج من العلماء في العهد العثماني.	٣٨٦
الفصل الثامن: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية (١١٥٧-١٢٣٣هـ/ ١٧٤٤- ١٨١٨م)	**٣٩٥**
المبحث الأول: أهم ملامح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانتشارها في العالم الإسلامي.	٣٩٨
المبحث الثاني: نماذج من العلماء زمن الدعوة الإصلاحية.	٤٠٨
الفصل التاسع: تاريخ الدعوة في العصر الحاضر (المملكة العربية السعودية أنموذجًا)	**٤١٣**
المبحث الأول: أهم ملامح الدعوة الإسلامية في المملكة العربية السعودية.	٤١٧
المبحث الثاني: نماذج من العلماء في العصر الحاضر في المملكة العربية السعودية.	٤٢٩
الخاتمة	٤٤٠
فهرس المصادر والمراجع	٤٤٢

مُقَدِّمَة

الحمد لله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، تبارك سبحانه هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آل بيته الأخيار وأصحابه الغر الميامين، وبعد:

فالدعوة إلى الله من أحب الأعمال إلى الله، قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وقد أمر بها بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]، وبقوله كذلك: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

والحديث عن تاريخ الدعوة الإسلامية منذ بدئها زمن الوالد الكريم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى عصرنا الحاضر طويل ومتشعب، ويحتاج بسطه إلى آلاف الصفحات، ولأهمية الموضوع وحاجة الجامعات والمعاهد والمدارس ومكتبة الدعوة الإسلامية إليه؛ جاء هذا المختصر ليرصد تاريخ الدعوة الإسلامية بدأً من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحتى زمننا الحاضر.

والكتاب يلقي الضوء على أهم مراحل الدعوة الإسلامية عبر التاريخ ولا يستقصيها، ليكون سهلًا يمكن قراءته وتدريسه في الجامعات الإسلامية والمعاهد العلمية في العالم.

تناول هذا المختصر كذلك معالم الدعوة الإسلامية عبر أهم فترات التاريخ الإسلامي: فترة الخلفاء الراشدين، فالخلافة الأموية، فالعباسية، فالعهد المملوكي،

فالعثماني، ثم فترة الدعوة الإصلاحية في الجزيرة العربية وامتدادها إلى الزمن الحاضر، بالتركيز على أهم المعالم الدعوية لكل فترة وذكر نماذج من العلماء والدعاة والمصلحين.

ويهدف الكتاب إلى ما يأتي:

١. بيان مفهوم تاريخ الدعوة، وأهميته، وموضوعه.
٢. معرفة أهم السمات المشتركة لدعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.
٣. التبصير بمنهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله، وأهم معالم دعوتهم، مع الوقوف على أهم العبر والجوانب الإيمانية والفوائد الدعوية في قصصهم.
٤. بيان أهم ملامح الدعوة في العهد النبوي وتعزيز جانب التأسي به ﷺ.
٥. التعرف على مسيرة الدعوة إلى الله عبر التاريخ، وبيان أهميتها للداعية في العصر الحاضر.
٦. الوقوف على نماذج مضيئة من الدعاة على مر التاريخ والتعرف على جهودهم المباركة في الدعوة.
٧. التذكير بمكامن العبر في تاريخ الدعوات.

والكتاب قد بُني وفقًا لمحاور مقرر تاريخ الدعوة في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالجامعة الإسلامية في المراحل الدراسية: الجامعية والدبلوم العالي والماجستير.

والله أسأل أن ينفع بالكتاب وأن يكتب الرضى والقبول والمغفرة لمؤلفه وقارئه ووالديهم والمسلمين.

سلطان بن عمر بن عبد العزيز الحسين

طيبة الطيبة
hamilmisk@gmail.com

١٤٤٢هـ/٢٠٢١ م

تمهيد
المدخل إلى تاريخ الدعوة

المبحث الأول
مفهوم تاريخ الدعوة، وأهمية دراسته، ومصادره

أولًا: مفهوم تاريخ الدعوة:

التأْريخُ في اللغة: من أرّخ وهو تعريف الوقت، والتَوْريخُ مثله، وأَرَّخْتُ الكتابَ بيوم كذا، ووَرَّخْتُهُ، بمعنىً، وتأريخ المسلمين أُرِّخ من زمن هجرة سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وفي الاصطلاح هو: «التعريف بالوقت الّذي تضبط به الأحوال والحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملمة، وتجديد فرض، وخليفة، ووزير، وغزوة، وملحمة، وحرب، وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة»[2].

والتاريخ في ظاهره: أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُول، وفي باطنه: نظر وتحقيق وتعليل للكائنات، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها[3].

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، (١/ ٤١٨)، لسان العرب، لابن منظور، (٣/ ٤).
(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، للسخاوي (ص١٧).
(٣) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون (١/ ٤).

أما تاريخ الدعوة فهو: «الوقوف على قصة الإيمان، ومعرفة أحوال وتاريخ من اصطفاهم الله واجتباهم من خلقه من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن تبعهم من الصحابة والتابعين والمصلحين إلى يومنا، وما قاموا به ولاقوه في سبيل نشر دعواتهم لتلك العصور والأيام»[١].

ثانيًا: أهمية دراسة تاريخ الدعوة:

دراسة تاريخ دعوة الأنبياء ومن بعدهم من الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا فيه فوائد جليلة ودروس عظيمة للدعوة إلى الله، يتجلى ذلك في النقاط الآتية:

١. الثبات على الحق:

أخبر الله جَلَّوَعَلَا أنّ إيراد قصص الأنبياء السابقين فيه تثبيت لفؤاد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتسلية له، قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠]، وليعلم النبيّ المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّ الذي فُعِل به قد فُعِل بالأنبياء قبله، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣].

٢. عظةٌ وعبرةٌ وتأسٍ:

في دراسة تاريخ الدعوة عظة كبيرة وعبرة وحسن تأسٍ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن بعدهم من الصالحين المصلحين، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

---

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص١٩).

٣. بيان تاريخ الأنبياء مع أقوامهم:

دراسة تاريخ الدعوة فيه معرفة بمهامّ الرسل ووظائفهم تجاه مدعوّيهم، وكيف يقتدي بهم ورثة الأنبياء من خلال التعرف على حالهم مع أقوامهم، وما قاموا به وما لاقوه في سبيل نشر دعوتهم وتبليغ رسالتهم من الأذى الجسدي ومحاولة قتل بعضهم، وما وقع لهم من التكذيب والسخرية والاستهزاء.

٤. معرفة واقع الصراع بين الحق والباطل:

تساعد دراسة تاريخ الدعوة في الوقوف على نتائج صراع الأفكار والمبادئ والقيم، بين الخير والشر، والحق والباطل، وما ينتهي إليه ذلك الصراع من انتصار الحق وأهله وانهزام الباطل وأهله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال أيضًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

٥. معرفة سنن الله في الكون:

سنن الله في المجتمعات البشرية تتسم بالثبات والدوام، فلا تختلف باختلاف الزمان والمكان، كما أنها تتسم بالاطراد؛ إذ هي تنطبق على أمم الأرض جميعًا مسلمهم وكافرهم، فمن اعتصم بحبل الله والتزم شرعه وهديه وأمره ونهيه؛ سعد وساد، ومن أعرض عن صراطه المستقيم خاب وخسر وشقي[١].

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص١٥).

ثالثًا: مصادر تاريخ الدعوة:

التأليف في تاريخ الدعوة من بدئها وحتى زمننا المعاصر يكاد ينحصر في المؤلفات المعاصرة وهي قليلة جدًا؛ وذلك لطول المدة ولتشعب الموضوعات وكثرتها؛ ومع ذلك فالدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية يجد أن مصادره تتركز في أربعة مجالات:

المجال الأول: كتب التفسير:

تناول القرآن الكريم قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذكر لنا طرفًا مما لاقاه أولئك المصطفون الأخيار من العَنت والعناد والإيذاء، ولذا فلا يكاد يخلو كتاب تفسير من إيراد لجوانب من دعوة الأنبياء لأقوامهم.

ومن ذلك: كتاب جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري، ومعالم التنزيل، للبغوي، وتفسير القرآن، لأبي المظفّر السمعاني، والمحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطيّة، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، وتفسر القرآن العظيم، لابن كثير، ونحوها من التفاسير التي تعتمد على المأثور.

وقد تناولت كتب التفسير قصص الأنبياء ومنهجهم في الدعوة إلى الله وأخبار أقوامهم، معتمدة على ما جاء به القرآن الكريم أولًا، ومن ثم ما جاءت به السنة المطهرة، وما روي من آثار وأخبار عن الصحابة والتابعين وأقوال العلماء، معتمدة على المنهج السردي، وهو منهج يعتمد على رواية القصة بشكل مسترسل متتابع من البدء إلى المنتهى، وذلك بإسناد النصوص وذكر المرويات بأسانيدها، وإسناد النصوص إلى من رويت عنه، مجردة عن ذكر الاستنباطات أو الفوائد المتعلقة بالقصة، إلا ما كان أثناء تناول الآية المتعلقة بالقصة من إشارات لبعض المعاني المستفادة من

الآية، ومن الأمثلة على ذلك قول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفسرًا الآيات الأولى من سورة نوح: « قال نوح لما بلَّغ قومه رسالة ربه، وأنذرهم ما أمره به أن ينذرهموه فعصوه، وردّوا عليه ما أتاهم به من عنده: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: إلى توحيدك وعبادتك، وحذرتهم بأسك وسطوتك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٥، ٦]؛ يقول: فلم يزدهم دعائي إياهم إلى ما دعوتهم إليه من الحقّ الذي أرسلتني به لهم (إِلا فِرَارًا) أي: إلا إدبارًا عنه وهربًا منه وإعراضًا عنه»[(١)]، ثم يسوق الروايات والأخبار الواردة في الآية.

بينما يفسر القرطبي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٨، ٩] فيقول: «مظهرًا لهم الدعوة، أي دعوتهم مجاهرًا لهم بالدعوة، ولم أبق مجهودًا، وقال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، وأسررت لهم إسرارًا؛ بالدعاء عن بعضهم من بعض، وقيل: أسررت لهم أتيتهم في منازلهم، وكل هذا من نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبالغة في الدعاء لهم، وتلطف في الاستدعاء»[(٢)].

ويشير ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى شدة حرص النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصبره على قومه، وجِدَّته في دعوته لهم قائلًا عند قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح:١٠، ١١] وما بعدها من الآيات في ذات السياق فيقول: «هذه المقالة قالها نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن طال عمره وتحقق اليأس عن قومه، وقوله: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ عبارة عن استمرار دعائه، ثم كرر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صفة دعائه لهم بيانًا وتأكيدًا وجهارًا، والإسرار ما كان من دعاء الأفراد بينه وبينهم على انفراد،

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٣١).
(٢) المرجع السابق (١٨/ ٣٠١).

وهذا غاية الجد، وروي أن قوم نوح كانوا قد أصابهم قحوط وأزمة، فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر ثم ثنى بالأموال والبنين، قال قتادة: لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها»[١].

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٢]، هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدَل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، ثم يواصل الإشارة إلى بعض المعاني الدعوية من الآية قائلًا: «يقول تعالى مخبرًا عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى؛ أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام[٢].

ويجدر هنا التنبيه إلى مسألة مهمة تتعلق بقصص الأنبياء، وهو أن تناول بعض كتب التفسير لها قد شابه دخول الإسرائيليات التي لا تصح نسبتها إلى المصطفين الأخيار عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وقد نبه إلى ذلك عدد من المفسرين المعاصرين، إذ يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لسورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب،

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٣٧٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ١٣٣-١٣٦).

فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل»[١].

وحول قصة نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم عن المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير»[٢].

ويعلق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ على ما ورد في بعض كتب التفسير حول فتنة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان، وطرد سليمان عن ملكه حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطرودًا عن ملكه، إلى آخر القصة لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهي من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة»[٣].

المجال الثاني: كتب الحديث:

تناولت كتب الحديث دعوة الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما نقلت لنا أقوال النبي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٣٩٣).
(٢) المرجع السابق (ص٦٠٦).
(٣) ينظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٢٥٤).

المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر أحواله، ومن تلك الكتب الكتب الستة: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.

وقد تناولت الكتب الستة قصص الأنبياء وما جاء في دعوتهم وأخبارهم مع أقوامهم، وما قصته السنة النبوية من شأنهم بكثير من التفصيل، وأولت هذا الجانب العناية الخاصة، حيث أفرد الإمام البخاري في صحيحه كتابًا خاصًّا فيما يتعلق بقصص الأنبياء ودعوتهم، أسماه: كتاب أحاديث الأنبياء، ذكر تحته خمسين بابًا تناولت أخبار الأنبياء بدءًا من آدم إلى عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أما الإمام مسلم فأدرج أخبار دعوة الأنبياء مفرقة بين كتاب الإيمان، وكتاب الفضائل، فقال في كتاب الإيمان، باب: نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وباب: ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، وباب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي كتاب الفضائل ذكر عدة أبواب تناولت فضائل عدد من الأنبياء والرسل، منهم أولو العزم خاصة، فيما جاءت باقي قصص الأنبياء مفرقة على باقي كتب الصحيح، بينما ذكر الترمذي أخبار بعض الأنبياء في أبواب الفتن، فقال مثلًا: باب ما جاء في نزول عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأبو داود وابن ماجة ذكرا في سننهما في كتاب السنة كثيرًا مما يدل على وجوب لزوم السنة وأجر الداعي إليها، وفضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الخلفاء منهم خاصة، والتخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتحذير من بعض الفرق كالخوارج والجهمية، كما أفردا كحال غيرهما من أصحاب الكتب الستة كتاب الجهاد، في بيان فضله، وأجر الشهادة في سبيل الله، وعظم الدعوة إلى الله، وكثير من أحكام الجهاد في الإسلام، كما ذكرا في مواطن عدة كثيرًا من أخلاق إمام الدعاة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي كتاب الفتن عند ابن ماجة ما يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ذلك.

المجال الثالث: كتب التاريخ:

تناولت كتب التاريخ العام حياة الأنبياء ومن بعدهم، ومن ذلك: تاريخ الرسل والملوك للطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي، والبداية والنهاية لابن كثير.

وإن الدارس لكتابات المؤرخين الأوائل يجدها تعتمد في الغالب على منهج واحد، وهو الإسناد الذي كان بمثابة الملاذ الآمن الذي يلجأ إليه المؤرخ لتوثيق خبره، ومع ذلك فقد دخلت الإسرائيليات إلى كتب التاريخ، خاصة فيما يتعلق بقصص الأنبياء. وفيما يلي نظرة موجزة لأهم معالم كتب التاريخ:

📖 تاريخ الطبري:

قسَّم الإمام الطبري في تاريخه الأحداث إلى حوليات تحتها تبويبات، بدءًا من خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى منتصف العصر العباسي، فذكر بالتفصيل خبر آدم، وخبر نوح مع قومه، وموسى ودعوته، وأخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والوقائع في عهد النبوة، وفي عهد الخلفاء الراشدين، فجمع الأحداث التاريخية ودعمها بسند أو أكثر، وذلك توخيًا للصدق والأمانة العلمية، فكان يمهد للحدث التاريخي المهم بإعطاء صورة موجزة تقريبية، ثم يذكر المرويات فيه بالاعتماد على منهج الإسناد، دون أن يُعدِّل الرواية؛ اعتقادًا منه أن التاريخ لا تُقام عليه أحكام شرعية، فمثلًا يقول في دعوة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قد ذكرنا اختلاف المختلفين في ديانة القوم الذين أُرسل إليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن منهم من يقول: كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله، من ركوب الفواحش وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.. فبعث الله إليهم نوحًا مخوفهم بأسه، ومحذرهم سطوته، وداعيًا لهم إلى التوبة والمراجعة

إلى الحق، والعمل بما أمر الله به رسله وأنزله في صحف آدم ومن بعده، ونوح يوم ابتعثه الله نبيًّا إليهم- فيما ذكر- ابن خمسين سنة، وقيل أيضًا: ما حَدَّثَنَا به نصر بن علي الجهضمي، قال: حَدَّثَنَا نوح بن قيس، قال: حَدَّثَنَا عون بن أبي شداد، قال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أرسل نوحًا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة[١].

الكامل في التاريخ لابن الأثير:

ومثله صنع ابن الأثير في تاريخه الكامل، حيث قال في مقدمة الأحداث التي كانت في زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن ذكر اختلاف العلماء في ديانة قوم نوح: «وإن القول الحق الذي لا يشك فيه، هو أنهم كانوا أهل أوثان يعبدونها، كما نطق به القرآن، وهو مذهب طائفة من الصابئين.. فلما تمادى قوم نوح على كفرهم، وعصيانهم؛ بعث الله إليهم نوحًا يحذرهم بأسه، ونقمته ويدعوهم إلى التوبة، والرجوع إلى الحق، والعمل بما أمر الله تعالى، وأرسل نوح وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

ثم بدأ يسرد الأحداث ناسبًا الرواية إلى أصحابها فقال: وقال عون بن أبي شداد: إن الله تعالى أرسل نوحًا وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل غير ذلك، وقد تقدم»[٢].

البداية والنهاية لابن كثير:

يُعد كتاب البداية والنهاية لابن كثير، من أوسع ما أُلف في هذا الباب، فقال

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ١٧٩).

(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (١/ ٦٢).

مبينًا منهجه في مؤلفه هذا: «أما بعد: فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدإ المخلوقات: من خلق العرش والكرسي والسموات، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية، حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما صح نقله أو حسن، وما كان فيه ضعف نبينه، وبالله المستعان وعليه التكلان»[1]، وقد بذل ابن كثير جهدًا كبيرًا في إبعاد الإسرائيليات والموضوعات والأساطير الخرافية والقصص الشعبية القديمة، التي دخلت عند المؤرخين المسلمين في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء من تاريخه، وهذه ميزة تفرد بها ابن كثير على من سبقه وخلفه من المؤرخين؛ ومع ذلك لم يسلم الكتاب منها تمامًا، واتسمت السيرة النبوية عند ابن كثير بالطول والإحاطة الشاملة لجميع نواحي سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ولادته إلى وفاته، وقد ألحقت بها موضوعات أفردها العلماء المصنفون من قبل بالتأليف، كالشمائل والدلائل والفضائل والخصائص التي ذكرها ابن كثير باعتبارها من متعلقات السيرة النبوية الشريفة، أما تاريخ الإسلام، فقد دون فيه ابن كثير تاريخ نحو ثمانية قرون، تعرض فيه للكلام على أحداث إسلامية كبرى، واختلفت فيها الآراء وتشعبت فيها مناهج التفكير، فأدلى فيها بآرائه، بناها على العلم والتحقيق والدليل، وقد أبرز ابن كثير في تاريخ الإسلام نواحي مشرقة زاهرة، حثًّا للمسلمين على عمل الخير واتباع الحق، كما أشار إلى ما طرأ على المسلمين من ضعف وانحطاط

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١/ ٦).

في بعض العصور، وبين سبب ذلك للنصيحة والعبرة والدرس، وقد كان لجمعه بين الحوادث والتراجم أثر في احتواء تاريخه على أخبار علمية وثقافية إلى جانب الحوادث السياسية والفتن والحروب.

فتبين أن موضوع قصص الأنبياء كان من المواضيع العامة في كتب السيرة والتاريخ منذ عصر التدوين، وأن منهج العلماء في سرد أحداث تاريخ الدعوة الإسلامية خاصة، كان يعتمد على سرد الأحداث بذكر أصل القصة وتاريخ الخبر، والتقديم له، ومن ثم ذكر الأخبار فيه معزوة بالسند إلى أصلها، أما القصة التي لم يرد فيها خبر، فالاعتماد حينها على ما جاء به القرآن الكريم من خبر الأنبياء السابقين.

المجال الرابع: كتب مستقلّة في قصص الأنبياء وتاريخ الدعوة:

اتجه التأليف إلى الكتابة المستقلة في دعوة الأنبياء وقصصهم، مع التركيز على استنباط الدروس والعبر والفوائد منها، مما هو مهم للدعاة إلى الله وتعالى، ومن أشهر المؤلفات في هذا المجال:

📖 **قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير:**

وهو كتاب موسوعي مرتب في ذكر أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، تميز بأن جَعل مؤلفه القرآن الكريم المصدر الأول في تاريخ الأنبياء، فمنهجه فيه أنه يجمع الآيات المتعلقة بقصة كل نبي في باب واحد، والربط بينها من خلال تفسيرها وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها؛ وذلك لأن تاريخ النبوة حلقات متصلة لا بد من اكتمالها ووضوح صورتها، لتتجلى الحكمة التي قصدها القرآن الكريم، ثم يبدأ في عرض قصة نبي من الأنبياء بجمع الآيات القرآنية المتعلقة بها باستقصاء من كل سور القرآن، ثم يستخرج دلائل الآيات الكريمة من جانب التفسير، ثم بعد ذلك

يجمع الأحاديث المروية في قصص الأنبياء بأسانيدها من الصحاح والمسانيد، ثم يتجه إلى روايات المؤرخين وعلماء السير، يختار منها ما يساير حقائق القرآن والسنة وآراء المفسرين، مع الاهتمام بمقاصد القرآن الكريم في إبراز العظمة والوقوف على كثير من مواطن العبرة في آيات الأنبياء، كما جعل من القصص وسيلة لتقرير كثير من الأحكام والآداب[١].

📖 تاريخ الأنبياء للخطيب البغدادي:

وهو من أهم مراجع قصص الأنبياء المفردة في هذا الباب، ومنهجه في كتابه أنه رتبه على أبواب ترتيبًا دقيقًا، وآثر حذف الأسانيد رغبة في الإيجاز، معتمدًا على النقل مع ترجيح لبعض المرويات، ويعتمد غالبًا في سرد القصة على رواية أهل التفسير، وفي أحيان أخرى يستعين بأهل الأخبار، وبأهل التواريخ، ويمحص الرواية ويأخذ بأصحها[٢].

كما أن هناك العديد من الكتب المعاصرة في هذا الباب[٣].

---

(١) ينظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، دراسة وتحقيق: د. مصطفى عبد الواحد (ص١٢-١٥).

(٢) تاريخ الأنبياء، للخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: آسيا علي البارح (ص٢٠-٢١).

(٣) ومنها: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د. فضل حسن عباس، تناول التكرار في القصص القرآني، كما عرض عددًا من القصص القرآني، مستنبطًا الدروس والعبر المستفادة، وكذلك كتاب قصص الأنبياء في القرآن الكريم، د. توفيق الواعي، وفيه قدَّم بين يدي كل قصة بالأهداف العامة ثم السلوكية ثم المعرفية ثم الوجدانية ثم المهارية، ثم المحتوى العلمي للقصة، ثم يختم بالدروس والعبر من القصة، ثم يتبعها بأسئلة للتقويم والقياس الذاتي، وكذلك كتاب: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي، والكتاب يبحث في تاريخ الدعوة إلى الله منذ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى عصرنا الحاضر، ويقع في جزأين: تضمن الجزء الأول دعوة الأنبياء منذ آدم وحتى عيسى عليهم الصلاة والسلام، والجزء الثاني تضمن دعوة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الدعوة زمن الخلافة الراشدة فالدولة الأموية فالعباسية فالعثمانية، وقد عني الكتاب بذكر الفوائد والعبر في دعوة الأنبياء ومن بعدهم.

المبحث الثاني

حاجة البشرية للرسالات

لمّا كانت عقول البشر قاصرة لا يستطيعون وحدهم أن يهتدوا إلى الحق ويعرفوا الله عَزَّوَجَلَّ؛ كانت الحاجة ماسّة إلى من يعرّفهم بربّهم الخالق الرازق المحيي المميت، وتلكم هي مهمّة الأنبياء والرسل، فالأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده، يوحي إليهم الله بما يشاء، ثمّ يبلّغون إلى الناس ما يوحى إليهم، ويؤيّدهم بالمعجزات برهانا على صدقهم فيما ينقلون عن ربّهم.

يفرّق العلماء بين الرسول والنبي؛ والذي عليه الجمهور أنّ الرسول من الأنبياء هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه، أمّا النبيّ الذي ليس برسول فهو من بُعِث لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، إلى أن قال: فقوله: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ** ﴾ [الحج:٥٢] دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولًا عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم، ولهذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»(٢).

---

(١) تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنّة النبويّة، د. محمد الطيب النجار (ص١٥).
(٢) النبوات، ابن تيمية (ص٢٥٥-٢٥٦).

وأنبياء الله إلى الناس كُثُر لا يعلم عددهم إلا الله عَزَّوَجَلَّ، منهم من قصّ الله علينا قصصهم وهم قلّة وعددهم خمسة وعشرون مذكورون في كتابه عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤].

وهؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله في كتابه، منهم ثمانية عشر في أربع آيات متتالية من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦]، والسبعة الآخرون في بعض سور متفرّقة وهم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وقد نظمهم بعض الشعراء في قوله:

فِي (تِلْكَ حجَّتُنا) منهُم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ... ذو الكفل آدمُ بالمختار قد خُتِموا[1]

(١) ينظر: القصص في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، د. علي عبد الحليم محمود (ص٣٤).

المبحث الثالث

السمات المشتركة لدعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

لما كانت دعوة الأنبياء من مشكاة واحدة، اتفقت دعواتهم في أمور أساسيّة منها:

١ ـ وحدة رسالات الله ودعوة الأنبياء:

جميع الأنبياء دعوا أقوامهم إلى الكلمة الطيبة لا إله إلا الله، والإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] وعند التأمّل في قصص الأنبياء يلاحَظ أنّ كل نبيّ بدأ دعوته بـ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:٥٩].

وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

ودعا يوسف عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عبادة الله وحده فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا

لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠].

ودعا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣، ٢٤]، وكذلك عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ دعا قومه إلى التوحيد، قال الله تعالى: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٧].

فجميع الأنبياء دعوا إلى الإيمان بالله وحده وتوحيده بالعبادة.

٢. الإسلام دعوة الرسل:

الإسلام هو الدين الذي ينتسب إليه جميع الأنبياء فنوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يُقرر: ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢]، وإبراهيم وإسماعيل عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ يدعوان: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾ [البقرة:١٢٨]، ويعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يوصي أولاده بالإسلام: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢]، وسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يرسل إلى بلقيس قائلًا: ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل:٣١]، وموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ينصح قومه بالإسلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، ويوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدعو ربه: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

فجميع الرسل جاءوا بدين واحد: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، والإسلام بهذا هو الدين الأزلي والحقيقة الخالدة التي رعاها كل

الأنبياء ودعوا أممهم إليها، وما طرأ بعد ذلك من مسميات أو تحريفات فهو من عمل الأتباع المنحرفين(١).

٣. تبرّأ الأنبياء من أصنام قومهم وآلهتهم التي يعبدون من دون الله:

فهذا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تبرّأ من شرك قومه، قال الله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:٥٤]، وتبرّأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أصنام قومه فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]، كما قام بتحطيمها، قال الله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٧، ٥٨].

وهذا رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرأ من شرك قريش ومما يعبدونه من دون الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩].

٤. الدعوة إلى الإيمان بالغيب وبالبعث بعد الموت:

دعا الرسول والأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بالغيب والبعث بعد الموت؛ ومن ذلك: قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٥]، وقال صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ

(١) تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٣١-٣٢).

عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٥٦]، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٦].

فالإيمان بيوم القيامة والبعث والنشور للجزاء والحساب، وانقسام الناس إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، من أولويات دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٥. الدعوة إلى التزام شريعة الله وسلوك صراطه المستقيم:

حقيقة الإيمان بالله هو الخضوع والانقياد لأمر الله في الأمر والنهي، ولذلك فقد كانت دعوة الرسل تعتني بتعبيد الخلق للخالق في جميع شؤونهم، والاستقامة على شرعه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣].

المبحث الرابع

أساليب الأنبياء في الدعوة إلى الله

تنوعت أساليب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم إلى الله، ويمكن الوقوف على أهم تسعة أساليب اتبعها أنبياء الله في دعوة أقوامهم، ومن ذلك:

١. الاستغناء والزهد فيما بأيدي المدعوّين:

ما من نبيّ إلا وقد استغنى عمّا في أيدي المدعوّين في دعوته، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:٢٩]، وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:٥١]، وقال صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤٥]، وقال لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٤]، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٨٠].

٢. الاحتجاج على أقوامهم بذكر نعم الله عليهم:

تستلزم نعم الله شكر الله وإفراده بالعبادة، ولذا فقد ذكر الأنبياء أقوامهم بذلك، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكّر قومه بنِعَم الله التي أنعمها عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٥-٢٠].

وذكّر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه بنعم الله التي أغدقها عليهم؛ من كونهم خلفاء قوم نوح، وزيادة بنيتهم في الخِلقة، ووسّع عليهم رزقهم من الأنعام وكثرة الأولاد، ممّا يستلزم شكر الله وهو التوحيد، قال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩].

وكذلك ذكّر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه، فقال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٧٤].

٣. اللطف واللين مع المدعوّين:

ما من نبيّ إلا وقد اتّخذ أسلوب اللين مع قومه، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ تلطّف في الخطاب مع قومه ورفق بهم في الدعوة إلى الحق، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨].

وسلك هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلك الرفق واللين في التخاطب مع المدعوّين، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٧، ٦٨].

وردّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه بتلطّف في العبارة وحسن تأتّ في دعوتهم إلى الخير بعد تكذيبهم وتهديدهم له، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ

يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾ [هود:٦٢، ٦٣].

واستخدم الخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ألطف عبارة وأحسن إشارة في دعوة أبيه، بيّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام تذكيرًا له بالصلة التي تربط بينهما، وهي رابطة الأبوّة والبنوّة، ولم يبدأ الدعوة معه بتسفيه معبوداته أو تحقير آلهته؛ لئلا ينفر منه، أو يصمّ آذانه عنه، أو يرميه بالعقوق والجحود؛ بل رتّب الكلام على أحسن اتّساق، وخاطبه بالقول اللين والأدب الجمّ، قال الله تعالى مخبرًا عنه: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم:٤٢-٤٥].

وكذا شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تلطّف مع قومه في العبارة، ودعاهم إلى الحق بأبين إشارة، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨].

ويأمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بدعوة فرعون باللين، قال الله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، وقال أيضًا: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ [النازعات:١٧-١٩].

وهذا رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل به قومه الأفاعيل، فخرج إلى الطائف عارضًا على أهلها الدعوة، فردوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأقبح رد؛ إذ رموه بالحجارة حتى أدموا قدميه، فأرسل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إليه ملك الجبال، يستأمره أن يُطبق الأخشبين على أهل مكة -وهما الجبلان اللذان بينهما- فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل أستأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شيئًا**»[1].

٤. الثبات والاستمرار في الدعوة:

واصل أقوام الأنبياء الإعراض عن قبول الدعوة، واستمر الأنبياء في دعوتهم، فهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في قومه ألف عام إلا خمسين عامًا، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]، وقد بذل عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم النصح، ونوّع الأساليب لهم في الدعوة في الليل والنهار، والسرّ والجهر، والترغيب تارة والترهيب أخرى، ومع ذلك فقد استمرّ أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٥-٩].

وهذا رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذل كل النصح واستمر في دعوة الناس قرابة ربع قرن من الزمان، لم يقف ولم تضعف عزيمته بتكذيبهم له وعداوتهم له ومحاولة قتلهم له وقتالهم له ولأصحابه.

---

(١) مختصر سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص١١٥-١١٦).

٥. الصبر وتحمّل الأذى:

صبر أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على كثير من الأذى الجسدي والقولي في سبيل تبليغ الرسالة، ومن ذلك: الاتهام بالسفه والضلال، والجنون، والسخرية والتهكم والتهديد، بل محاولة القتل، كما حصل لخليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قذفوه في النار فأنقذه الله منها، وكما وقع لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما عزم اليهود على قتله فرفعه الله إليه، ووقع كذلك لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة حينما اجتمعت قريش على قتله قبل هجرته إلى المدينة، وكذلك محاولات اليهود على قتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنجاه الله من كيدهم.

٦. الحـــوار:

حاور الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أقوامهم بغرض دعوتهم إلى الله، فمن ذلك حوار هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، إذ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢١-٢٤].

وحاور إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أباه وقومه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٦].

كما حاجّ قومه من عبدة الكواكب مبيّنًا لهم أنّ هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب لا تصلح للألوهية ولا أن تُعبد مع الله عَزَّوَجَلَّ، لأنها مخلوقة مدبّرة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٧٥-٨٠].

٧. الترغيب والترهيب:

رغّب كل نبيّ في طاعة الله واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعّدهم على مخالفة ذلك بعقوبة الدنيا والآخرة، قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح:١٠-٢٠].

وقال هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

٨. ضرب المثل:

فقد ضرب هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ المثل بقوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليعتبر قومه، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وضرب صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ المثل بقوم هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وكذلك ضرب شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ المثل لقومه بالأقوام السابقة وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩].

٩. النصح والتوجيه:

ومن ذلك قول هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٞ﴾ [الأعراف:٦٨]، وقول صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]، وقال شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

ووجّه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بنيه على التشبّث بالإسلام الذي هو التوحيد، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

المبحث الخامس

السمات المشتركة بين المدعوين المعاندين وموقفهم من دعوة الأنبياء

لمّا كان الكفر بالله ملّة واحدة؛ وُجدت سمات مشتركة بين معتقدات أمّة الدعوة، نذكر سبعة منها:

١ ـ استبعاد أن يبعث الله رسولًا بشرًا:

هذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤].

ولذا فقد قال قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون:٣٤]، وجاء رد نوح لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٦٣].

وكذلك قال هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩].

٢ ـ إنكار المعاد والبعث بعد الموت:

أنكرت كثير من الأمم الكافرة يوم القيامة وقيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا، والبعث بعد الموت وقيام الناس لرب العالمين للجزاء والحساب، فقال كثير منهم: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ

هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٧] ، وقال أيضًا: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ [الواقعة:٤٧].

وقد أخبر الله أن هذا الاعتقاد متوارث، قال به كثير من الأقوام السابقة، فقال سبحانه: ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٨١-٨٣].

وقد فتَّ أحد كفار قريش العظم بين يديه أمام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستنكرًا البعث بعد الموت، قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٨، ٧٩].

٣. الامتناع عن قبول الدعوة بسبب الضعفاء:

كانت أقوام الأنبياء تستحقر الضعفاء وتتكبر عليهم، ولذا كانوا يطلبون من الأنبياء إبعاد الفقراء كشرط لقبولهم الدعوة، كما حصل مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين طلب منه وجهاء القوم إبعاد الضعفاء عنه قبل أن يستجيبوا له، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١]، ولكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أبى عليهم فقال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١١٤].

وكذلك فعل كفار قريش مع نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف:١١]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ويدعنا، فلو كان خيرًا ما سبقونا إليه»(١).

٤. التحدي بطلب المعجزات:

طلبت كثير من الأمم من أنبيائهم المعجزات للتصديق بهم، فعادٌ طلبوا من نبيّهم أن يأتيهم بما يؤيّد رسالته بقولهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:٥٣]، وطلب فرعون من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كذلك بقوله: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٦](٢).

وتحدى كفار قريش رسولنا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطلبوا آية ومعجزة خارقة، فقد طلبوا أن يشق لهم القمر، وقد حقق الله لنبيه تلك المعجزة ورأوها بأعينهم، ومع ذلك فقد كذبوا واتبعوا أهواءهم ولم تنفعهم تلك المعجزة، قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر:١-٤]، وفي موطن آخر بين الله سبحانه جانبًا من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٢٦١).
(٢) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار (ص٣٤).

تعنت كفار قريش وتعنتهم بقبول الرسالة وطلبهم بعض الأمور التعجيزية، قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٥. استعجال العذاب:

استعجل كثير من الأقوام المعاندة العذاب، وطلبوا من أنبيائهم التعجيل به تحديًا واستخفافًا وتكذيبًا لأنبيائهم ورسلهم، فهؤلاء قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود:٣٢].

وكذلك قال قوم عاد لنبيهم هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢]، فجاءهم ما كانوا يستبعدونه ويستعجلونه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢٤].

وتحدى قوم ثمود نبيهم صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فعقروا الناقة غير مبالين بالعقوبة قال الله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٧٧].

٦. التعلق بما كان عليه الآباء والأجداد:

تعلق المعاندون لدعوة الرسل على ما كان عليه الآباء والأجداد، قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:١٠].

فهؤلاء قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ استنكروا دعوته لهم بعبادة الله وحده وترك ما كان عليه الآباء، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

وكذلك فعل قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢].

٧. معاداة الأنبياء والرسل وإيذاءهم عملًا وقولًا:

تعرض الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ للأذى الجسدي والقولي في سبيل تبليغ الرسالة ومن ذلك:

☜ **الاتهام بالسفه والضلال والكذب:**

اتهم أقوامُ الرسلِ رسلهم بالسفه والضلال، فقد قال قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لنبيهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠]، وقال قوم عاد لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف:٦٦]، وقال أصحاب الأيكة لنبيّهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

☜ الاتهام بالجنون والسحر:

أُتهم كثير من الرسل والأنبياء من قبل أقوامهم بالجنون، فقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كذبوه متهمينه بالجنون، قال الله عنهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩]، وأخبر القرآن عن لسانهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:٢٥]، وقالت عاد لنبيّهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤]، واتّهم فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالجنون، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧]، وكذلك اتّهم بنو إسرائيل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسحر: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

وكذلك قالت قريش عن رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦]، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان:١٤]، وقال أيضًا: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان:٨].

وقد بين الله تعالى أن هذه التهمة تكاد تكون قاعدة مطردة فيمن سبق من الدعوات حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢، ٥٣].

☜ السخرية والتهكم:

سخرت أقوام الرسل برسلهم واستهزؤوا بهم، فهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يسخر منه قومه حين صنعه للسفينة، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨]،

واستهزأ أصحاب الأيكة بشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، وسخر فرعون من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢].

التهديد:

هدد كثير من الأمم المعاندة أنبياءهم حتى يتوقفوا عن الدعوة، ومن ذلك تهديد قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ له بالرجم، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، وهُدّد صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإخراج، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء ١٦٧].

وهدد آزر ابنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرجم والنفي: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦].

محاولة القتل:

حاولت بعض الأمم قتل أنبيائهم، فهؤلاء قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قذفوه في النار فنجاه الله منها، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٨، ٦٩]، وكذلك فعل اليهود مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين عزموا على قتله فرفعه الله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨]، وكذلك حاول كفار قريش مع نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ حاولوا قتله حين عزم على الهجرة إلى المدينة فنجاه الله

منهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

كما حاول اليهود قتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإلقاء الصخرة عليه حين كان في سوقهم، وكذلك وضعُهُم السمَّ في طعامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى مغازيه.

مما سبق يتضح التشابه الكبير بين مواقف المدعوين المعاندين للأنبياء، فالكفر ملة واحدة.

المبحث السادس

انتشار الإسلام في العالم

لم يشهد الوجود دينًا انتشر بسرعة جاوزت حد العجب، وعم جزءًا كبيرًا من المعمورة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا في زمن قليل، مثل الدين الإسلامي، فقد انبثق كنور الفجر يبدوا ضئيلًا ثم يشع نوره فيعم الأفق، ثم يشتد نوره ويقوى حتى يكون نهارًا مشرقًا منيرًا، يجد الناس فيه غذاء الروح ومتاع الجسد وراحة البدن.

فمنذ بزوغ فجر الدعوة في السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة، حمل نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعباء الرسالة، فبعثه الله إلى الناس كافة، هاديًا وبشيرًا، فقاومته قريش أولًا، وما آمن معه في مكة إلا قليل، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة المنورة، فأظهره الله ونصره على أعداء الدعوة، فبدَّد دياجير الشرك، ومحى علامات الكفر وقضى عليها في فتح مكة، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وتوالت الوفود تبايع على الإسلام، وما انتقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى في السنة الحادية عشرة من هجرته حتى كان الإسلام قد عم الجزيرة العربية، وبلادًا ومناطق عدة جنوبًا وشرقًا وغربًا وشمالًا.

وفي عهد الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ امتد رواق الإسلام فشمل مملكتي فارس والروم، ودخل في عدله بلاد الشام ومصر وطرابلس وبقية أفريقية، وذلك كله في خمس وثلاثين سنة، ثم استبحر الإسلام في عهد بني أمية فوصل إلى حدود الصين، ثم غزا أوروبا.

ثم توالى هذا الانتشار بعز عزيز أو بذل ذليل، يحفظ الله دينه، وينصر الإسلام وأهله، تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ

كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٨، ٩].

ويمكن أن يُبسط الكلام حول انتشار الإسلام من خلال المحاور الآتية:

أولًا: السر وراء انتشار الإسلام:

بلغت رسالة الإسلام من نواحي هذه الأرض مبلغًا ترضى عنه النفس ويطمئن إليه القلب، وإن السبب الأكبر الذي جعل العالم كله يلفت نظره إلى الإسلام مقارنة مع غيره من الديانات الأخرى؛ هو تلك السرعة الهائلة التي انتشر بها، وهذا ما حمل العقلاء من الغربيين إلى الدخول فيه أو الإعجاب به، وصدق نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»[(١)]، «وهذا الخبر قد وجد مخبره كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى بحر طنجة الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند»[(٢)].

وهذا الانتشار الذي تميز به الدين الإسلامي هو معجزة من معجزات النبي الخاتم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي استطاع في مدة وجيزة أن ينشر الإسلام في عدة مدن، وهو أعظم برهان على عالمية رسالة الإسلام « ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أنشأ أمة الإسلام في المدينة، وبدأ مغازيَه، استطاع في عشر سنوات أو نحوها أن يُدخِل في

(١) أخرجه مسلم، (٨/ ١٧١) برقم: (٢٨٨٩)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الْأمة بعضهم ببعض.

(٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٢٦/ ٩٣).

الإسلام جزيرة العرب كلها، وهي وحدها سُدْس مساحة عالم الإسلام»[١]، يقول العلامة محب الدين الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نذكُر بالفخر والإعجاب انتشار الإسلام في الصدر الأول انتشارًا يكاد يكون معجزة»[٢].

وهذا ما شهد به أحد المستشرقين، حيث يقول ول ديورانت[٣] في كتابه قصة الحضارة: «وُلِد محمد من أسرة فقيرة في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مُجدِبة قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحَّل، إذا جُمعت ثروتهم كلها، فإنها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة أيا صوفيا، ولم يكن أحد في ذلك الوقت على عِلم أنه لن يَمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا، وجميع بلاد المغرب ومصر، ومعظم شمال إفريقيا، وساروا في طريقهم إلى إسبانيا، والحق أن ذلك الحدث الجلل الذي تمخَّضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المُتوسِّط ونشر دينها الجديد في ربوعه - لَهُوَ أعجبُ الظواهِر الاجتماعية في العصور الوسطى»[٤].

كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دُوِّن في تاريخ الإنسان؛ فقد ظهر الإسلام في أمة كانت مِن قَبلِ ذلك العهد مُتضعضِعة الكيان، وبلادٍ منحطَّة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود، حتى انتشر في نصْف الأرض مُمَزِّقًا ممالك عالية الذُّرى، مترامية الأطراف، وهادمًا أديانًا قديمة كرَّت عليها الحِقَب

(١) الإسلام الفاتح، د. حسين مؤنس (ص٣).
(٢) الحديقة، د. محب الدين الخطيب (١٠/ ١١٦٢).
(٣) ويليام جيمس ديورانت *William James Durant* (١٨٨٥-١٩٨١) فيلسوف، ومؤرخ أمريكي من أشهر مؤلفاته: كتاب قصة الحضارة.
(٤) قصة الحضارة، وول ديورانت (١٣/ ٧٦).

والأجيال، ومُغيِّرًا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيًا عالمًا حديثًا متراصَّ الأركان، هو عالم الإسلام، كلما زدنا استقصاءً، باحثين في سرِّ تقدُّم الإسلام وتعاليمه؛ زادَنا ذلك العجب العجاب بهرًا، فارتددْنا عنه بأطراف حاسرة.. فلسرعان ما شرع يتدفَّق ويَنتشِر وتتَّسع رقعته في الأرض مُجتازًا أفدح الخطوب، وأصعب العقبات، دون أن يكون من الأمم الأخرى عَونٌ يُذكر، ولا أزر مَشدود، وعلى شدة هذه المكاره قد نُصر الإسلام نصرًا مُبينًا عجيبًا؛ إذ لم يكد يَمضي على ظهوره أكثر من قرنين، حتى باتَت راية الإسلام خفاقة من «البرانس» حتى «هملايا»، ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط إفريقية[1].

وإن فطرية الإسلام من أهم العوامل التي دفعت الناس إلى الإقبال على الإسلام والدخول فيه، وفطرة الله هي دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

ويُقصد بفطرية الإسلام: أنه جاء موافقًا لطبيعة الإنسان، مراعيًا رغباته، غير متنكر لضروریاته، يكرم دوافع جسده، وإلحاحات شهوته، لا يعاديها ولا يستقبحها، ولا يدمر نفس الإنسان ولا يحارب فطرته، بل الإسلام جاء ليأخذ بيد هذه الدوافع ليجندها ويوظفها في سبيل عمارة الأرض وبقاء البشرية ودوام الحياة، فيجمع في آن واحد بين رغبات الجسد وأشواق الروح، وغايات الحياة، بتناسق وتوافق بديع[2].

وعدة عوامل امتاز بها الدين الإسلامي أكسبته قوةً وسرًّا روحيًّا، وانتشارًا

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض (١/ ١-٢).
(٢) ينظر: عوامل انتشار الإسلام ومعوقاته، د. إبراهيم بن عبد الكريم السنيدي (١/ ٢١٣).

واسعًا وإقبالًا لم تشهد مثله ديانة أخرى، كسمة الوضوح، واليسر والسماحة، والكمال، والشمول، والعالمية، والاستمرارية، والعدالة، ونظام الأخلاق الرفيع.

والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيه، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء ولا ينتقصه شيئًا، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجد الطريق إليه، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا، ثم حياة الخلود في دار البقاء، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين، واتباع شريعة الإسلام، وكلها خير ومساواة وعدل.

والحق أن أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام، أنه «دين طيار» ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر، كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح! وإنك لتنظر إلى خريطة الأرض، وتتأمل مدى انتشار الإسلام، فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي المساحة التي فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإسلام، أما الباقية فقد دخلها الإسلام، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم، أو سياسة مرسومة لذلك!! إنما هو الإسلام نفسه، جعله الله خفيفًا على القلوب، قريبًا إلى النفوس، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه، فإذا استقر في قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه، فهو الري الذي تظمأ إليه النفوس وتستقي منه، وهو الأمل الذي يخفف على الإنسان وطأة المسير في الدنيا، ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هو: وضوحه وصدقه، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقلك، كما ترى في الأديان الأخرى، حتى الغيب الذي

تؤمن به في الإسلام حقيقة.. ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتى في نفسك، وغاية ما تحتاج إليه من يذكرك بها، وهذا معنى من معاني تسمية الله للقرآن بالذكر الحكيم[١].

دون أن يَغفل القارئ هناك سبب وعامل مهم آخر وراء السر الكامن من انتشار الاسلام سواء في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو حتى وقتنا الحالي؛ وهو ما اتصف به الداعي والمرشد إليه النبي الخاتم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان ما اتصف به من حسن الخلق وطيب المكارم أحد أهم تلكم العوامل؛ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، كما كان لأصحابه وخلفائه من بعده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عظيم الأثر في نشر الإسلام فيما وراء جزيرة العرب؛ لأن الإسلام رباهم تربية خلقية، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وحبب إليهم الإيمان.

ثانيًا: هل انتشر الإسلام بالسيف؟

ما أبعد الإسلام من تهمة ألصقها ووجها إليه أعداؤه وقد هالهم سرعة انتشار الإسلام، فدأبوا على دراسته وإعلان الحرب عليه بترديد الإفك وبث الأكاذيب تحت ستار البحث العلمي، ظنًّا منهم أنها ستساهم في وقف جريان نهر الإسلام العذب، وتأتي على رأس ترهاتهم فرية انتشار الإسلام بالسيف، تلك الأكذوبة الفجة التي دحضتها وقائع التاريخ، واعترف ببطلانها بعض بني جلدتهم المشهور عنهم الحيدة والالتزام العلمي والمنهجي.

---

(١) الإسلام الفاتح، د. حسن مؤنس (ص٢٠-٢٤).

يقول المستشرق الإنجليزي جورج سيل[١] ردًّا على أصحاب هذه الفرية: «لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لامثيل له في العالم، وأن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا»[٢].

ويقول توماس أرنولد[٣] في كتابه: الدعوة إلى الإسلام: «ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق، وأن السيف إنما يُمتشق أحيانًا لتأييد قضية الدين، فإن الدعوة والإقناع، وليس القوة والعنف، كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه»[٤].

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه[٥]: «لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، فلم يفرض العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فبدون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى الداخلون في المسيحية اختفاء

---

(١) جورج سيل (*George Sale*) -١٦٩٧-١٧٣٦م- مستشرق إنجليزي ومحامي، درَس العربية، واقتنى مجموعة وافرة من مخطوطاتها، واشتد اهتمامه بالإسلام، وترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية، وشارك في جمع دائرة المعارف. (المستشرقون، نجيب العقيقي (٢/ ٤٧١).

(٢) نقلًا عن الفتوحات الإسلامية: تحرير أم تدمير؟، د. محمد عمارة (ص١٥٦).

(٣) سير توماس أرنولد (*sir Thomas Arnold*) -١٨٦٤/ ١٩٣٠م)، من كبار المستشرقين البريطانيين، وصاحب فكرة كتاب تراث الإسلام، تعلم في كمبردج، وقضى سنوات عدة في الهند أستاذًا للفلسفة، (ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، (٢/ ٨٤).

(٤) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم، وعبد المجيد عابدين (ص٨٨).

(٥) زيغريد هونكه (*Dr. Sigrid hunke*)،-١٩١٣-١٩٩٩م- مستشرقة ألمانية، اشتهر عنها نظرتها المعتدلة إلى الإسلام، عاشت فترة في بلاد المغرب، وزارت العديد من البلدان العربية ودرست أحوالها، من آثارها: الرجل والمرأة، وأثر الأدب العربي في الآداب الأوروبي. معجم أسماء المستشرقين، د. يحيى مراد (ص١١٣٣-١١٣٤).

الجليد، إذ تشرق الشمس عليه بدفئها! وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس حتى من بقي على دينه، إلى السادة الفاتحين»[١].

فهذه جملة من اعترافات الغربيين بحقيقة سماحة الإسلام ويسره، وأن انتشاره لم يكن بالقوة ولا بالسف، بل بما تميز به من رحمة ويسر وإقناع، انتشر بالدعوة إلى الله تعالى، وبرسالته السامية، وما يحمل من خير للبشرية، يقول العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الفرية: « هذا القول على إطلاقه باطل، فالإسلام انتشر بالدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأيد بالسيف، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَّغه بالدعوة بمكة ثلاثة عشر عامًا، ثم في المدينة قبل أن يؤمر بالقتال، والصحابة والمسلمون انتشروا في الأرض ودعوا إلى الله، ومن أبى جاهدوه؛ لأن السيف منفذ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ [الأنفال:٣٩]، فمن أبى قاتلوه لمصلحته ونجاته، كما يجب إلزام من عليه حق لمخلوق بأداء الحق الذي عليه ولو بالسجن أو الضرب، ولا يعتبر مظلومًا، فكيف يستنكر أو يستغرب إلزام من عليه حق لله بأداء حقه، فكيف بأعظم الحقوق وأوجبها وهو توحيد الله سبحانه وترك الإشراك به، ومن رحمة الله سبحانه أن شرع الجهاد للمشركين وقتالهم حتى يعبدوا الله وحده ويتركوا عبادة ما سواه، وفي ذلك سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة»[٢].

والحق ما شهدت به الأعداء، فهذا المستشرق الفرنسي «هوبير ديشان»[٣] وقد

---

(١) شمس الله تسطع على الغرب، زيغريد هونكه (ص٣٦٤-٣٦٦).

(٢) مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦/ ٢٢٣).

(٣) هوبير ديشان (*Hubert deschamps*) ولد في باريس سنة ١٩٠٠م، نال الدكتوراه في الآداب، ودرَّس في الدار البيضاء ومراكش، وعين حاكمًا لمستعمرة الصومال الفرنسي ثم ساحل العاج =

عمل طويلًا بإفريقيا زمن الاحتلال الغربي لها يقول: « إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يقم على القوة، وإنما قام على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولًا ولا طولًا إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرًا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطيء من قومٍ إلى قومٍ، فكان إذا دخلته الاستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمرٌ آخر؛ هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهلُ التكيف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر»[١].

وإن تتبعنا تاريخ الانتشار في أفريقية مثلًا لتبين أن الإسلام انتشر هناك بالدعوة وحدها، بل إن الكثيرين من الأفريقيين قد دخلوا في الإسلام دون أن يدعوهم إليه أحد، وإنما لَمَا لمسوه فيه كدين، ولما رأوا عليه أهله من سلوك حسن[٢]، وإذا كان الإسلام لم يدخل إفريقية بالسيوف، فقد نهج نفس النهج حين دخل آسيا غازيًا القلوب بالرحمة والعدل، وتقف إندونيسيا خير شاهد على هذا، وتُحدث من أراد عن انتشار الإسلام في أكثر من ألفي جزيرة فيها دون أن تلامس ثراها أقدام أي جيش إسلامي، وكذلك كان إسلام ماليزيا بدون حروب أو سيوف.

فتبين أنه ليس من مبادئ الإسلام إجبار الناس على الدخول فيه، بل إنه يكفل حرية الدين والعبادة للناس قاطبة، فسار حيال الحرية الدينية على أسس نبيلة، فإلى جانب أنه لا يُجبر أحدًا على ترك دينه ليدخل في الإسلام، منحهم حرية المناقشات

=والسنغال، أخرج عدة مؤلفات منها: نهاية الاستعمار، والديانات في أفريقيا السوداء. (الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة: د. أحمد صادق وآخرون (ص١٩).

(١) الديانات في أفريقيا السوداء، هوبير ديشان (ص١٢٨-١٢٩).

(٢) انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا ومناهضة الغرب له، د. محمد عبد الله النقيرة (ص١١٢).

الدينية، وأمر الدعاة إلى دينه أن يكون عمادهم في مناقشتهم قرع الحجة بالحجة بلطف وحكمة، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام:١٤٨].

ثالثًا: انتشار الإسلام عبر التاريخ:

انتشر الإسلام بين الناس بوسائلَ عدة من بينها: الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة كما فعل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حينما مكث في مكة ثلاثَ عشرةَ سنةً يدعو إلى الإسلام، كما انتشر الإسلام بالإقناع حبًا ورغبة، وقد ساهمت القدوة الحسنة في استجابة الناس لدعوة الإسلام ودخولهم فيه أفواجًا، ولا يغفل دور الدعاة والمعلمين والمهاجرين والتجار في نشر الإسلام عبر بقاع كثيرة.

وبظهور الإسلام تعمقت الصِّلات بين بلاد العرب وأفريقيا؛ إذ أعطى الإسلام العرب قوة دافعة جديدة لنشر هذا الدين وتحويل الأفارقة إلى الإسلام، فتدفق العرب بأعداد كبيرة على أفريقيا الشرقية والشمالية، وتوغلوا فيها، وامتزجوا مع السكان الأصليين، بالاختلاط والمصاهرة، ونشروا الإسلام بين المجموعات الوثنية، وارتبطوا معهم بمصالح مشتركة، وتعربت تلك المناطق بالنمو الدائم في علاقات المصاهرة، والدين الإسلامي وثقافته[1].

فالثابت تاريخيًّا أن الإسلام قد انتشر في قارة أفريقيا وآسيا بين ركاب التجار والمهاجرين المسلمين الذين قصدوا تلك الجهات سعيًا وراء الرزق أو فرارًا من اضطهاد مخالفيهم في المذهب الديني، «وكثير من هؤلاء المهاجرين علماء ومحدثون وفقهاء سخطوا على ما وصل إليه حال المسلمين في بلادهم، فكان لاختلاطهم أثناء عرض حاصلاتهم أثره في دخول هؤلاء الأفراد الإسلام، ثم في العودة به إلى

(١) ينظر: التعليم العربي الإسلامي في أفريقيا، د. جعفر عبد السلام (ص٩٣).

عشيرتهم فدخل فيه بعضهم، فبذلك انتشر الإسلام بين بطون تلك القبائل منذ عصر مبكر»[١].

كما لاقى انتشار الإسلام بواسطة التجار المسلمين في جنوب شرق آسيا نجاحًا كبيرًا، حتى أصبحت المنطقة الآن تضم أكبر الدول الإسلامية في العالم من حيث عدد المسلمين[٢].

وانتشر الإسلام في الصين بدءًا من عام ٩٦هـ وذلك عن طرق ثلاثة: كان أولها عن طريق التجارة، وعن طريف الفتح الإسلامي، وعن طريق الدعوة الداخلية ومحاولة نشر الدين بين أبناء المجتمع هناك.

وللهجرة الإسلامية الحديثة دور في نشر الإسلام في القارة الأوروبية، كهجرة بعض سكان الدول العربية؛ حيث ساهموا في نشر الإسلام بالتحلي بالأخلاق الإسلامية الحميدة، وحسن التعامل مع الغير، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

لقد أصبح الإسلام اليوم هو الدين الثاني في الغرب بعد المسيحية، وهو الديانة الأسرع انتشارًا فيه، حتى بلغ عدد المسلمين بين المواطنين الأصليين والمهاجرين الذين اكتسبوا حق المواطنة عشرات الملايين في الولايات المتحدة وأوروبا، فوضع الإسلام والمسلمين في أوروبا ومستقبلهما بعون الله زاهر، ونحن ننظر إلى ذلك بتفاؤل، وقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُحاصَر في غزوة الخندق، يُبشِّر المسلمين بالنصر، وأكبر إنجاز للإسلام والمسلمين في أوروبا، هو أن هذه الدول

(١) انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا ومناهضة الغرب له، د. محمد عبد الله النقيرة (ص١٤١).
(٢) ينظر: دور التجارة والتجار في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا، د. قاسم غنيمات (ص١٠٢).

التي كانت تُحارب الإسلام سابقًا، أصبح الإسلام في عقر دارها، هناك آلاف المساجد في أوروبا، وآلاف المآذن، ومئات المدارس والمراكز الإسلامية، وآلاف المواقع الإلكترونية التي تخاطب غير المسلمين بلغاتهم.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم أينما حل يترك أثرًا بالدعوة إلى الإسلام بأقواله أحيانًا، وبأفعاله وسلوكياته وأخلاقياته الإسلامية أحيانًا كثيرة، يجمع بين طبيعة عمله والدعوة إلى الله، فسرعان ما تلتفت الأنظار إليه، فيُفرض على الناس احترامه والثقة به.

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. عرف التاريخ لغة واصطلاحًا.
٢. ما مفهوم تاريخ الدعوة؟.
٣. ما أهمية دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية؟
٤. بين مصادر تاريخ الدعوة مع ذكر الأمثلة لكل نوع منها.
٥. ما أهم الملحوظات الواردة بشأن مصادر الدعوة؟ ادعم الإجابة بالأمثلة والشواهد.
٦. عدد الأنبياء الـوارد ذكرهم في القرآن الكريم، وما الفرق بين النبي والرسول؟
٧. ما أهم السمات المشتركة لدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟
٨. أذكر تسعة من أساليب الأنبياء في الدعوة مع ذكر الدليل.
٩. للمعاندين سمات مشتركة ومواقف متشابهة من دعوة الأنبياء، أذكر سبعة منها مع ذكر الدليل لكل منها.
١٠. انتشر الإسلام في العالم انتشارًا فاق سائر الديانات، فما السر وراء طبيعة هذا الانتشار؟، وما مستقبل الإسلام في العالم؟

الفصل الأول

دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعبر منها

وفيه عشرون مبحثًا:

- المبحث الأول: آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الثاني: نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الثالث: هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الرابع: صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الخامس: إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث السادس: إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث السابع: لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الثامن: إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث التاسع: يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث العاشر: يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الحادي عشر: أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الثاني عشر: يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الثالث عشر: موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الرابع عشر: إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الخامس عشر: داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث السادس عشر: سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث السابع عشر: شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث الثامن عشر: زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث التاسع عشر: يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- المبحث العشرون: عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

مدخـل

إن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله هو منهج صالح مستفاد من الكتاب والسنة، وللوقوف على منهجهم في دعوة أقوامهم؛ لابد من الرجوع إلى تاريخ دعواتهم عليهم الصلاة والسلام، بماذا بدأ كل منهم، وبماذا ثنّى في قضاياه مع أمته التي بعث إليها، وأوثق مرجع وأصدقه هو القرآن الكريم، مع ما بينته السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه يجد الداعية القدوة والأُنس، والعظمة والعبرة، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧].

وإن دعوة الأنبياء دعوة واحدة، من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي وحدة تستدعي من الدعاة الاقتداء والتأسي بها فيما بينهم، وقد جعل الله الأنبياء والمرسلين قدوة لعباده المؤمنين عامة، وأمرنا بذلك فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٩٠]، فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يسيرون في الأرض، يذكرون الله ويعبدونه، ويَحْملون للناس التوحيد والإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة، وقد جاهدوا، وصَدَقوا، وبلَّغوا، وصبروا، فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وعقباهم الجنة، وهم قدوة كل داع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وإن الرجوع إلى تاريخ دعوتهم شيء لابد منه؛ ليكون ذلك منهجًا دعويًّا يسير الدعاة على طريقه، ليُكتب لهدفهم النجاح، ويكملوا خطًّا قديمًا عريقًا بدأه الأنبياء والمرسلون، وليُعلم أن ما يُدعى إليه من توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة،

والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والدعوة إلى التزام الصراط المستقيم، وإنما هو خط بدأه الأنبياء، وأمر نزل به الوحي من السماء.

والأمة الإسلامية اليوم، هي أحوج ما تكون إلى التأسي بمنهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنهج الأنبياء الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الدعوة إلى الله؛ فلا يصلح آخر هذا الأمة إلا بما صلح به أولها.

المبحث الأول

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم قصة آدم:

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الأنبياء وأبو البشر، ورد ذكره في القرآن الكريم في كثير من المواضع منها: البقرة: (٣١ - ٣٧)، آل عمران: (٣٣،٥٩)، المائدة:(٢٧)، الأعراف: (١١،١٩،٢٦،٢٧،٣١،٣٥،١٧٢)، الإسراء: (٦١، ٧٠)، الكهف: (٥٠)، مريم:(٥٨)، وسورة طه: (١١٥- ١١٧، ١٢٠-١٢١)، يس:(٦٠).

الخلق والتكريم:

أول من قصّ الله تعالى قصصهم في القرآن الكريم من الأنبياء، هو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠].

هو أبو البشر، والبشر يُنسبون إليه، فهو أبو النوع البشري بلا منازع، ولا صحة لوجود أجناس بشرية على الأرض قبل الوالد الكريم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

ولذا فكثيرًا ما يأتي الخطاب في القرآن بقوله: يا بني آدم، كما أكدت السنة النبوية المطهرة أبوته للبشرية؛ ففي الحديث الصحيح: «**فيقولُ بعضُ النَّاسِ: ألا ترونَ إلَى ما أنتم فِيه إلى ما بَلَغَكم، أَلَا تَنظرونَ إلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُون: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ**

(١) تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٥٥).

بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ..» الحديث[1].

خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بيديه ونفخ فيه من روحه؛ وقد بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفة خلق آدم فقال: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص:٧٥]، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩].

وبعد أن خلقه الله وسـوّاه أمر الملائكة بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ طاعة لله عَزَّوَجَلَّ وإكرامًا لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ والأمر من الله بالسجود لآدم هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧١، ٧٢].

وقد خص الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بخصائص ومزايا من ذلك:

١. خلقه بيديه في أحسن تقويم وأتم مظهر، كما هو واضح في معنى التسوية.
٢. نفخ فيه من روحه.
٣. أمر الملائكة بالسجود له.
٤. علمه أسماء كل شيء.

عداوة الشيطان لآدم:

عصى إبليس أمر الله فلم يسجد لآدم استكبارًا وعلوًا وحسدًا له، ولذا فقد عزم إبليس على عداوة آدم وذريته، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (٤/ ١٣٤)، برقم: (٣٣٤٠)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾.

ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

[الأعراف:١١- ٢٥].

وفي آيات أخرى بين الله عناد إبليس، وعزمه على تحدي أوامر الله إذ قال سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٧٥-٨٥].

وتأكد آيات أخرى الموقف بأسلوب آخر، إذ يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر:٣٢-٤٤].

أسكن الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ جنته وجعل له زوجًا من ضلعه ليسكن إليها، وهي حوّاء أمّ البشر، وأباح لهما أن يصيبا ممّا فيها من نِعَمٍ ما شاء الله إلا شجرة واحدة حذّرهما منها، ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٩]، كما حذرهما من إغواء الشيطان وإغرائه لهما بمخالفة أمر الله واتّباع ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه:١١٧].

لكنّ الشيطان ما زال بآدم وحواء يغويهما ويحرّضهما، وأخبرهما أنّ ربّهما ما نهاهما عن أكلها إلاّ أنّها شجرة الخلد؛ فمن أكلها يعيش أبد الدهر في الجنة، وما زال بهما ويقسم لهما بالأيمان المغلظة على نصحه حتى أوقعهما في المحظور، فأكلا من الشجرة الممنوعة، فبدت لهما سوءاتهما ثم ندما وتابا، فغفر الله الكريم لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذنبه وعفا عنه واجتباه إليه وأكرمه، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢٠-١٢٢].

الخلافة في الأرض:

أخبر الله ملائكته باستخلاف آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الأرض فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، أي خليفة لنشر عقيدة التوحيد، ومعالم الخير والعدل في الأرض، وإجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وإقامة حدوده، فالإنسان لم يخلق عبثًا وإنما ليقيم الحق والعدل وينشر فيها الصلاح والتقوى، ويشيع فيها كلمة الله بإقامة سننه الكونية والشرعية[1]، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٤].

هبط آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الأرض وأصبح له ذرّية، وقد كرّم الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكرّم بنيه وسخّر لهم البرّ والبحر ورزقهم من الطيبات وفضّلهم على كثير من مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

وممّا أنعم الله على بني آدم؛ أن جعل لهم لباسًا يستر عورتهم ويحميهم الحرّ والبرد، وجعل لهم لباسًا معنويًّا يقيهم من عذاب الله؛ وهو لباس التقوى والتوحيد

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٥٩).

والعفّة، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٦].

ومن نعم الله على آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **وبنيه:** أن جعل الأنبياء والرسل من ذرّيته، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم:٥٨].

التوحيد أصل البشرية:

بدأت البشرية على التوحيد المطلق والتنزيه الكامل لله رب العالمين، فآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان نبيًّا موحدًا على أنقى صور التوحيد وأصفاه، والذي لا شك فيه أن آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أهبط إلى الأرض مسلمًا لله متبعًا لهداه، وأن الله أخذ عليه العهد هو وزوجته أن يتبعا ما يأتيهما من الهدى و الحكمة، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨].

وبين لهما أن لزوم الهداية والحق والاستقامة على صراط الله المستقيم سبب في السعادة والفلاح في الدارين، وأن من تنكب عن التوحيد وحاد عن طريقه وابتعد عن أوامر الله واقتحم محارمه، وسلك طريق الشيطان واتبع خطواته في الإغواء، فإن له معيشة الضنك في الدنيا والعذاب المخزي يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

تلقى الوالد الكريم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الهداية من الله ونقلها إلى بنيه وعقبه، وتوارثوها جيلًا بعد جيل لا يعرفون سوى توحيد الله عقيدة وإسلام الوجه لله دينًا[١]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال: «**كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**»[٢].

إدريس يخلف آدم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

لما حضرت الوفاة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عهد إلى ابنه شيث بمهمة الدعوة إلى الله من بعده، وبعد شيث كان نبي الله إدريس[٣]، وقيل: إنه أَوَّلَ بَنِي آدَمَ أُعطِي النُّبُوَّةَ[٤] على أن بعض العلماء يجعل نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ متقدمًا عليه في الزمن.

وقد ورد ذكر إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ مرتين في القرآن الكريم:

الأولى: في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥٦].

والثانية: في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥].

دعا إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى دين الله وطاعته والتوحيد الخالص، ولزوم أمره واجتناب نهيه وفعل الخير، والحذر من كيد الشيطان ومكره.

وقيل: إنَّ إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ هو: أولُ من خطَّ بالقلمِ[٥].

وعمومًا فالأخبار عن إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ قليلة شحيحة، ويلفها عدم الدقة والثبوت.

---

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٢٠، ٢١).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٧٥)، والحاكم بنحوه وقال حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٨٥٤): صحيح.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١١١).

(٤) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم، باب ذكر إدريس النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢/ ٥٩٨).

(٥) صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، باب ما جاء في الطاعات وثوابها (٢/ ٧٦).

ثانيًا- العبر من قصّة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ **عبر وفوائد منها:**

١. آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ منذ اللحظة الأولى مخلوق لهذه الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] ، لذا أهبط إلى الأرض ليباشر رسالته عليها، لكنه لم يهبط إليها مهانًا وإنما أهبط تظلله رحمة الله وعنايته.

٢. خطر الشيطان وكيده وعداوته لآدم وذرّيته، فإبليس هو المعوق الأول للإنسان عن قيامه بمهام التكليف، وقد عزم هذا العدو بإصرار على ملاحقة الإنسان في كل أحواله، وإتيانه من كل صوب وجهة، لكن ما أضعفه أمام من يستمسك بحبل الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩].

٣. فرق بين المعصية مع الندم والتوبة، والمعصية مع الكبر والإصرار؛ فأما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أذنب ثم ندم وتاب إلى ربه، فتاب الله عليه، أما إبليس فضم إلى المعصية الكبر والإصرار وبدأ يناقش الجبار ويرد عليه أمره: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١]، ثم استكبر وكفر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وأبى أن يلتزم بأمر الله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣١].

٤. يربّي الله تعالى عباده على الامتثال لأمره واجتناب نهيه، والله تعالى هو المكلِّف لعباده، والتكاليف كلها لا تخرج عن الأمر والنهي، وفي الالتزام بها رحمة للمكلّف بتقريبه مما يحبّ الله تعالى، ونجاة له بإبعاده عمّا نهى الله عنه[1].

---

(١) تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٧٨ – ٨٥).

٥. عهد الله تعالى إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في الجنّة بألا يخدعه الشيطان فيغريه بما نهاه عنه؛ إذ نهاه عن الأكل من شجرة بعينها، ولو خدعه الشيطان فأكل منها سوف يخرج من الجنة، ولذا لما أكلا من الشجرة وخالفا أمر ربهما انكشفت سوآتهما وبدا عاريين؛ ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:٢٢].

٦. نسي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ العهد مع الله، ولم يكن له عزم على امتثال الأمر، وهنا محل الضعف للبشر في الإنسان، فهو عرضة للخطأ والنسيان، وحيث وقع فيه أبو البشر لن ينجو منه أحد(١).

٧. نسى الوالد الكريم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ العهد وأكل من الشجرة، إلا أنه ندم على ذنبه واستغفر ربه، فأدركته رحمة الله في الحال بالصفح والمغفرة؛ ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، ولذا فمن وقع في زلة أو تقصير فعليه اللجوء إلى الله وطرق بابه، فهو كريم جواد لا يرد أحدًا، فمن عصى ثم ندم واستغفر ربّه؛ فإنه يتوب عليه ويقبل توبته، فرحمته سبحانه تَسَع كلّ شيء، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

٨. الخطيئة شؤم على صاحبها، وهي تحرمه من خير كثير فخطيئة آدم وأكله من الشجرة حرمته الجنة ونعيمها.

---

(١) نظرات في أحسن القصص، د. محمد السيّد الوكيل (ص١/ ٢١-٢٣).

المبحث الثاني

نـــوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول الرسل ونبي من أولي العزم:

نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أول الرسل، وقد ورد ذكره في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها: الأعراف: (٥٩-٦٤)، يونس: (٧١-٧٣)، هود: (٢٥-٤٩)، الأنبياء:(٧١-٧٣)، المؤمنون: (٢٣-٣٠)، الشعراء: (١٠٥-١٢٢)، العنكبوت: (١٤-١٥)، الصافات:(٧٥-٨٢)، القمر: (٩-١٧)، سورة نوح بكاملها.

كان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول أولي العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

وقد أثنى الله على نوح بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣].

كما خصه الله بسورة كاملة سميت باسمه، وهي سورة نوح.

يعتبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبا البشر الثاني، وذلك أن الطوفان الذي حدث في زمنه لم يترك من ذرية آدم أحد، فانحصر البشر بعدهم في ذرية نوح وحده، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

عبادة الأصنام:

كانت الأصنام ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، التي عبدها قوم نوح أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم؛ عُبدت بعد ذلك من دون الله.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد؛ أما ودٌّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواعٌ كانت لهذيل، وأما يَغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يَعُوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع»[1].

الدعوة والبلاغ:

مكث نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يبلغ رسالة ربه ويدعو قومه إلى التوحيد وعبادة الله وحده ونبذ الشرك وعبادة الأصنام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح:١-٤].

ما ترك نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وسيلة من وسائل الإقناع والترغيب إلا سلكها، فدعا قومه ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا، بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، وقد وصف

(١) أخرجه البخاري، (٦/ ١٦٠)، برقم: (٤٩٢٠)، كتاب تفسير القرآن - سورة نوح - ، باب ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق.

لنا الله جهده ذلك بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:٥-١٢].

استمر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته قرونًا عديدة بلغت ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، ومع ذلك فلم يستجب له إلا قليل: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، فقد كانوا يتواصون بعدم تصديقه جيلًا بعد جيل، فكلما انقرض جيل وصى من بعده بعدم الإيمان به، ومحاربته ما عاش أبدًا، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧]، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما إخباره عمن سيولد بأنه لن يولد لهم إلا فاجر كفار؛ فهو من مفهوم الآية المذكورة آنفًا، لأنه إذا لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن فسواء في الحاضر أو المستقبل، وكذلك بدليل الاستقراء وهو دليل معتبر شرعًا وعقلًا، وهو أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل كانوا هم ومن معهم غيرهم حمل سفينة فقط، فكان دليلًا على قومه أنهم فتنوا بالمال ولم يؤمنوا له»[1].

(١) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٨/ ٣١٣).

الطوفان والغرق:

استمر قوم نوح في الكفر والعناد وعبادة الأصنام، فأوحى الله إلى نوح بحلول العذاب في قومه وأمره بالبدء في صناعة الفلك؛ وهي سفينة عظيمة، ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧].

وأثناء صناعة السفينة كان أهل الكفر يسخرون ويستهزئون بنوح وسفينته، قال الله تعالى: ﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾ [هود:٣٨].

ثم دنت ساعة العذاب فأمره الله أن يأخذ فيها من كلّ زوجين اثنين، ثمّ فار الماء من الأرض وأمطرت السماء وحان نزول العذاب بالقوم الظالمين قال الله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُۖ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **وابنه:**

ثارت عاطفة نوح وهو يرى فلذة كبده يسير في طريق الكافرين، فدعاه إلى السفينة ولكن الابن العاق لم يؤمن بالله فكان من المغرقين، قال الله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى

ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود:٤٢-٤٨].

ثانيًا- العبر من قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. أنّ النقمة إذا نزلت بقوم عمّت من عصى ومن لم يعص؛ فقد قضى الطوفان على كلّ من في الأرض، وإنما كان كذلك ليتعاون الناس على الأخذ على أيدي المخطئين، ليجنّبوا أنفسهم عاقبة الذنوب، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥].

٢. أنّ الرابطة الحقيقية بين المسلمين إنما هي رابطة الإيمان، والانتساب إلى الدين أفضل عند الله من الانتساب إلى القرابة، فولاء المؤمنين لربهم ولدينهم، ورابطتهم هي عقيدتهم، وبذلك تقوم الأخوة بينهم على الأخوة الحقيقية، ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

٣. أنّ الإنسان لا يتّكل على شرف نسبه وفضيلة أبيه، ثم يقصّر في عمله؛ فابن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم ينفعه انتسابه إلى نبيّ من أنبياء الله، هو أول الرسل على الإطلاق، وفي الحديث يقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ**

نَسَبُهُ»[١]، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معناه من كان عمله ناقصًا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل»[٢].

٤. على الداعية أن يحمل همّ الدعوة ويكل استجابة المدعوّ إلى الله؛ فنوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولم يستجب لدعوته إلا عدد قليل ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، ومع ذلك لم يكفّ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الدعوة حتى جاءه نصر الله تعالى.

٥. لا مانع من الدعوة على المفسدين حتى يقطع الله دابرهم؛ وذلك إذا خُشي أن يمتدّ فسادهم إلى كلّ من يعقبهم من الأجيال؛ لأنهم كالشجرة الخبيثة لا تثمر إلا شوكًا وعلقمًا، ولهذا علّل نوح دعاءه على قومه بذكر الأسباب فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦، ٢٧].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (٨/ ٧١)، برقم: (٢٦٩٩)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي (١٧/ ٢٣).

المبحث الثالث

هــود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا - معالم دعوة هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

بعث الله نبيه هودًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قومه عاد، في أرض الأحقاف جنوب الجزيرة العربية؛ في اليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عمان، وكان أخاهم من النسب، وكان تاجرًا جميلًا، أشبه الخلق بآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عاش أربعمائة وأربعًا وستين سنة، وبينه وبين ثمود مائة سنة[1].

وقد ورد ذكر هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه في مواطن عديدة في القرآن الكريم منها: البقرة:١٧٥،١٧٣، المائدة:٩٥، الأنعام:١٤٥، الأعراف: ٦٥،٧٤ هود:٨٦،٦٠،٥٩،٥٠،٣٥، النحل:١١٥، الشعراء: ١٢٤،١٢٣، يس:٣٩، فصلت:١٣، الأحقاف:٢١، الذاريات:٤١، القمر:١٨، الحاقة:٦ .

عبادة الأصنام:

مكثت البشرية بعد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على التوحيد مدة من الزمن لا يعلمها إلا الله، ثم دخل فيهم الانحراف حتى عبدوا غير الله، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢١].

كان قوم عاد أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وهم أقدم الأمم وجودًا وآثارًا في الأرض: قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان أثير الدين الأندلسي (٨/ ١٧٨).

كانت عاد من أقوى الأمم في زمانها وأضخمها أجسادًا، من حيث القوة وكمال العمران والحضارة والبناء وتشييد المصانع والقصور، وقد وهبهم الله قوة وضخامة في الأجسام فكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، ومساكن لهم، وقد وصف الله حالهم بقوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣٠].

هذه القوة وهذا التمكين جعلهم يزدادون بطرًا واستكبارًا في الأرض معجبين بقوتهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

الدعوة والبلاغ:

بعث الله هودا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الأصنام والأوثان التي كانوا عليها عاكفين، يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٤-١٣٦]، فكانت لهم السَّطَوات المفْرطة على الناس، حيث كانوا يبادرون بتعذيب الناس من غير تثبت ولا فكر في العواقب، كما قاموا ببناء الأبنية العالية حبًّا للعلو، واتخذوا المصانع رجاء الخلود، وتجبروا على الناس من

أجل التفرد بالعلو، وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، ودل ذلك على استيلاء حب الدنيا عليهم بحيث خرجوا عن حد العبودية[١].

استمر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في نصحه ودعوة قومه إلى الله، ولكنهم اتهموه بالسفاهة والكذب، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٥-٦٧]، وأخبرهم أن أصنامهم إنما هي من صنعهم وصنع آبائهم فقال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١].

وقد بين الله طغيانهم وتجبرهم في الأرض واستحقاقهم للعذاب فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٥٩-٦٠].

الهلاك:

استحق قوم عاد العذاب بكفرهم وشركهم وعنادهم وتطاولهم، وقد أخبرنا الله عاقبتهم الوخيمة بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥].

---

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان أثير الدين الأندلسي (٨/ ١٧٩).

أرسل الله عليهم عذابه وعقابه؛ وهو ريح عقيم تهلك كل شيء، قال الله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤١، ٤٢]، استمرت الريح والعذاب ثمانية أيام فهلك جميع القوم الكافرين، ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٦-٨].

ثانيًا- العبر من قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. الكبر والغرور والتعالي على الحق يؤدّي بصاحبه إلى ما لا يُحمد عقباه؛ فقوم هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتمدوا على ما آتاهم الله من قوّة الجسم بإنكار دعوة نبيّهم، وكابروا وعاندوا ناسين أنّ الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة؛ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت:١٥].

٢. بيان أنّ عذاب الله تعالى قد يكون بما ظاهره الرحمة، وأنّ السحاب ربما يكون سحاب عذاب ووبال وهدم وغرق؛ فقوم هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا رأوا السحاب في الأفق تفاءلوا بالخير، فإذا هو سحاب هلاكٍ ودمارٍ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

٣. العبرة بالغير، قبل جعل النفس عبرة للغير؛ فنبيّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكّر قومه بنعم الله عليهم، ومن هذه النعم كونهم خلفاء قوم نوح، والخليفة يعتبر بسلَفه ويحتاط أن يقع في الخطأ الذي تسبّب في هلاك سلَفه، ولكنّ قوم هود لم يتّعظوا بماضيهم، فصار ذلك سببًا لهلاكهم.

المبحث الرابع

صالـــح عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

بعث الله نبيه صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ثمود، وهي قبيلة عربية بمدائن الحجر بين تبوك والمدينة شمال الجزيرة العربية[١]، جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر:٨٠]، أنّ الحجر هو الوادي مدينة ثمود وقوم صالح كان فيما بين المدينة والشام[٢].

وردت قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في مواطن عديدة من القرآن الكريم من ذلك: الأعراف: (٧٣-٧٧)، التوبة: (١٢٠)، هود:(٦١-٦٨) الحجر:(٨٠-٨٤)، الإسراء: (٥٩) الشعراء: (١٤١- ١٥٩) النمل: (٤٥-٥٣)، فصلت: (١٧-١٨) القمر: (٢٣-٣٢)، الشمس:(١١-١٥)

عبادة الأصنام:

تكرر الحال مع قوم ثمود، فبعد هلاك قوم عاد استمر الناس لسنوات عديدة على التوحيد وعبادة الله وحده، وبعد زمن دخل عليهم الانحراف فعبدوا الأصنام والأنداد.

جاء قوم ثمود بعد قوم عاد، وقد مكن الله لهم في الأرض كأسلافهم عاد، فأمدهم الله بالقوة والتمكين في الأرض وعمارتها، ونحت بيوتهم في الجبال واتخاذ القصور، وغير ذلك من أسباب القوة التي سخرها الله لهم، قال تعالى:

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (١٧/ ١٢٦).
(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي (٥/ ٣٤٧).

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقد تفضل الله وأنعم عليهم بالقوة المادية والجسدية فقال: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر:٩]، «حيث بنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة، وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور، ويَنْقُبُون الجبال، ويجعلونها بيوتًا لأنفسهم»(١).

إلا أن عبادة الأصنام تجذرت في قلوب قوم ثمود، فانكروا على نبيهم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن ينهاهم عن عبادة ما كان عليه الآباء والأجداد، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢].

الدعوة والبلاغ:

دعا صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه إلى الله وبلغهم الرسالة وأمرهم بتوحيد الله وترك عبادة الأصنام، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، وذكرهم بأصل خلقهم وما أنعم الله عليهم به من المال والتمكين في الإعمار ووجههم إلى التوبة من ذنوبهم والاستغفار قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١].

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٠/ ٤٨).

استمر صالح في نصح قومه وتذكيرهم بما هم فيه من نعم الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٤٢-١٥٤].

واستمر قوم ثمود في عنادهم واستكبارهم، وإمعانًا في التعجيز طلبوا من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ آية خارقة أن يخرج لهم من الصخرة ناقة! ووعدوه بالإيمان إن رأوا الآية، فدعا صالح ربه فأظهر لهم معجزته، وانشقت الصخرة وتمخضت عن ناقة رأوها بأعينهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

استجاب الله دعاء نبيه صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ فأمر الصخرة أن تتفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه الذي طلبوا والصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرا هائلًا، وقدرة باهرة ودليلًا قاطعًا وبرهانًا ساطعًا، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم[1].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١٥٣).

الهلاك:

رأى قوم صالح المعجزة بأعينهم، ومع ذلك لم يؤمنوا، بل زادوا عنادًا واستكبارًا، وتآمروا على قتل الناقة، وقد حذرهم صالح من مغبة الإساءة إلى الناقة ومسّها بسوء؛ فيترتّب على ذلك عذاب الله، قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤].

بلغ الطغيان بقوم صالح مبلغه فتجاسروا وتآمروا فعقروا الناقة، قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس:١١-١٥].

لما كفرت ثمود بربها وقتلوا الآية التي أرسلها لهم؛ تحقق نزول العذاب بهم، فأنذرهم صالح أن سخط الله واقع بهم خلال ثلاثة أيام فقط، قال الله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود:٦٥-٦٨]، ووقع العذاب بقوم صالح فأخذتهم الصيحة فهلكوا جميعًا.

التشابه في دعوة هود وصالح:

بُعث نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم عاد، وبُعث نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم ثمود، وبينهما تشابه كبير في دعوتهما وموقف أقوامهم منهما، من ذلك:

١. ورد ذكر قصتهما معًا في عدد من المواضع في القرآن الكريم؛ في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، وص، وق، والنجم، والقمر.

٢. كلا القومين من القبائل العربية وسكنا الجزيرة العربية؛ عاد في جنوبها وثمود في شمالها.

٣. كلا القومين كان لديهما قوة في العمران والحضارة مما مكنهما من حفر بيوتهم في الجبال وجعل آثارهم باقية عبر السنين.

٤. تشابه سلوك القوم في قيامه على البطر والطغيان والاستكبار والشرك، وتشابه العاقبة الوخيمة والنهاية الأليمة بالعذاب الأليم.

ثانيًا- العبر من قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. قوة عناد وبطش قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وشدّة عتوّهم، وذلك بنحتهم الجبال بيوتًا معجبين بها فرحين.

٢. إظهار الحجة بقدرة الله تعالى بتحقيق طلبهم وهو إخراج الناقة من الصخرة الصمّاء؛ لمّا طلبوا من نبيّهم إتيانهم بآية تُثبت على نبوّته وقالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٤، ١٥٥].

٣. أنّ الله تعالى يمهل حتى تظهر الحجّة ولا يُهمل أبدًا، كما أمهل قوم صالح وغيرهم حتى يقيم عليهم الحجة ثم يأخذهم بغتة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

٤. المساعدة على نشر الكفر والباطل يحقّق حلول العذاب بالجميع؛ فلمّا أقدم أشقى القوم على عقر الناقة ولم يأخذوا على يديه؛ نزل العذاب بالجميع.

٥. وجوب الإنابة عند رؤية العذاب أو معالمه، وليس التكبّر وانتظار حلوله كما فعل قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

(١) أخرجه البخاري، (٦/ ٧٦)، برقم: (٤٦٨٦)، كتاب تفسير القرآن، - سورة هود - ، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾.

المبحث الخامس

إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الله وأبو الأنبياء:

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أحد أولي العزم من الرسل، وقد ورد ذكره في كثير من المواضع في القرآن الكريم من ذلك: البقرة: (١٣٠-١٣٦)، آل عمران: (٦٥-٦٨)، النساء: (١٢٥)، الأنعام: (٧٥-٨٣)، مريم: (٤١-٥٠)، الأنبياء: (٥١-٧٠)، الشعراء: (٦٩- ٨٣)، العنكبوت: (١٦-١٨)، الصافات: (٨٣-٩٨).

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو جد العرب الأكبر ومحطم الأصنام، وباني البيت الحرام، كانت حياته سلسلة من الجهاد والتضحيات في سبيل نشر التوحيد والقضاء على الوثنية في الأرض، كان عَلَيْهِ السَّلَامُ ذا مرتبة عالية عند ربه، فهو خليل الله ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وهو أبو الحنفية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]، وقد آتاه الله رشده في صغره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١].

وصفه الله بأنه أمة وحده بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، أي أنه كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمّ به أهل الهدى مطيعًا لله مستقيمًا على دين الإسلام[1]، كما وصفه ربه بالوفاء: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧]،

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري (١٧/ ٣١٦).

ووصفه كذلك بالحلم والإنابة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥] أي: بطيء الغضب متذللًا لربه بالخشوع له، منيب رجاع إلى طاعته.

أثنى الله عليه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وابتلاه بكلمات هي عموم التكاليف الشرعية فقام بهن خير قيام، إذ قال سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

هو أبو الأنبياء؛ فولداه إسماعيل وإسحاق اصطفاهما الله بالنبوة، فأما إسماعيل فمنه العرب ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ولد لإسحاق يعقوب وإليه ينتسب أنبياء بني إسرائيل(١).

وقد جعل الله في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

عبادة الأصنام:

بَعُدَ الناس عن الرسالة فدخل فيهم الانحراف، فعبدوا الأوثان من دون الله، وكانت الأرض في زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد امتلأت فسادًا وظلمًا، ففي بابل وهي أرض العراق انتشر فيها الشرك وعبادة الأوثان، وفي حران وهي أرض بين الشام وتركيا، كان أهلها يعبدون الكواكب والشمس والقمر.

---

(١) ينظر: تاريخ الدعوة: د. جمعة الخولي (ص١٤٥).

الدعوة والبلاغ:

أرسله الله نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هؤلاء القوم يدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان، وقد ذكر الله في كتابه جوانب من دعوة إبراهيم وحواراته مع أهل الكفر وما جرى له معهم ومن ذلك:

١. دعوته لأبيه:

كان أول دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه، وكان أبوه ممّن يعبد الأصنام ويبيعها؛ وقد بدأ بأبيه لكونه أحقّ الناس بإخلاص النصيحة له، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٧٤]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء٥١، ٥٢].

بذل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ النصح والدعوة لأبيه في غاية اللطف والرقة والأدب، يتجلى ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤١-٤٨].

وقد وعد عَلَيْهِ السَّلَامُ أباه بالاستغفار، فلما تبيّن له عداوة أبيه للإسلام، وإعراضه عن الحق، ويئس من إسلامه، تبرّأ منه طاعة لله وامتثالًا لأمره، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

٢. دعوته لقومه:

اتجه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه من عبدة الأصنام ينهاهم عن عبادة الأصنام والأوثان، ويبيّن لهم أنها لا تغني عنهم شيئًا، ودعاهم إلى عبادة الله وحده؛ فكذّبوه، ثم عمد إلى أصنامهم فكسرها في غيابهم فأجمع القوم على أن يحرقوه، فأوقدوا له نارًا وأوثقوه ثم ألقوه فيها، فأوحى الله إلى النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه، فخرج منها عَلَيْهِ السَّلَامُ سليمًا معافى لم يضره كيدهم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا

وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٢-٧٠].

وقال أيضًا: ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات:٨٩-٩٨].

٣. دعوته لعبدة الكواكب والشمس والقمر:

ترك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بابل بعد أن أنقذه الله من شرهم وكيدهم، وقذفه له في النار محاولين حرقه، وانتقل إلى حران ليكمل مهمته ويبلغ رسالته، فوجدهم يعبدون كواكب السماء ويؤلهون الشمس والقمر، وقد وصف لنا القرآن دعوة إبراهيم لعبدة الكواكب إذ قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥-٧٩].

٤. دعوته للملك نمرود:

كان النمرود أحد الملوك الطغاة في ذلك الزمان، وقد سأل ذلك الطاغية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ربه فقال له إبراهيم: ربي الذي يحي ويميت، قال الملك: أنا أحي وأميت، وجاء برجلين فقتل الأول وعفا عن الثاني، عندها قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها المغرب؛ فاحتار وألجم ولم يجد جوابًا، وقد وصف الله لنا ذلك الحوار بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

٥. ابتلاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بجبّار من الجبابرة:

لم يبق أمل في أن يفيء أهل حران إلى الهدى والإيمان، فارتحل إبراهيم بأهله إلى مصر، وكان بمصر ملكٌ طاغيةٌ من الطغاة الجبابرة يغتصب كل امرأة جميلة من زوجها، وكانت سارة من أجمل النساء، فأرادها لنفسه، وقد أخرج البخاري هذه القصة في صحيحه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم

تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر»[١] قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء»[٢]، كأنه يخاطب بذلك العرب؛ لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر لأجل رعي دوابهم، ففيه إشارة إلى أن العرب كلهم من ولد إسماعيل، وقيل أراد بماء السماء زمزم لأن الله أنبعها لهاجر، فعاش ولدها بها فصاروا كأنهم أولادها، وكل من كان من ولد إسماعيل يقال له ماء السماء ؛لأن إسماعيل ولد هاجر وقد رُبّي بماء زمزم وهي من ماء السماء[٣].

٦. إبراهيم وهجرته إلى الشام:

عاد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد مدة إلى بلاد الشام، تصحبه زوجته سارة، وابن أخيه لوط؛ قاصدًا أرض الكنعانيين؛ (بلاد بيت المقدس)، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٧١]، وأصبح متنقّلا في بلاد الشام وفلسطين يدعو إلى التوحيد[٤].

فِداءُ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أسرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذه الأسرة المؤمنة على موعد مع امتحان آخر عسير، وابتلاء عظيم؛ هو الأمر بذبح الوالد لابنه الوحيد!

---

(١) أي: وهبها لها لتخدمها، لأنه أعظمها أن تخدم نفسها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، (٤/ ١٤٠)، برقم (٣٣٥٧)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾.

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (٦/ ٣٩٤).

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١٧٣).

بيت إبراهيم كله يدخل تجربة ليست كسائر التجارب، إنها ذبح إسماعيل وبيد من؟ بيد أبيه، ولو أن يد المنون اختطفت إسماعيل، أو ذهب لساحة قتال فمات فيها، ولو كان لإبراهيم غير هذا الابن، أو لو كان هذا الابن عاقًا شاذًا لهان الأمر، ولكن الأمر أمر الله، والامتثال إليه شأن الصالحين الصادقين، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

هكذا بلغة الواثق من فضل الله، العابد لمولاه، ينادي ابنه بهذا الهدوء كله، وهذا الاطمئنان إلى قدر الله .. إنها رؤية منامية، تصدق أو تكذب، إلا أن رؤيا الأنبياء وحي من الله، وبهذا الإدراك: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾، أدرك الابن الصالح البار، أن رؤيا الأنبياء وحي لا يحتاج إلى نقاش، بل التسليم المطلق.

وفي هذا المقام الحرج يخرج الشيطان ليصد إبراهيم ﷺ عن طاعة الله، فقال له: أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك!!

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما أتى إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ المناسك، عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض[1]، فتذكر جهاد آل بيت إبراهيم، وتعلم منهم كيف تنتصر على كل شيطان.

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه، (٥/ ١٥٣)، برقم: (٩٧٩٧)، كتاب الحج - جماع أبواب دخول مكة-، باب ما جاء في بدء الرمي.

ولنتأمل تلك الصورة الرفيعة التي يرسمها القرآن: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، هكذا دون تحديد لما أسلماه؛ ليعطي صورة التسليم المطلق، وفي (تله للجبين) أي كبَّه على وجهه، صورة تحدد إطارها هذه العبارة القصيرة الموحية بسرعة التنفيذ.

لذا نزل الأمين جبريل يخترق السبع الطباق ينادي مبلِّغًا عن رب العزة: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤، ١٠٥]، إنها بشرى بالنجاة من الذبح، والنجاح في الاختبار.

لقد كانت عبودية إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لله ثابتة لا تميل مع الضعف ولا تنثني مع كيد الشيطان، ولا يؤثر فيها مر الأيام، إنما تزيد مع الأيام صلابة وقوة، إنها عبودية للإله العظيم؛ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات:١١١].

ثانيًا- العبر من دعوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. إن في سِيَر السابقين عِظَةٌ وهداية، وفي قصص الأنبياء عِبرةٌ ودلالة، وما أحوجَ الأمة إلى النظر في تلك القصص والأنباء؛ لتكون علمًا ومنارًا، ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

٢. حاز إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مكانة عالية عند ربه، فهو خليل الله ولم يصل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى هذه المرتبة إلا بالاستسلام المطلق لله تعالى في كل ما يحب ويكره.

٣. واجه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كثيرًا من الامتحانات العسيرة التي لا يجتازها إلا الكبار؛ فقد ألقي في النار، ثم ترك وحيده الصغير إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والذي

ولد بعد أن وصل أباه سن الكِبَر، ثم الأمر بذبح ذلك الطفل الوحيد حينما بلغ سن الرشد، ومع ذلك فقد سلم إبراهيم وإسماعيل وأم إسماعيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأوامر الله واستسلموا لله رب العالمين.

٤. التجرّد لله تعالى وعدم الميل لما سواه؛ فمن جرّد نفسه لله عَزَّوَجَلَّ وخضع لحكمه واستسلم له، ولم ينحرف إلى ما سواه؛ وفّقه الله وهداه إلى صراط مستقيم؛ لذا تبوّأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منصبًا عظيمًا من ربه عَزَّوَجَلَّ، ولعل هذا يعطينا أن منزلة الرجل من ربه إنما تكون بقدر قيامه بمنهج الله والتزامه بما أوجبه سبحانه من تكاليف، فالله لا يحابي أحدًا ولا ينال عهده الظالمون(١).

٥. أنّ على الداعية أن يبدأ بنفسه وعشيرته في الدعوة، كما بدأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأبيه وعشيرته.

٦. أنّ خالق الأسباب هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا أراد أبطل مفعولها كما أبطل إحراق النار لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنّ حماية الله وحفظه لمن توكّل عليه؛ فقد حمى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من مكر قومه، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٩، ٧٠].

٧. أنّ النصر والغلبة دائمًا لأهل الحق على أهل الباطل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣].

٨. أنّ من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه؛ فلمّا اعتزل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه، وترك بلده، وهاجر إلى الشام، وحطّم الأصنام التي كانوا يعتبرونها آلهة، عوّضه الله بالبشارة، ووهب له إسحاق ويعقوب نبيين، قال تعالى:

---

(١) ينظر تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص١٤٨).

﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾ [مريم:٤٩].

٩. حوار إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه كان حوارًا في غاية الرقة والأدب، وفيه يتجلى أدب الأنبياء في دعوة الآباء ولو كانوا مشركين، فكيف إذا كانوا مسلمين.

١٠. عندما ألقي إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في النار قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، وقالها رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حين اجتمع الأحزاب؛ فنصرهما الله وأنقذهما مما هما فيه من كرب وشدة، وهذا يبين أهمية هذه الكلمة وعظمها عند الله، ولذا فحري بالمسلم العناية بها فهمًا وترديدًا.

المبحث السادس

إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النبي الرسول:

جمع إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النبوة والرسالة وعاصر أباه إبراهيم وابن عمه لوطًا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، كما أثنى الله عليه بالصدق وبعنايته بشرع الله وفي مقدمتها الصلاة والزكاة، وقد نال رضى الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٤، ٥٥].

لم يرد شيء كثير عن دعوة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم، ولكن بتتبع الآيات القليلة الواردة فيه يمكن الخروج بما يأتي:

- عنايته بشرائع الإسلام، وفي مقدمتها الصلاة والزكاة وأمره أهله بها.
- تسليمه المطلق لله في شأن الرؤيا التي رآها والده إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي في شأن يخصه وهو ذبحه! وهو أمر عظيم كما لا يخفى.
- مشاركته لأبيه في بناء بيت الله ورفع قواعده وهو عمل جليل وشرف عظيم حازه الولد والوالد.
- عناية الله بإسماعيل؛ ففي حال صغره حفظه من الهلاك عندما وُضع في وادٍ غير ذي زرع، فأجرى له معجزة يراها الناس إلى اليوم، فأنبع له زمزم المباركة، وفي كبره نال رضى الله.

هَاجرُ وإسماعيل عند البيت:

طال الأمد بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يُرزَق ولدًا، وتطلّعت نفسه لأن يكون له ابن صالح يحمل أمانته، ويبشّر بدعوته، ويسير على محبّته، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يهبه ذلك الولد.

كانت هاجر جارية ذات هيئة، فوهبتها سارة لإبراهيم، وقالت: لعل الله يرزقك منها ولدًا، وكانت سارة قد مُنعت الولد حتى أسنت، وكان إبراهيم قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأُخرت الدعوةُ حتى كبُر إبراهيم، فولدت له هاجر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

لما رأت سارة ولد هاجر؛ غارت فأمر الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذ وليده الصغير إسماعيل وأمه هاجر إلى مكان البيت في مكة، وكان آنذاك واديًا موحشًا لا حياة فيه، روى الإمام البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِابْنِهَا إسماعيل وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى -أي رجع- إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسماعيل، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟! قَالَ نَعَمْ! قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٤٧).

دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]، وَجَعَلَتْ أُمُّ إسماعيل تُرْضِعُ إسماعيل، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ؛ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، -أي ثوبها- ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ -المتعب- حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ؛ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**»، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ (صَهٍ) -تُرِيدُ نَفْسَهَا-، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِف، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إسماعيل، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ -أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»، **قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ..**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (٤/ ١٤٢)، برقم: (٣٣٦٤)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾.

هذا أحد الامتحانات العسيرة التي تعرض لها هذا البيت الصالح، فالغلام كان وحيد أبيه آنذاك، وقد أتى ذلك الغلام على كِبَر، ولاحظ موقف الأم المستسلمة هاجر لأمر الله تلك المرأة الصالحة المطيعة لزوجها الراضية بحكم ربها، قد سلَّمت أمرها لله راضية بقضائه موقنة بحمايته ورعايته، وحفظه لها ولصغيرها، في ذلك المكان الموحش فهل ينساها ربها؟

تلفتت هاجر هنا وهناك، فما وجدت إلا رحمة الله وسكينته تحيطان بها، فبعد أن نفد الزاد والماء، وجف لبنها وكاد وليدها أن يموت جوعًا؛ أرسل الله إليها ملكًا ففجَّر الأرض بالخير، ونبعت زمزم فشربت وشرب صغيرها، ثم أرسل الله إليهم من يؤنسهم، فجاءت جُرْهُم إحدى قبائل العرب ونزلت عند زمزم.

ثم تأمل في مناجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه، إذ تبدو عظمة جهاد إبراهيم حين يحدد الهدف من وجود هذا الابن في ذلك المكان فيقول: (ليقيموا الصلاة)، وإقامة الصلاة هدف يسعى لتحقيقه الأنبياء والصالحون، فهي تحتاج إلى تعاون الأمة وتناصرها، وتحتاج إلى جهاد لتصبح طريق حياة ومنهج سلوك، ولا تتصور أن الظالمين يتركون أهل الإيمان يقيمون الصلاة، إنهم قد يتركونهم يصلون، ولكنهم لا يسمحون بأن تكون الصلاة منهجًا للحياة، فتخرج الناس من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، وأن تحررهم من شهواتهم وأطماعهم وضعفهم، وأن تجعل منهم صفًا متراصًا لا يرضى بالضيم ولا يقبل الهوان، فهذا ما لا يسلم به المجرمون إلا ببذل الغالي والنفيس والتضحية من أهل الإيمان بما ملكت أيديهم[1].

(١) ينظر: الحج في القرآن الكريم دراسة موضوعية لآيات الحج في القرآن الكريم، د. عبد الفتاح عاشور (ص٢٣-٢٥).

زيارة إبراهيم لإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عاد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مكة بعد ما تزوج إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عَنْهُ، فَقَالَتْ: خرج يبتغي لنا، ثُمَّ سألها عَنْ عيشهم وهيئتهم، فَقَالَتْ: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِذَا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ السَّلام وقولي لَهُ يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قَالَتْ: نعم جاءنا شيخ من صفته كَذَا وكذا فسألني عنك فأخبرته، فسألني كَيْفَ عيشنا فأخبرته أنا فِي جهد وشدة، قَالَ: فهل أوصاك بشيء؟

قَالَتْ: نعم أمرني أَن أقرأ عليك السَّلام وَيَقُول لَكَ: غَيْر عتبة بابك، قَالَ: ذَلِكَ أَبِي وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، فطلقها.

وتزوج مِنْهُم أُخْرَى، فلبث عَنْهُ إِبْرَاهِيم مَا شاء اللهَّ، ثُمَّ أتاهم فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عَنْهُ، فَقَالَتْ خرج يبتغي لنا، قَالَ: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت عَلَى اللهَّ، فَقَالَ: مَا طعامكم؟ قَالَتْ: اللحم، قَالَ: فَمَا شرابكم؟ قَالَتْ: الماء، قَالَ: اللَّهمّ بارك لَهُمْ فِي اللحم والماء[1].

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَمْ يكن لَهُمْ يَوْمَئِذٍ الحب، ولو كَانَ لدعا لَهُمْ فِيهِ بالبركة**»، قَالَ: فهما لا يخلوا عليهما أحد بغير ملة إلا يوافقاه، قَالَ: فَإِذَا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ السَّلام ومريه أَن يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، قَالَ: هل أتاكم من أحد؟

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١٥٥).

قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عَلَيْهِ فسألني كَيْفَ عيشنا فأخبرته أنا بخير، قَالَ: أفأوصاك بشيء؟ قَالَتْ: نعم، هُوَ يقرأ عليك السَّلام، ويأمرك أَن تثبت عتبة بابك، فَقَالَ: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أَن أمسكك[1].

بناء البيت:

عاد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مكة يتفقد ابنه إسماعيل، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد وذلك من الاعتناق والمصافحة، ثم قال يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها من الأرض كالربابة، فرفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وارتفع بناء الكعبة بيدي الرجلين العظيمين[2]؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، وهما يرددان: ربنا تقبل منا..

شارك الولد الصالح أباه في بناء البيت، ثم توجها إلى الله قائلين: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨]، أي علِّمنا مناسك الحج، فما أن فرغ إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من البناء، حتى بعث الله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فحج بهما، لكنهما لم يقولا: علمنا، إنما قالا: أرنا، والرؤية كشف وإيضاح، وعلم وتعليم، والمناسك جمع

(١) الكامل، ابن الأثير (١/ ١٠٤-١٠٥).
(٢) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١٥٥).

منسك، والنسك بمعنى الغسل، يقال نسك ثوبه إذا غسلته[١]، فكأن المناسك تطهير للنفس مما قد رَان عليها، وتنقية للقلب من مداخل الشياطين[٢].

الذبيح إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

حادثة ذبح إسماعيل وفداء الله له كان مكرمة لهذا النبي الجليل استحق ثناء الله عَزَّوَجَلَّ، ولما كان إسماعيل أبا للعرب الذين جاء منهم خاتم الأنبياء محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد حمل ذلك اليهود على حسد إسماعيل والعرب، وأرادوا أن يحرزوا هذا الشرف لهم فقالوا بأنه إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد نُقلت هذه الإسرائيليات إلى كتب المسلمين، ولذا وقع الاختلاف في تحديد الذبيح بين إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وقد تناول هذه المسألة الإمام ابن القيم بالتفصيل، وانتهى إلى أن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال: «وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل من عشرين وجهًا، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم»[٣].

ثانيًا- العبر من قصّة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **عبر وفوائد منها:**

١. شدّة استسلام إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث استجاب إبراهيم لربّه في التضحية بنفسه وإرخاص روحه وقد عبر عن ذلك بثقة ويقين ودون تردد قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

---

(١) ينظر: تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي (٢٧/ ٣٧٣)، مادة: (ن س ك).

(٢) ينظر: الحج في القرآن الكريم دراسة موضوعية لآيات الحج في القرآن الكريم، د. عبدالفتاح عاشور (ص٣٠-٣٥).

(٣) زاد المعاد، ابن القيم (١/ ٧٢).

٢. بيان أنّ أصل مناسك الحج والأضحية من إبراهيم وإسماعيل وأمّه هاجر عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ كنبع زمزم من أسفل قدم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسعي في الحج والعمرة من سعي هاجر بين الصفا والمروة، وسنّة الرمي من فعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذا اتخاذ مقام إبراهيم مصلّى.

٣. الصبر على الابتلاء سمة الأنبياء والصالحين ومن سار في دربهم؛ فهذا البيت الصالح آل إبراهيم تعرّضوا الكثير من الابتلاءات: ابتلاء قذف في النار، وابتلاء ترك الصغير في واد لا زرع فيه ولا ماء، وابتلاء بذبح الابن الوحيد الذي جاء في الكبر.

٤. إقامة الصلاة هدف يسعى لتحقيقه الأنبياء والصالحون، فهي تحتاج إلى تعاون الأمة وتناصرها، وتحتاج إلى جهاد لتصبح طريق حياة ومنهج سلوك، ولا تتصور أن الظالمين يتركون أهل الإيمان يقيمون الصلاة، إنهم قد يتركونهم يصلون، ولكنهم لا يسمحون بأن تكون الصلاة منهجًا للحياة، فتخرج الناس من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، وأن تحررهم من شهواتهم وأطماعهم وضعفهم، وأن تجعل منهم صفًا متراصًا لا يرضى بالضيم ولا يقبل الهوان، فهذا ما لا يسلم به المجرمون إلا ببذل الغالي والنفيس والتضحية من أهل الإيمان بما ملكت أيديهم.

٥. يذكر المسلمون وهم يؤدون مناسك الحج مواقف التضحية والفداء، ويرون ألوانًا من الرفعة الإنسانية، متمثلة فيمن ضحوا وتحملوا الصعاب في سبيل إقرار كلمة الله في الأرض.

المبحث السابع

لـــوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الصحبة المباركة:

لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابن أخي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آمن بالله واتبع ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهاجر معه إلى ربه، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]، فانتقل معه إلى مصر، ثم من مصر إلى فلسطين، ثم أذن له عمّه إبراهيم أن يغادره لضيق الأرض على مواشيهما، فهاجر لوط مصطحبًا إبله وماشيته متجها إلى أرض سدوم من أرض غور زغر بالأردن على ضفاف البحر الميت(١).

الانحراف عن شريعة:

انتشر الفساد والانحراف والظلم والبعد عن شريعة الله في أرض سدوم، وكان أهلها من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة، يفسدون في الأرض بالسلب والنهب ويروعون المارة، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين من دون النساء(٢)، وقد انتشرت الرذيلة والفاحشة بينهم لحد أنها أصبحت ظاهرة مجتمعية تمارس علانية في أنديتهم وأماكن تجمعهم، ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، دون خجل أو حياء بعضهم ينظر إلى

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص١٨٩).
(٢) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١٧٦).

بعض، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤]، ولذا لم يكونوا يتناهون عن ذلك المنكر القبيح، بل كانوا يعدون من ينكر عليهم فعلهم منبوذًا يستحق الإخراج من البلاد، ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧]، وانتكست مفاهيمهم لدرجة أنهم يعدون الطهارة والعفة جريمة تستحق الطرد والإبعاد، ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢].

دعوة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

دعا لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه إلى تقوى الله وعبادته تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن المحرمات والفواحش والمنكرات، كقطع السبيل وركوب الفواحش، قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٠، ١٦٦].

كذَّب أهل سدوم نبيهم لوطًا وتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فلم يزجرهم عن ذلك وعيده ولم يزدهم وعظه إلا تماديًا وعتوًا واستعجالًا لعذاب الله.

ومع ذلك استمر لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم وتذكيرهم ببشاعة الجرم الذي هم واقعون فيه وخطره، وأنه لم يسبقهم إليه أحد من قبلهم، قال الله سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨٠، ٨١].

كما دعاهم إلى حياة الاستقامة والاكتفاء بما خلق الله لهم من أزواجهم فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥، ١٦٦] وألح عليهم في طلب النزاهة والاستقامة معلنًا لهم كراهته لصنيعهم القبيح ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨].

الهلاك:

لما أعذر لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قومه، ورأى ماهم عليه من تكذيب واضح، وتحد سافر، توجه إلى ربه طالبًا النصر ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].

استجاب الله دعاء لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فأرسل ملائكة في صورة شبان حسان ومر الملائكة أولًا على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣١، ٣٢].

ذهبت الملائكة إلى لوط وحلوا ضيوفًا عليه فـ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، ضاق صدره لما يعلمه من سفالة قومه ورداءة أخلاقهم؛ إذ خشي على ضيوفه منهم ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وأسرعت زوجته وأخبرت قومها بصيد ثمين في بيت لوط ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

فأخذ يجادلهم ويحاول أن يصرفهم عن ضيوفه، وهو لا يعلم أنهم ملائكة العذاب ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨].

والمراد ببناته نساء القرية، فهن بناته شرعًا؛ فالنبي للأمة بمنزلة الوالد، إلا أن سكرة الشهوة أعمت قوم لوط فقالوا له: ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩] يقصدون ضيوفه.

أغلق لوط الباب دونهم وجعل يمانعهم ويدافعهم وهم يرومون فتحه، وهو يعظهم وينهاهم فلما ضاق به الأمر ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود:٨٠] ، أي لو أن لي منعة أو عشيرة لاستنصرت بهم[١].

عند ذلك قالت الملائكة: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [هود:٨١-٨٣].

أرسل الله ملكًا فضرب على أبصارهم فأصبحوا يتحسسون الجدران من العمى، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر:٣٧].

أمرت الملائكة لوطًا أن يغادر ليلًا وألا يلتفت أحد إلى الخلف، مخبرين بأن عذاب الله واقع بهم مع بزوغ الصبح ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود:٨١].

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٢٠٢).

قلب الله عليهم الديار وأنزل عليهم مطرًا مهلكًا ورجزًا وعذابًا من السماء، وأحل بهم من البأس ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها أولوا الألباب من العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣، ١٧٤]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤، ٣٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جمع الله عليهم أنواع العقوبات بين الاهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالًا لم ينكله أمة سواهم؛ وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها»[1].

ثانيًا- العبر من قصة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. انتكاسة الفطرة تجعل الإنسان يرى الشر خيرًا والخير شرًّا، والخطأ صوابًا والصواب خطأ، والفاحشة طهرًا، والطهارة فحشًا، وهذا ما وقع فيه قوم لوط المعاندون، فقد انتكست فطرتهم لانغماسهم في الرذيلة، ولذا فقد هددوه بالإخراج والنفي والإبعاد من القرية.. والجريمة ماهي؟ الطهارة.. فقد عدوا الفضيلة والعفاف ذنبًا وخطأً، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ٣٧٣).

٢. وصل فساد قوم لوط وانطماس فطرتهم أنهم لا يعرفون للضيف مكانة ولا حرمة؛ فلما سمعوا بضيوف لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانوا في غاية من الجمال، جاؤوا يركضون إليه يريدونهم في فعل الفاحشة، ولقد بلغ الكرب بلوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مبلغه وهو يرى ما سيحل بضيفه أن قال لهم: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر:٦٨-٧٠]، وفي هذا إشارة إلى الفساد الكبير الذي وصل إليه قوم لوط.

٣. نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جدًا، ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصًا كان منها أبعد، قال الله تعالى عن يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

٤. فاحشة اللواط من أقبح المنكرات، وخطرها على المجتمع الإنساني كبير وجسيم؛ فهي تقتل الرجولة، وتقلل النسل، وتميع الأخلاق، وتقضي على القيم والأخلاق، وتنشر الأمراض.

٥. انتشار الشذوذ بصورة فاضحة، حتى يصير هو العرف العام أو القاعدة المتعارف عليها وما عداها فهو منكر يحارب؛ موطن خطر وعلامة نزول الهلاك بأصحابه وأهله.

٦. خطورة كشف الأسرار في المجتمع، فهذه زوجة لوط المشركة، تحالفت مع قومها الفاسدين المنحرفين عن الخلق الحميد، وأفشت أسرار زوجها لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحرضت قومها «السافلين» على ضيوفه من الملائكة الذين نزلوا عليه في صورة آدميين لمعاقبة الفجرة الفاسقين.

المبحث الثامن

إسحـــاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

وُلد إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أخيه إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة، وعمر أبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مائة سنة، قال الله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات:١١٢، ١١٣].

هو الولد الثاني لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الغلام الذي بُشّرت به سارة بعد أن بلغت سنّ اليأس قال تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧١، ٧٢]، وفي الآية إشارة إلى أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده(١).

أثنى الله تعالى عليه في كتابه العزيز بقوله: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات:١١٣].

جعل الله في عقبه وذريته أنبياء بني إسرائيل، وهم: يعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وعيسى، قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام:٨٤].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (١/ ٣٧٣).

وجعله الله كذلك إمام هداية، وأثنى عليه بكثرة العبادة فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٢، ٧٣].

وفي السنة المطهرة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْكَرِيمَ بْنَ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ**»(١).

ولم يرد تفاصيل عن دعوة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أنه من المؤكد أنه سار على نهج أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالمعلومات الصحيحة والموثوقة الواردة بشأن بعض الأنبياء قليلة، ومنهم إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثانيًا- العبر من قصة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. بيان قدرة الله المطلقة؛ حيث خلق إسحاق بعد أن بلغت أمّه سارة سنّ اليأس، لذا استبعدت سارة هذه البشارة قائلة: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧٢].

٢. ثناء الله على نبيه إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ بالهداية وفعل الخيرات والعبادة؛ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٢، ٧٣].

---

(١) أخرجه ابن حبّان في صحيحه (١٣/ ٩٢)، برقم (٥٧٧٦)، كتاب الحظر والإباحة، باب الخبر الدال على أن افتخار المرء بالكرم يجب أن يكون بالدين لا بالدنيا، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد بالتعليقات، باب الحسب (٤٨٣).

المبحث التاسع

يعقـــوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- أهم معالم دعوة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهو المبشَّر به في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٢].

وُلد ونُبّئ في زمن إبراهيم[١]، ويعقوب هو إسرائيل، وكان بنوه اثني عشر ولدًا؛ وهم الأسباط وكل سبط يعتبر سلالة من ولد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٢].

والمتأمل في الآيات القرآنية الواردة في شأن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يجد أنه قد كان إمامًا في الصبر، وكان من العارفين بالله، فقد ابتلي بفقد أعز أبنائه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكيد إخوته له، وقد بلغ به الحزن أن فقد بصره، حيث وصف الله لنا ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٨٤].

عني يعقوب بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجًا، فقد لزمه وأوصى به أبناءه، قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

استمر يعقوب في الدعوة إلى الإسلام إلى آخر لحظة في حياته، فقد دعا أبناءه إلى التوحيد وذكّرهم به عند احتضاره، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي (١/ ٣٠٩).
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٣١٧).

ثانيًا- العبر من قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١. عنايته عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوحيد؛ فقد كانت وصيته لأبنائه وعشيرته طيلة حياته وعند دنو أجله؛ الدعوة إلى التوحيد والتمسك بشريعة الإسلام.

٢. أنّ من شأن أهل الحق والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح ذريتهم وصلاح أمتهم.

٣. من مسؤولية الوالد: أن يدعو أهل بيته وذريته إلى الإسلام ويوصيهم بالاستقامة على شرع الله وهو أفضل إرث يرثه الابن من أبيه.

٤. معرفة نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الحقيقية بالله وتوكله الكامل عليه وتسليمه المطلق لحكمه، جعلته يوقن بفرج الله له في محنته مع أبناءه، وقد بين توكله على الله في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف:٦٧].

٥. يعتبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مدرسة من مدارس الصبر، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٨٦].

المبحث العاشر

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هو نبيّ كريم خصّه الله تعالى بصفات تميّز بها نبوّة وعلمًا ومعرفة، سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ**»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟**» قَالُوا نَعَمْ، قَالَ: «**فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»[(١)].

ذُكرت كلمة (يوسف) في القرآن سبعًا وعشرين مرة. خمس وعشرون منها في سورة يوسف، وواحدة في الأنعام، وأخرى في غافر.

ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو المختصّ من بين إخوته بالرسالة والنبوة والإيحاء إليه، نصًّا في غير ما آية في كتاب الله العزيز[(٢)].

رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٤، ٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (٦/ ٧٦) برقم (٤٦٨٩)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ٤٥٩).

كانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق؛ لطفًا بعبده، وإحسانا إليه، فأوَّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

ولهذا قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي: حسدًا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم؛ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سرًّا ولا جهارًا، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم[1].

الابتلاء بالقذف في الجب:

غار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من مكانته لدى أبيهم يعقوب، فعزموا على التخلص منه وإبعاده، واتفقوا أن يقذفوه في بئر بعيدة عن بلدتهم على طريق المسافرين، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٣٩٣).

لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٨-١٨].

الابتلاء بامرأة العزيز ونسوة المدينة:

ألقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في البئر تحفه ملائكة الله، وجاءته البشارة بالنصر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥].

جاءت قافلة وأخذت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الغلام الصغير معها إلى مصر أسيرًا، ليباع بثمن زهيد جدًّا، وتم بيعه لعزيز مصر، فأمر امرأته أن تكرم مثواه عسى أن ينفعهم الله به أو يتبنّوه.

خرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من البئر إلى قصر عزيز مصر، ولما بلغ أشده وقع في ابتلاء امرأة العزيز فقد راودته عن نفسها فاستعصم وامتنع؛ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

انتشر خبر امرأة العزيز فسمع به كثير من نساء البلدة، وأخذن يتحدثن عنها بسخرية: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠]، أرادت امرأة العزيز أن تمتحن أولئك النسوة بجمال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فمكرت لهن ودعتهن إلى مجلسها وطلبت من يوسف الخروج عليهن قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣١-٣٣] ، اختار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن، واستجاب الله دعاءه، فصرف عنه كيدهن.

الابتلاء بالسجن:

دخل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن والتقى معه بشابين، «قيل: كان أحدهما ساقِي الملك، والآخر خبَّازه، وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودَلُّه وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا.. فقصاها عليه، وطلبا منه أن يعبرهما لهما، وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]»[1]، فقال لهما: مطمئنّا وناصحًا: لا يأتيكما طعام تريانه في المنام إلا فسّرته لكما قبل وقوعه، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١/ ٤٧٦).

أي أرباب عاجزة لا تنفع ولا تضر، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار، وملائكة وأموات، وغير ذلك التي يتخذها المشركون، أتلك خير أم الله الذي له صفت الكمال الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله؟[١].

ثمّ بيّن لهم أنّ ما هم عليه من عبادة الأوثان ما هي إلا مجرّد الأسماء سمّوها هم وآباؤهم؛ وذلك تسميتهم أوثانهم آلهة أربابًا، شركًا منهم، وتشبيهًا لها في أسمائها التي سمَّوها بها بالله[٢]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]، أي: أن العبادة ينبغي أن تكون لله خالصةً دون ما سواه من الأشياء، وأن هذا هو الدِّين القويم الذي لا اعوجاج فيه، والحقُّ الذي لا شك فيه[٣].

ثم عبر لهما رؤاهما بأن أحدهما سينجو ويخدم الملك وأن الآخر سيُقتل.

بداية الفرج:

رأى الملك في منامه رؤيا عظيمة لم يجد لها تأويلًا لدى من عنده، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٣، ٤٤].

حينها تذكر خادم الملك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسأله عن تأول الرؤيا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٣٩٨).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٥-١٦/ ١٠٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٣٩٨).

خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف:٤٦-٤٩].

أفتى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن البقرات السمان والسنبلات السبع الخضر بأنّهن سنين مخصبات، وأن البقرات العجاف والسنبلات السبع اليابسات هن سنين مجدبات(١).

علم الملك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذو علم ومكانة، ولذا طلب إخراجه من السجن فامتنع يوسف الخروج حتى تظهر براءته: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٠]، أجرى الملك تحقيقًا فاعترفت امرأة العزيز ببراءته وصدقه ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:٥١]، ولما تبين للملك حكمة يوسف وأمانته، ولاّه خزائن الأرض.

يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عزيز مصر:

قدم إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مصر يمتارون طعامًا، وكان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ ذاك الحاكم في أمور مصر دينًا ودنيا، فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٤٠٠).

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف:٥٨-٦٣].

عاد الإخوة إلى أبيهم فقالوا: يا أبانا مُنِع منّا أن نكتال المرّة القادمة حتى نأتي جميعًا، فأرسل معنا بنيامين وإنا له لحافظون، قال أبوهم: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف:٦٦].

أذن يعقوب لأبنائه بأخذ بنيامين معهم بعد أن أعطوه عهدًا غليظًا بالمحافظة عليه، ولما دخل الإخوة على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ انفرد بأخيه وضمه إليه وأخبره بحقيقة الحال قائلًا: أنا أخوك يوسف، فلا تحزن فإن العاقبة خير لنا، ثم أخبره بما يريد أن يصنع لبقائه عنده[1]، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف:٦٩].

ثم عمد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى حيلة ليبقي أخاه عنده، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٤٠٢).

وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٧٠-٧٨].

رجع الإخوة إلى أبيهم فأخبروه الخبر، فقال: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٨٣، ٨٤].

ثم أمر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيه بالرجوع إلى مصر وتحسس الخبر عن يوسف وأخيه، ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ

ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٨٧-٩٢].

سأل يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إخوته عن أبيه فقالوا: قد عمي من الحزن فقال: ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [يوسف:٩٣].

فلما دخل يعقوب وولده وأهاليهم على يوسف آوى إليه أبويه، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف:١٠٠].

ثانيًا- العبر من قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

إنّ قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مملوءة بالعبر والعظات، فمن ذلك ما يأتي:

١. الصبر من أهمّ وسائل النجاح في الحياة، وقد كان يوسف الصديق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مدرسة في الصبر؛ فقد صبر على أذى إخوانه، وصبر على الجبّ وظلمته وهو طفل صغير، وصبر على الرقّ والعبودية، وصبر على فتنة امرأة العزيز وصويحباتها، كما صبر على السجن وأهواله، وكانت عاقبة صبره العزة والتمكين والعاقبة الحميدة.

٢. عناية نبي الله يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالدعوة إلى التوحيد في السجن، فقد حرص يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فلم يعبّر للشابين الرؤيا على الفور، بل دعاهم إلى التوحيد، وأنه الدين الذي ينبغي أن يدخل فيه كل من على وجه الأرض، وأن ما عداه

وثنيّة وشرك لا يليق بالعقلاء التديّن به، قال الله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، لما عرف نبيُّ الله يوسف أن أحدهما مقتولٌ، دعاهما إلى حظّهما من ربهما، وإلى نصيبهما من آخرتهما(١).

٣. اعتراف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لربّه عَزَّوَجَلَّ بالعلم والملك مطلقًا؛ فقد عرف أنّه لم يؤتَ الملك وتأويل الأحاديث بالمطلق، بل أوتي شيئًا منهما، قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وهذا درس في التواضع لله.

٤. تعبير الله عَزَّوَجَلَّ بعبارة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ [يوسف:٢٣]، ولم يقل عَزَّوَجَلَّ وراودته فلانة، إشارة للتستّر وعدم فضح الناس والتشنيع بهم إن أخطأوا، فكلنا نخطئ ونصيب، فعلى الداعية أن يتحاشى التصريح باسم المدعو المذنب تفاديًا عن التشويه بسمعته، بل من براعة القرآن الكريم في عرض القصة لم يذكر اسم أحد ممن آذى يوسف فيها، أو زهد فيه، لا أسماء إخوته، ولا اسم الذين باعوه، ولا اسم الذي اشتراه.

٥. وفي القصّة التحذير من وسوسة الشيطان، وإبراز معنى العداوة المتأصّلة بينه وبين بني آدم، فعندما ينشأ المسلم على هذا التحذير ويُغرَس في نفسه منذ طفولته على أن الشيطان عدو له، فإنه يتخذه عدوا لا يصغي إلى وسوسته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٦/ ١٠٥).

٦. وفيها إبراز معنى الوفاء في وقت يعِزّ فيه الوفاء، فإنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه، وأبرزت له من مفاتنها ومحاسنها ما لا قِبَل للإنسان بمقاومته، في هذا الوقت بالذات يتجلّى في يوسف معنى الوفاء، ويستيقظ في بصيرته ما ربّاه عليه والده من الحذر من نزغات الشيطان، ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

٧. وفي القصّة يتجلّى خُلُق العفو عند المقدرة، فقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في موقع السلطة، وكانت إخوته بين يديه في موقع السائلين المضطرّين، وكان باستطاعته أن يوقع بهم أنواعًا من الانتقام، كما كانوا سببًا في وقوعه في ألوان من العذاب، ولكنه عدل عن ذلك كله، ولم يفعل شيئًا منه انتقامًا لنفسه، بل عفا وأصلح، وصفح واستغفر، وقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

٨. الحسد مرض فتّاك في المجتمع ينهك البلد والولد، وهو الذي قتل ابن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي أخرج إبليس من الجنة حين حسد أبانا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبى أن يسجد له حين أُمر بالسجود حسدًا من عند نفسه، فالحسد هو الذي أدّى بإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يفعلوا به تلك الأفعال الشنيعة.

٩. علم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن مصر ستمرّ بوضع اقتصادي خطير، يهدّد أمنها واستقرارها، فلم يتقاعس لحظة واحدة عن الحل لقرب وقوع الأزمة، بل أخذ يخطّط ويدبّر لمواجهة هذا الخطر بخطوات آتية: أمر بزراعة أكبر مساحة من الأرض بالقمح، وبناء المستودعات لتخزين الزائد عن حاجة الناس،

وأمر بأن يظل حصائد من القمح في سنبله، ويخزّن على حاله، إلا ما يحتاجونه لطعامهم[١].

١٠. خطر فتنة النساء على الرجال؛ فقد دعا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أن يصرف عنه كيد النسوة إذ دعا ربه ملتجئًا إليه قائلًا: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

١١. الداعية إلى الله طبيب القلوب، وكما أن طبيب الأبدان يسهل للمريض الدواء ويسيغه له، فإن على الداعية أن يسوق موعظته كذلك، وتأمل خطاب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الرقيق للشابين في السجن ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ ينم عن ارتباطه بهما وإيناسًا لهما وتطييبًا لخواطرهما وتمهيدًا لدعوتهما[٢].

١٢. الترف الزائد يسبب أحيانًا ضعف الغيرة في بعض المجتمعات كما حصل من العزيز مع امرأته، فهو بعدما تأكد من براءة يوسف، وأن المشكلة من امرأته فهي الطالبة، ومع ذلك فأكثر ما قام به أن طلب من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ألا يخبر به أحدًا، وأخبر امرأته بأنها كانت مخطئة.

(١) ينظر: نظرات في أحسن القصص، د. محمد السيّد الوكيل (ص٣٨٩-٣٩١).
(٢) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٢٤٠).

المبحث الحادي عشر

أيـــوب عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي الصابر على البلواء، ورد ذكره في القرآن في موضعين في سورتي: ص:٤١-٤٤، والأنبياء:٨٣-٨٤.

امتدحه الله بالصبر وكثرة التوبة والاستغفار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

تحكي الآيات الواردة في شأنه قصة الابتلاء والصبر، وهي من القصص المشهورة؛ ويُضرب بها المثل للابتلاء والصبر، فقد كان أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عبدًا صالحًا وقد ابتلاه الله بذهاب المال والأهل والصحة جميعًا، ولكنه ظل على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قسم له، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤١-٤٤].

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، فلما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته، وأنهى ابتلاءه.

وبأسلوب آخر يبين الله حال نبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ

مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤].

أُبتُلي أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده سليمًا سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه وتخلى عنه أهله وأقاربه، ولم يبق معه إلا زوجته، فقد حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا، فسلب جميع ذلك، وبقي هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، تضرع إلى رب العالمين بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣]، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله، ففعل فأنبع الله تعالى عينًا وأمره أن يغتسل ويشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى[1].

ويلاحظ أن أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يذكر تفاصيل حاجته لله، إنما ذكرها بالعموم، فالله خبير عليم سميع بصير ومحيط به وبما أصابه.

ومما يُذكر أن أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أثناء مرضه، طلب أمرأته في حاجة فتأخرت عليه أو لم تقم بها، فحلف ليضربنها مائة سوط، ورحمة من الله به وبزوجه الصابرة الوفية التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة، فيخرج بذلك من يمينه وذلك قوله:

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩-٥٠).

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤]، والضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان[١]، وذلك الإنعام، كان جزاء ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

ثانيًا- العبر في قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. صبر أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقد مكث سنوات عديدة يكابد المرض والفقر وابتعد الناس عنه.

٢. تظهر لنا أحداث قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شيئًا من لطف الله ورحمته بعباده المخبتين والمنيبين إليه، فقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي رحمة من الله على أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ثم بين أن في هذه القصة عبرة لذوي العقول والأفهام، وأن عاقبة الصبر: الفرج والمخرج والراحة، قال سبحانه: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

٣. يلاحظ رقة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأدبه مع ربه، فهو يتجه إلى ربه معلنًا حالته فقط؛ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ولا يقترح شيئًا على ربه، بل يدع الأمر كله إليه، فيكفي أنه يسمع ويرى، ويستجيب الله لصوت هذا الأواه المنيب فيشمله برحمته ورضوانه، ويعيد إليه العافية ظاهرًا وباطنًا، ويرسم له الطريق إلى ذلك: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢].

---

(١) ينظر: أضواء البيان، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٤/ ٢٤٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩-٥٠).

٤. الابتلاء سنة كونية، فقد يبتلي الله أصفياءه وعباده المؤمنين تمحيصًا لهم وزيادة في أجورهم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

٥. ليست الصحة والسعة دليل الرضا والقبول، وليس المرض والفقر دليل الغضب والشقاء، وإلا لما أُعطى الكفار منها شيئًا، فقد يكون استدراجًا لهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

٦. تضرب لنا القصة مثلًا طيبًا لوفاء الزوجة وإخلاصها في خدمة زوجها، والتزامها الرضا في البأساء والشكر في السراء، فقد ضاقت يد زوجها أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأدبرت عنه الدنيا، وأقعده المرض، وقد صبرت تلكم الزوجة الوفية سنوات عديدة، فقامت على خدمته أيام بلائه، وكانت الوحيدة التي حنت عليه، وأخذت تدبر لها وله أمر المعيشة، حتى قيل إنها كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وهو مثال رفيع لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة مع زوجها[1].

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٢٦٩).

المبحث الثاني عشر

يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

هو يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومتّى هو أبوه[١] وهو من ولد بنيامين بن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

كان يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا ورسولًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٣٩]، وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، من فضائله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان من الصالحين، قال تعالى: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القلم:٥٠].

كما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ من المسبّحين، قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤]، جاء في تفسير (المسبّحين): بمعنى التسبيح المعروف، وقيل بمعنى المصلّين، وقيل بمعنى الأوابين، أو بمعنى المحسنين[٣]، وجميع هذه الأقوال مؤدّاها واحد؛ وهو ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

الدعوة والبلاغ:

دعا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى الله وكانوا يعبدون الأصنام، فنهاهم عن عبادتها، ودعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده، فكان من أمره وأمر الذين بعث إليهم ما قصه الله في كتابه، حيث امتنع قوم يونس عن قبول الحق وبقوا على كفرهم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (٤/ ١٥٣)، برقم (٣٣٩٥)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي (١/ ٣٩٥).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٧/ ٤٢٢-٤٢٣).

واستمر يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته لهم إلا أنهم أصروا على عدم الإيمان؛ حينها غادرهم متوقعًا نزول العذاب بهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٨]، وقال أيضًا: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وقد خرج عَلَيْهِ السَّلَامُ مغاضبًا من أجل ربه، أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب، ثم عجل بالذهاب ولم يصبر الصبر اللازم، فخرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج، وغير هذا لا يصح في الآية.

ظل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ سائرًا حتى انتهى إلى ساحل البحر، فوجد سفينة فركبها وما كادت السفينة تجاوز البر حتى أخذت تميد وتضطرب، ولما أشرف ركابها على الغرق، اقترعوا بينهم ليلقوا بأحدهم في البحر، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاث مرات، فألقي في البحر، جاء في الأثر: احتبست السفينة فعلم القوم إنما احتبست من حدث أحدثه بعضهم، فتساهموا فقرع يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت وهو مليم، أي: وهو مسيء فيما صنع، فلولا أنه كان من المسبحين، أي: كان كثير الصلاة في الرخاء[1].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥/ ٣٦٩).

وفي قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر: الأول: أي لن نضيق عليه في بطن الحوت، والثاني: أي لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء، أما القول بأنها من القدرة: فهو قول باطل بلا شك. لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء، كما لا يخفى.

فلما ألقي في البحر والتقمه الحوت فأصبح في ظلمات ثلاث: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، نادى ربه بالنداء العظيم: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وأخبر الله أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه، ثم استجاب الله له ونجاه من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت، فألقاه الحوت على ساحل البحر، وكان يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سقيمًا لا يستطيع الحركة لما أصابه من التقام الحوت إياه، ثم أنبت الله عليه شجرة اليقطين: وهي الدباء[١]، تحميه وتظلله حتى تماثل للشفاء، ثم عاد إلى قومه فوجد أنهم قد آمنوا بالله، قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات:١٤٧، ١٤٨].

ومن رحمة الله بقوم يونس إيمانهم بالله قبل نزول العذاب بهم، فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل[٢]، وذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء:٩٨].

---

(١) ينظر: أضواء البيان، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٤/ ٢٤١-٢٤٢).
(٢) ينظر: المرجع نفسه (٤/ ٢٤٤).

ثانيًا- العبر من قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ **عبر وفوائد منها:**

١. تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة؛ فقد كان يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ذا عبادة وتقوى ولهج بذكر الله كثيرًا، وقد عرف الله في الرخاء فعرفه الله في الشدة، فأنجاه من الكرب، حيث كان ينادي الله ويستغيثه بالتوحيد.

٢. أن أصحاب الدعوات الصادقة لا بدّ أن يصبروا عليها وأن يتحمّلوا الإيذاء من أجلها، والتكذيب لها، ويثابروا ويثبتوا من أجلها، وإلا لم يحصلون على مرادهم، فيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا دعا قومه إلى عبادة الله وحده، فكذّبوه، واستمرّوا على كفرهم وعنادهم، ضاق بهم ذرعًا، ووعدهم بحلول العذاب عليهم، واعتزلهم وغادرهم مغضبًا دون أخذ الإذن من الله.

٣. أن نزول البلاء في الأمّة يكون بسبب ذنب وخطيئة، ولا يُرفع إلا بتوبة وإنابة؛ فقوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا نزل بهم العذاب بسبب معصيتهم، ثم تضرّعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بتوبة صادقة؛ أزال عَزَّوَجَلَّ عنهم العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

٤. ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من المنجيات، فيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المأزق نجّاه الله منه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤].

٥. ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعيًا بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ -أَوْ أُحَدِّثُكُمْ- بِشَيْءٍ: إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا دَعَا بِهِ فُرِّجَ عَنْهُ؟ فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، قَالَ: دُعَاءُ ذِي النُّونِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**»[1].

(١) سنن النسائي الكبرى (٦/ ١٦٨)، برقم: (١٠٤٩١)، كتاب عمل اليوم والليلة - ذكر دعوة ذي النون، باب دعوة ذي النون.

المبحث الثالث عشر

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي مرسل من أولي العزم من الرسل، من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ورد ذكره في أكثر من مائة وتسع وعشرين آية في خمس وعشرين سورة من القرآن الكريم منها: البقرة، وآل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس، مريم، طه، القصص، الكهف، وتعتبر قصته عَلَيْهِ السَّلَامُ من أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم.

هو كليم الله، فقد كلمه الله مباشرة بدون واسطة: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، وأثنى الله عليه بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥١، ٥٢]، أجاب الله سؤاله فجعل أخاه هارون نبيًّا، ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٢٩-٣٦].

فرعون وطغيانه:

استقر بنو إسرائيل في مصر زمن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أصبح لهم نسل كثير وزراعة، ثم دار الزمان وملك مصر فرعون، فحكم قومه بالقوة والبطش والظلم، خشي فرعون من كثرة بني إسرائيل أن يقع منهم شر، ولذلك أذلهم واستعبدهم وسخرهم في أشق الأعمال وأكثرها جهدًا لإنهاك قواهم، كما جعلهم فرقًا وأحزابًا

و شيعًا، واستحيا نسائهم، ثم بدأ يقتل أطفالهم الذكور عندما أخبره كاهن أن ملكه سيزول على يد وليد من بني إسرائيل.

بلغ الجبروت والطغيان بفرعون أن ادعى الألوهية، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وبالجملة فقد عاث في الأرض فسادًا وظلمًا واستكبارًا، وهو ما عبر عنه الله بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

قيل لفرعون: إن دمت على ذبح الأطفال الذكور لن يبق من بَنِي إسرائيل من يخدمنا، فصار يذبح سنة ويترك سنة، فولد هارون فِي السنة التي لا يذبح فِيهَا، وولد موسى بعده بسنة(١).

في هذه الأجواء المظلمة والاضطهاد الأليم لبني إسرائيل يشاء الله أن يولد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إنه التحدي الإلهي والتقدير الرباني الذي لا حول ولا قوة لبشر أمامه.

لقد ولد موسى في ظل أوضاع قاسية ولد والخطر محدق به، والموت يتلفت عليه، والشفرة مشرعة على عنقه، تهم أن تحتز رأسه، وها هي ذي أمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين، ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة، ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة.

هنا يتدخل الوحي الإلهي، فيتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، ويلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرف: يا أم موسى أرضعيه، فإذا خفت عليه

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦١).

وهو في حضنك، وفي فمه ثديك، وهو تحت عينيك، إذا خفت عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾!! ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ إنه هنا في اليم في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها، اليد التي لا خوف معها، اليد التي تجعل النار بردًا وسلامًا، وتجعل البحر ملجأ ومناما، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٧-١٣].

لمّا استقرّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بيت فرعون وهو غلام رضيع، أرادوا إرضاعه فلم يقبل ثديًا ولا طعامًا ولا شرابًا، فتحيّروا من أمره واجتهدوا، حتى دلتهم أخته على مرضعة أمينة، وبذلك عاد الطفل إلى أمه فهدأ بالها واطمأنت نفسها وسكن الرضيع في حجر أمه.

موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتوجّه إلى مدين:

عاش موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونشأ وتربى في قصر فرعون حتى اشتد عوده، وأصبح ذا قوة في الجسم وحصل ذات يوم أن وقع شجار نتج عنه قتل بالخطأ، فغادر موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مدين إثر نصرته لأحد الإسرائيليين بعد أن جاءه رجل ناصح وأخبره: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٠، ٢١].

وصل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، أي: حابستين غنمهما فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة تزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم، فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظل بشجرة وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما فأخبرتاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ثم ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٦-٢٨]، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرًا[1].

الدعوة والبلاغ:

بعد انقضاء المدة استأذن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعودة إلى مصر، فسار بأهله، وفي الطريق كان وقت تلقي الرسالة، قال الله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟

(١) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٤/ ١٣).

إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾ [طه:١٠-٢٦].

تفاجأ فرعون بهذا الذي كان ربيبًا في قصره، ونشأ تحت عينه وبصره، وله فضل النشأة والتربية يقول له: أنا رسول رب العالمين، واستغرب فرعون من الدعوة الجديدة، فبدأ يمن عليه بجميل التربية والرعاية[1]، ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨-٢٤].

---

(١) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، عبد الرحمن ناصر السعدي (ص٥٨٩).

سأل فرعون فمن ربكما يا موسى؟ فأجاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرۡعَوۡا۟ أَنۡعَٰمَكُمۡ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه:٥٠-٥٥].

بدأ فرعون بالتهديد بالسجن، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَىۡءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِى ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡا۟ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيۡرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩-٥١].

الهلاك والغـــرق:

آتى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تسع آيات بيّنات لتأييد رسالته، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١]، وهذه الآيات التسع هي: يد موسى، أي: تلألؤها كأنها القمر لامعة كالبرق من غير برص؛ وذلك عند إدخالها في جيبه، وعصاه، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات(١).

ومع كل تلك المعجزات والآيات البينات لم يؤمن فرعون وقومه، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٤، ١٣٥].

واستمر فرعون في طغيانه وإعراض وتكبره وإعلان ألوهيته، فكانت العاقبة أن غرق هذا الإله المزعوم في الماء! ودمره الله وجنده، ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٤٠].

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنو إسرائيل:

نجى الله موسى وقومه من بطش فرعون، وقد رأى بنو إسرائيل العلامات البينات على صدق موسى، ومع ذلك فقد خالفوا أمره وعاندوه، وطغوا، وفيما يأتي جوانب من موقف بني إسرائيل من دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

---

(١) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ١٨٧).

١. سرعة طلب بني إسرائيل عبادة الأصنام بعد غرق فرعون، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

٢. عبادتهم للعجل، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٨].

٣. طلبهم أن يروا الله جهرة، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥].

٤. طلب منهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يدخلوا القرية ساجدين مستغفرين، فبدلوا الكلام مستهزئين بموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته، ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨، ٥٩].

٥. استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة:٦١].

٦. عدم الاستجابة لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فعندما طلب منهم موسى أن يذبحوا بقرة؛ عاندوا وماطلوا بكثرة الأسئلة، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧].

٧. التطاول على الله، فهم القائلون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وهم الذين وصفوا الله بالعيب ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

موسى مع الخضر عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ:

أورد الإمام البخاري في صحيحه عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل فقيل له: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، وأوحى إليه: بلى عبد من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال: أي رب، كيف السبيل إليه؟ قال: تأخذ حوتا في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فاتبعه، قال: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، - قال سفيان: وفي حديث غير عمرو، قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين - قال: فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر فلما استيقظ موسى قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ الآية، قال: ولم يجد النصب حتى جاوز ما أمر به، قال له فتاه يوشع بن نون: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ الآية، قال: فرجعا يقصان في آثارهما، فوجدا في البحر كالطاق ممر الحوت، فكان لفتاه عجبًا، وللحوت سربًا، قال: فلما انتهيا إلى الصخرة، إذ هما برجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، قال: وأنى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا؟ قال له الخضر: يا موسى، إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، قال: بل أتبعك، قال: فإن**

اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا، فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت بهم سفينة فعرف الخضر فحملوهم في سفينتهم بغير نول - يقول بغير أجر - فركبا السفينة، قال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره، قال: فلم يفجأ موسى إذ عمد الخضر إلى قدوم فخرق السفينة، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ الآية، فانطلقا إذا هما بغلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فقطعه، قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ -فقال بيده: هكذا- فأقامه، فقال له موسى: إنا دخلنا هذه القرية فلم يضيفونا ولم يطعمونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٠-٨٢]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما»[(١)].

ثانيًا- العبر من قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١- بيان عجز فرعون الطاغية عن أن يكون إلهًا كما يدّعي؛ حيث أراد الله تعالى أن ينشأ من يكون سببًا في زوال سلطته في داره، وأن يولد في العام الذي فيه قتل أطفال بني إسرائيل، حتى يؤخذ ويربَّى في داره، وليكون هلاكهم على يديه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٩١)، برقم (٤٧٢٧)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

٢- إرادة الله تعالى في كون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثقيل اللسان حتى يبعث أخاه وزيرًا له، ولذلك شفع موسى لأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ولذا ففصاحة اللسان من مقوّمات الداعية الناجح، وأنها من أسباب قبول الدعوة.

٣- المعروف لا يضيع؛ فقاضي حوائج الناس لله، الله لا يضيع أجره، وسيلقى أجره في الدارين، فتكوين علاقة المصاهرة بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والرجل الصالح كان نتيجة إعانة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهاتين المرأتين.

٤- على المحسن أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه بعد إحسانه وهذه الفائدة مستنبطة من دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لنفسه بعد الإعانة، حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

٥- صبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مجال الدعوة على فرعون، ثم على بني إسرائيل؛ دليل على وجوب صبر الداعية رغم ما يعترض سبيل دعوته من عقبات، ولا شك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر على فرعون الذي ادّعى الألوهية وأذاق بني إسرائيل ألوانًا من العذاب فنجّاهم منه.

٦- لا يُدرى مكمن الخير من الشر، فرُبّ محبوب في مكروه ومكروه في محبوب؛ فقد كانت أفعال الخضر في ظاهرها شرًّا محضًا، مكروهًا لموسى، إلا أنّها تنطوي في الباطن على الخير العظيم والمصلحة الراجحة كما ظهر، وفيه: الأمر بالتأنّي والتثبّت، وعدم الاستعجال في الحكم على الأشخاص والتصرّفات حتى يعرف المرء ما يُقصَد منها، وما هو الدافع ورائها[١].

---

(١) ينظر: العبر في أحسن القصص وروائع السير، أ.د ناصر بن محمد بن مشري الغامدي (ص١٨٧-١٨٨).

٧- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده يملآن القلوب ثقة وعزة وارتباطًا بالله، وهو من أوائل الأمور التي دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إليها في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٠].

٨- بينت آيات القرآن الكريم أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد عالج بني إسرائيل أشد المعالجة، فما إن غاب عنهم قليلا حتى عبدوا العجل، ولما دعاهم إلى الدخول إلى الأرض المقدسة جبنوا عن الدخول، ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤].

٩- أرشد الله رسله وأتباعهم إلى أن الدعوة إلى طريقه ينبغي أن تتكون بالحسنى والقول اللين: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، ولذا فهي قاعدة مهمة وأساس متين في تبليغ الدين حتى مع أعتى الطواغيت وأشد الناس نفورا عن الله.

١٠- إذا اتصلت القلوب ببارئها وأشرق الإيمان بين حنايا الضمائر؛ نبض القلب بروح هذا الإيمان، فصنع الأبطال، وهذا ما وقع للسحرة، فحينما مس الإيمان قلوبهم وخالط بشاشتها؛ أزال عنها غشاوتها، وملأها باليقين الراسخ فلم يعبؤوا بتهديد فرعون بعد أن أيقنوا أن ما حدث ليس من صنع بشر، وليس بالسحر الذين هم أساتذته[1].

١١- قوة إيمان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واستشعاره معية الله، فقد كان موسى وبنوا إسرائيل في موقف حرج؛ البحر أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، ولذا قال أصحابه: إنا لمدركون، فجاء جواب المؤمن الواثق بموعود ربه: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

---

(١) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٢٨٧).

١٢- يظهر في القصة مدى طغيان فرعون وجبروته، فقد كان يتصرف بأولئك المستضعفين كما يريد له هواه البشع، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسومهم سوء العذاب والنكال، وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه؛ فيبث عليهم العيون والأرصاد، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار.

١٣- أظهرت القصة واقع الحال، وما هو مقدر في المآل، لتقف القوتين وجهًا لوجه: قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على الكثير، وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي ترهب الناس.

١٤- عناية الله بعباده المؤمنين، فهؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدًا ولا تابعين؛ وأن يورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين، وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما، وما يتخذون الحيطة دونه، وهم لا يشعرون.

المبحث الرابع عشر

إليـــاس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي مرسل، قال الله عنه: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٢٣]، والآيات الواردة في شأنه ودعوته لقومه قليلة، حيث ورد ذكر دعوته في عشر آيات في سورة الصافات.

أكرم الله عبده إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالنبوة والرسالة، إذ دعا قومه إلى تقوى الله والخوف منه، وعدم الشرك به، فقد كانوا يعبدون صنمًا، مبينًا لهم انحرافهم الجسيم في ترك عبادة الله أحسن الخالقين، الذي خلقهم، وخلق آباءهم من قبل، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢٣-١٣٢].

إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أحد أنبياء بني إسرائيل من سبط هارون، دعا قومه أهل مدينة بعلبك بالشام وما حولها إلى عبادة الله تعالى، ونهاهم عن عبادتهم صنمًا لهم يقال له «بعل» وتركهم عبادة اللهّ، الذي خلق الخلق، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة صنم، لا يضر، ولا ينفع، ولا يخلق، ولا يرزق، ولا يتكلم؟ «وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغي؟»[1].

---

(١) ينظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري (٤/ ٤٢٣)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٧٠٧).

فَكَذَّبُوه أي في أنه لا إله إلا الله، وخالفوه وأرادوا قتله، فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم، حتى أهلك الله الملك وولى غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم من قومه خلق عظيم، وقد أنعم الله على إلياس فأبقى له ذكرًا حسنًا في الذين جاءوا من بعده من الناس، وسلم الله عليه وعلى آل ياسين جزاء إحسانه وطاعته[1].

ثانيًا- العبر من قصة إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. عناية أنبياء الله بالدعوة إلى التوحيد، فهذا إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان أساس دعوته عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام.

٢. من عادة الملأ تكذيب الرسل والأنبياء والتشبث بالمعتقدات الموروثة من الآباء، وهذا ما حصل لنبي الله إلياس، فقد كذبه قومه مستمسكين بعبادة صنم لا يضر ولا ينفع.

٣. عناية الله بعباده المؤمنين المصلحين ورعايته لهم، فقد أبقى لنبيه إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكرًا حسنًا في الناس بعده ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الصافات:١٢٩]، وسلم عليه وعلى آله بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:١٣٠] وذلك جزاء إحسانه وطاعته لله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٣١، ١٣٢].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧).

المبحث الخامس عشر

داود عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا: معالم دعوة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

يمتد نسب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، كان قد جمع الله له بين الملك والنبوة، بين خير الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وقد ورد ذكر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم في آيات عديدة منها: البقرة:٢٥١، النساء:١٦٣، المائدة:٧٨، الأنعام :٨٤، الإسراء:٥٥، الأنبياء:٧٩، النمل:١٥-١٦، سبأ:١٠ -١٣، ص:١٧- ٢٢، ٢٤، ٢٦.

أنزل الله عليه كتابًا وهو الزبور، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

الدعوة والجهاد:

تميّز داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقوة والشجاعة في زمن قيادة طالوت الذي بعثه الله ملكًا لبني إسرائيل، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا

تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٧-٢٤٨].

قاد طالوت بني إسرائيل لقتال جالوت، وكان داود معه في الجيش، وقد تحقّق النصر لطالوت وجنوده مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١].

لما تملَّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددًا كثيرًا وجمًا غفيرًا، امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، وذلك بعدم الشرب من النهر، وأخبرهم بأنه من شرب من النهر فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته، ومن لم يشرب منه فإنه مني، ولا جناح عليه في غرفة منه، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة، أكبر دليل على عدم

صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلًا على الله، وتضرعًا واستكانة وتبرؤا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم، ولهذا لما جاوز طالوت ومن آمن معه النهر ورأوا قلتهم وكثرة أعدائهم، قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، وقال أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم وآمرين لهم بالصبر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فوقعت الموعظة في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين.

من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم فهزموهم بإذن الله.

قتل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ جالوت ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره، وآتى الله داود الملك والحكمة، فأصبح ملكًا على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض[1].

الجمع بين النبوة والملك:

جمع الله لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ بين النبوة والملك فقال سبحانه: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥١]، ووهبه القوة والبطش

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص١٠٨- ١٠٩).

الشديد في ذات الله والصبر على طاعته، قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:١٧].

لما كان داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان ذا أيد وقوة، قد حرص على أن يكون له عمل اليد يأكل منه، فقد دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلى الاقتداء به فقال: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(١).

سخّر الله للنبي داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الجبال ومجموعات الطير يُطعنه ويذكرن الله معه بكرة وأصيلًا، فمع النبوة والملك، آتاه الله قلباً ذاكرًا وصوتًا رخيمًا يرجّع به قراءته التي يمجّد فيها ربّه، وبلغ من قوّة استغراقه أن كانت الجبال تسبّح معه، والطير مجموعة عليه تسبّح معه لمولاها ومولاه(٢)، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:١٨، ١٩].

أمر الله تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تُؤَوِّب معه، وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها، مجاوبة له، وكان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضًا له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها، وتمجيده، وتكبيره، وتحميده، كان ذلك مما يهيج على ذكر اللهّ تعالى، فقد كانت المخلوقات تطرب لصوت داود، فإن اللهّ تعالى، قد أعطاه من حسن الصوت، ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسبيح

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٧)، برقم (٢٠٧٢)، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٢٠/ ٤٣).

والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجيِّ المطرب، طرب كل من سمعه، من الإنس، والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها، ولعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعاً له، وكذلك ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقًا، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض[١].

وأيد الله ملكه وقواه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود حتى مكن له وجمع حوله القلوب، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ التي بها قوَّى اللهّ ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: الخصومات بين الناس[٢].

وألاَن الله الحديد لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان يعمله ويُشكله بلا نار ولا مطرقة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠].

وعلّمه كذلك صناعة الدروع لوقايتهم في الحرب؛ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠] أي: صنعة سلاح لكم ليحرزكم إذا لبستموه ولقيتم فيه أعداءكم من القتل، وقال أيضًا: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١١]، أي: أن اصنع دروعًا سابغات من الحديد الذي ألناه لك، والسرد: نسج الدرع[٣].

---

(١) المرجع السابق، (ص٦٧٦).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٧١١).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٦/ ٣٢٩)، أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (٤/ ٢٣٣).

ولذا فقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من صنع الدروع الحربية التي يلبسها الجنود، ولم تكن الدروع الحديدية تُلبس على هذه الصورة قبله.

الحكم والقضاء:

لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الخطاب المقنع في الفصل بين الناس، وكان معروفًا بذلك مقصودًا، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها اللهّ فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب اللهّ عليه، وغفر له، وقيض له هذه القضية، حيث دخل عليه خصمان فتَسَوَّرا على داود في محرابه ومحل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلا عليه مع باب، ففزع منهم وخاف، فقالا له: نحن خَصْمَانِ فلا تخف، بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بالظلم، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَق والعدل، ولا تمل مع أحدنا.

عرَف داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن قصدهما الحق الواضح الصرف، فلم يشمئز نبي اللهّ داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾، نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره، له تسعٌ وتسعُونَ نعجةً أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه اللهّ، ولِيَ نعجةٌ واحدة، فطمع فيها فقال: أكفلنيها أي: دعها لي، وخلها في كفالتي وغلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

فقال داود - لما سمع كلامه ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر - لَقَد ظلمك بسؤال نعجتك إِلَى نعاجه، وهذه عادة الخلطاء والقرناء، لأن الظلم من صفة النفوس إلا أهل الإيمان الراسخ.

وَظَنَّ دَاوُدُ حين حكم بينهما أنه اختبار فتنبه واستغفر لما صدر منه، وسجد للهّ تعالى بالتوبة النصوح والعبادة، فغفر له الله الذي صدر منه، وأكرمه اللهّ بأنواع الكرامات، وهذا الذنب الذي صدر من داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها[1]، قال الله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٢-٢٦].

ثانيًا- العبر من قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. تكامل شخصيّة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في عبادته وشجاعته كما أخبر عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٧-١٩]، ولذا فقد دعا رسول الله

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٧٧)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٧١١).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إلى الاقتداء به في عبادته وشجاعته؛ جاء في الحديث: «..**فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى**»(١).

٢. في تسبيح الجبال والطير مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ دليل على أن المخلوقات كلها تسبّح لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء:٤٤].

٣. أهمية الحكم بالعدل بين الناس ولزوم الحق والحذر من الهوى، فقد خاطب الله نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك حيث قال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦].

٤. أكرم الله نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، بصوت عظيم الحسن، وبلغت عذوبة صوته أن الجبال الصم، والطيور البهم، لا تكاد تقاوم نداوة جمال صوته فتجاوبه بالتسبيح، وتسبح معه بالعشي والإشراق، ولذا لا يزال يُضرب بصوته عَلَيْهِ السَّلَامُ المثل إلى الآن في حسنه وحلاوته، فيقال لصاحب الصوت الجميل، لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود.

٥. إن الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحًا، وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب.

٦. إن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٠)، برقم (٣٤١٩)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾.

٧. الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦]، فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٠، ٢٥١].

٨. أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.

٩. أن من رحمته وسننه الجارية: أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها[١].

١٠. من أكبر نعم اللهّ على عبده: أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن اللهّ به على عبده داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

١١. كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أغلب أحواله ملازمًا محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

١٢. ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص١٠٨)

١٣. لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

١٤. كمال حلم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

١٥. جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو باغ علي لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٦. أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

١٧. المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى اللهّٰ، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

١٨. أن الاستغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن اللهّٰ رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

١٩. ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقتَ الحكم كلَّ محبة أو بغض لأحد الخصمين.

٢٠. الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل اللهّٰ وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور

الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه[١].

٢١. أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولدًا صالحًا، فإن كان عالمًا، كان نورًا على نور.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٧١٢-٧١٤).

المبحث السادس عشر

سليمـــان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

هو سليمان بن داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، يصل نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سبع سور هي: البقرة:١٠٢، النساء:١٦٣، الأنعام:٨٤، الأنبياء:٧٨، ٧٩، ٨١، النمل: ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٣٠، ٣٦، ٤٤، ص:٣٠، ٣٤، سبأ:١٢ .

جمع الله لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين النبوة الشريفة والملك العظيم المبهر؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص:٣٥]، يقول مجاهد: «ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان، وكافران؛ فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر»، كما أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد ورث أباه داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في النبوة والملك وليس المال، لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخص بالمال دونهم، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] أي: ورث علمه ونبوته فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه.

خصه الله بمزايا تفرد بها عن البشر فقد علّمه لغة الطير والحشرات جميعًا ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، فكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها، كما أنه يعرف لغة الحيوان والحشرات، فقد أخبرنا الله عن فهمه لكلام النملة، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل:١٨، ١٩].

جمع لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن والشياطين ومن الطيور، فهم في غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عليه، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة لرفقتها وبني جنسها: ادخلوا مساكنكم حتى لا يحطمنكم جيش سليمان، وقد عرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم إن حطموكم فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قولها وفهمه فتبسَّم من قولها إعجابًا منه بفصاحتها ونصحها لأمتها وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، ولهذا دعا الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه.

كما سخر الله لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجن فكانوا يخدمونه ويطيعونه، ولا يتجرأ أحد منهم الخروج عن أمره، وهي معجزة أخرى من المعجزات، ونعمة أنعم الله بها عليه دون سواه، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ:١٢، ١٣]، فكانوا يعملون له ما يشاء، لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته.

وسخر له كذلك الريح غدوها شهر ورواحها شهر، قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ:١٢]، فكانت تأتمر بأمره وتنقله ومن معه حيث يشاء(١).

وسخر الله له كذلك إسالة عين القطر وهو النحاس، فكان يشكله ويعمل به ما يريد، قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ [سبأ:١٢]، فكان يذيب النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود، وقالوا: لم يلن النحاس ولا ذاب لأحد قبله(٢).

الدعوة والبلاغ:

أخبر الهدهد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمملكة تعبد الشمس من دون الله فدعاهم سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لعبادة الله، قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل:٢٠-٢٤].

تفقد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الطير، ففَقَد الهدهد، وهذا يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى إنه فقد هذا الطائر الصغير لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة.

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٦٠٢-٦٠٣).
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٢/ ٢٢٨).

فتوعده بالعذاب أو القتل، أو أن يأتي بحجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لم يقسم على مجرد عقوبته؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

عاد الهدهد بعد فترة وجيزة، وهذا يدل على هيبة جنود سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنا كثيرًا، فقال لسليمان: أَحَطتُ بِمَا لم تُحِط به، فعندي علم ما أحطت به على علمك الواسع، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ، القبيلة المعروفة في اليمن، بخبر يقين[1]، وأخبرهم بمملكة سبأ وعبادتهم غير الله.

أرسل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الهدهد كتابًا إلى الملكة يدعوها وقومها إلى الإسلام، فقال تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:٢٨-٤٤].

رد نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الهدية عليهم، وقبل أن يأتوه مذعنين بالإيمان لله وحده؛ طلب عَلَيْهِ السَّلَامُ إحضار عرش الملكة قبل وصولها وقومها إليه، قال الله تعالى:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٦٠٤).

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ [النمل:٣٦-٤٠].

أنكر سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عدم إجابتهم وإرسالهم لهدية لا تساوي شيئًا في ملكه، فقد أغناه الله عنها وأكثر عليه النعم.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه فقال: ارجع بهديتك فرجع إليهم وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل:٣٨، ٣٩]، والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهابًا وشهران إيابًا، ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به على كبره وثقله، وبُعدِهُ قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه.

و﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل:٤٠] قيل: هو رجل عالم صالح عند سليمان كان يعرف اسم الله الأعظم الذي

إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالًا وأنه دعا الله فحضر.

ثم أمر نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغير عرشها وينكر بزيادة ونقص ونحو ذلك، ليختبر فهمها وعقلها، ثم سُئلت عن عرشها فقالت: كأنه هو وهذا من فطنتها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحدًا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب، ولم تكن تتخيل أن يُنقل العرش بهذه القدرة والسرعة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤١-٤٤].

أراد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح وهو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلسًا من قوارير شفافة تجري تحته الأنهار، يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء، فرفعت ثوبها خشية البلل وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا للخياضة، وهذا من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه قد بناه على الحكمة، فلما استعدت للخوض قيل لها: إِنَّهُ صَرْحٌ مملس مِنْ قَوَارِيرَ، فلا حاجة منك لكشف الساقين، فلما شاهدت ما شاهدت وعلمت نبوته

ورسالته؛ تابت وأعلنت إسلامها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فتنة سليمان:

مر بنبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ موقفان تعرض فيهما للفتنة، **فأما الموقف الأول:**

فهو الذي قال الله عنه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣١-٣٣].

لما عرضت على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الخيل الجياد السبق الصافنات، وهي التي ترفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائق، وجمال معجب، خصوصًا للمحتاج إليها كالملوك، فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته الخيل عن صلاة المساء وذكره، فندم على ما مضى منه، وتقربا إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب الله على حب غيره، والمراد: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها[2].

وأما الموقف الثاني:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٤، ٣٥]، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَالَ سُلَيْمَانُ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ،**

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٦٠٦).
(٢) المرجع السابق (ص٧١٣).

فَلَمْ يَقُلْ وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ»**[(١)]، وكانت فتنة سليمان بسبب تركه قوله: إن شاء الله، فلم يلد من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان، ألقي على كرسيه بعد وفاته[(٢)].

وخلاصة الأمر: كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان، كما يبتلي الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع وطلب المغفرة؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء، فاستجاب له ربه، فأعطاه فوق الملك المعهود، ملكًا خاصًا لا يتكرر.

ثانيًا- العبر من قصّة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. التوحيد هو الفطرة التي فطر الله الخلق كلهم عليها، حتى المخلوقات التي لا تعقل؛ فهذا الهدهد ينكر الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى حكاية عنه: ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل:٢٤].

٢. تفقّد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ للطير وفقده الهدهد؛ يدل على حرصه على رعيّته وتفقّده لهم، وفيه الحكمة من الحزم في الضبط والتنظيم والإدارة في إدارة شؤون الرعية، فكلّ راع لا بدّ أن يكون على علم برعيّته، وهو مسؤول عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، (٤/ ١٦٢)، برقم: (٣٤٢٤)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، ومسلم، (٥/ ٨٧)، برقم (١٦٥٤)، كتاب الأيمان، باب الاستثناء.

(٢) ينظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٢٥٤).

٣. سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقطع بالقول في عذاب الهدهد، وإنما استثناه بالحجة المقنعة التي فيها نجاته من العذاب الذي توعّده به، وهذا من العلم الذي يؤخذ من النبوة في سياسة الملك والقضاء؛ وذلك أن نبيّ الله وإن توعّد الهدهد، فقد كان الوعيد قائما على توجيه التهمة، والاستماع إلى الحجة قبل الفصل في القضاء وإصدار الحكم.

٤. على المسلم الإلحاح في دعاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله من الصالحين؛ فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيّ من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام وهم أرفع خلق الله درجة، ومع ذلك فقد طلب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله أن يدخله مع القوم الصالحين.

٥. أنّ إحاطة الهدهد بما لم يحط به سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والملك والعلوم الجمّة والإحاطة بما علّمه الله له، دليل على قلّة علمه عَلَيْهِ السَّلَامُ قياسًا بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه ألّا يُعجب أحد فيما أوتي من العلم؛ إذ إن طائرًا صغيرًا من خلق الله قد أحاط علمًا بما لم يحط به نبيّ، وقد نقل الهدهد مشاهدته لملكة سبأ وما أوتيت من كلّ شيء، وبالنسبة لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان غيبًا، ففيه دليل على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب.

٦. إنّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عمد إلى الأدلة العقلية من أجل إقناع ملكة سبأ؛ لأنّ الدليل النقلي الذي يمتلكه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو النبوة ربما لا تقنع هؤلاء، ومن الأدلة العقلية سؤاله عَلَيْهِ السَّلَامُ إياها لما جاءت ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢]، مسألة عقلية تستدعي التأمّل والتفكر. وكذلك لما قيل لها أن تدخل الصرح حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، وأيقنت أن هذا لا يمكن أن يكون من صنع البشر، لا سيما أنها ملكة صاحبة بناء وحضارة وعمران،

وعندما علمت أنه صرح ممرّد من قوارير، أسلمت مع سليمان لله رب العالمين بالدليل العقلي لا بالتنزيل[١].

٧. تعظيم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبادة الله، يبرز ذلك في كثرة شكره لله وتوبته واستغفاره، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، وفي شكره قال: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]، وأثنى عليه بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

٨. أن اللهّ تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

٩. اعتناء اللهّ تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

١٠. أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن اللهّ تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن اللهّ يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

١١. إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وألا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده

(١) ينظر: داود وسليمان، أ.د عقيل حسين عقيل (ص٣٢١-٣٥٧).

المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال اللهّ تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

١٢. كثرة خير الله وبره بعبيده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بهاأن كل ما أشغل العبد عن اللهّ، فإنه مشؤوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له.

١٣. القاعدة المشهورة «**من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه**» فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

١٤. تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٥. كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ملكًا نبيًّا يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر اللهّ، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الحال أكمل[1].

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٧١-٧١٤).

المبحث السابع عشر

شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أرسل الله نبيه شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أهل مدين في أدنى فلسطين، ومدين اسم لقبيلة ومدينة تقع بالقرب من مدينة معان، في أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبًا من بحيرة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم قوم من العرب[١].

عبادة غير الله:

كان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارّة ويعبدون الأيكة؛ وهي شجرة من الأيك لها غيضة ملتفّة بها، والغيضة جمع الغياض وهي الشجر الملتف[٢]، وكانوا كذلك يبخسون المكيال والميزان ويطفّفون فيها ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الدعوة والبلاغ:

دعا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى عبادة الله وحده وترك ما سواه، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة؛ من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديد، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٨٤]، وقال أيضًا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٣٨٧)، البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ١٨٤).

(٢) لسان العرب، ابن منظور (٧/ ٢٠٢).

أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٧٧-١٨٠].

استنكر قومه دعوته قائلين: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٨٧-٩١].

أمر شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه أن يخلصوا العبادة لله، وترك الشرك، فقد كانوا بنعمة كثيرة، وصحة، وكثرة أموال وبنين، فدعاهم إلى شكر الله على ما أعطاهم، وذكرهم بأن كفر نعمة الله سبب زوالها، كما خوفهم بعذاب يحيط بهم، ولا يبقي منكم باقية.

وأمرهم بالعدل وعدم الإنقاص من أشياء الناس، بالسرقة والأخذ، ونقص المكيال والميزان، ونهاهم عن الإفساد في الأرض؛ فإن الاستمرار على المعاصي يفسد الدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

فقالوا له على وجه التهكم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾، والمعنى: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي لله، وتتعبد له، أفإن كنت كذلك،

أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك، ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟!

وكذلك لا يوجب نهيك ما قلت لنا، من وفاء الكيل، والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا، لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية، أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوون؟!!

فأخبرهم شعيب أنه على يقين وطمأنينة، في صحة ما جاء به، ومقصده الخير أن تصلح أحوالهم، وتستقيم منافعهم، وليس له من المقاصد الخاصة به وحده، ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ واعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه[1].

استمر شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دعوة قومه إلى العدل في البيع والشراء، وترك التطفيف وغش الناس وبخسهم حقوقهم، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٥، ٨٦].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٣٨٧-٣٨٨).

الهلاك:

استمر شعيب في دعوة قومه إلى الله، واستمروا في عنادهم وتجبرهم وإعراضهم فقالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود:٩١].

واتهموه بالسحر والكذب، ثم تحدوه بأن يأتي لهم بالعذاب، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٩١].

وقال أيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٠-٩٣].

فلما طال تماديهم في غيهم وضلالهم ولم يزدهم تذكير شعيب إياهم وتحذيره عذاب الله إياهم إلا تماديًا؛ استنصر شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه، فقال مناديًا ربه: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩]، واستجاب الله دعاءه، وأنزل عقابه على أهل مدين

فأهلكهم، وهذه عاقبة المكذبين، يقول الله عنهم: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر:٧٨، ٧٩]، وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، وقد أخبر الله عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم(١).

ذُكر أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلَّتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليسظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله عليهم ريحًا ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح، فأصبحوا في دارهم جاثمين، أي استؤصلوا كأن لم يقيموا بها، ونجى الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤]، ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومقرِّعًا، فقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣]، أي: قد أدَّيتُ ما كان واجبًا علي من البلاغ التام والنصح الكامل،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٤٣٣).

وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك؛ لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة[١].

ثانيًا- العبر من قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. إيضاح أنّ قطع السبيل من الأخلاق السيّئة؛ كاعتراضهم على من أتى شعيبًا يريد الإيمان به يخوّفونه ويشوّهون له سمعة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٨٦] أي: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون مَنْ أتى عليهم: أن شعيبًا كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم[٢].

٢. ضعف عقول قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبادتهم شجرة من دون الله، وهي الأيكة، ولذلك سُمُّوا بها، ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٧٦].

٣. سوء المعاملة يورث تفكك المجتمعات وانحلالها؛ لأنّ بخس المكيال والميزان والسعي في الأرض فسادًا، سبب العداوة والبغضاء بين الناس.

٤. لا حول للإنسان ولا قوة إلا بالتوكل على الله والإنابة إليه، فبهما تستقيم أموره، ولذا قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي لا بحولي ولا بقوتي، بل اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أعود وأرجع في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٣٧).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١٢/ ٥٥٧).

المبحث الثامن عشر

زكريـــا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهو أبو نبي الله يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو من ذرية سليمان بن داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، ويتصل نسبه بيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال الله تعالى: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٦].

والتفاصيل في دعوة زكريا قليلة جدًّا، ولكن مما ورد في الآيات يمكن القول بأنه كان نبيًا قبل ميلاد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائمًا بالعبادة ودعوة بني إسرائيل إلى العمل بالتوراة التي أنزلت على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و مجتهدًا في تقويم انحرافهم وإعادتهم إلى جادة الصواب ولزوم الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:١١].

كما كفل زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مريم ابنة عمران أم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتولى تربيتها بعد أن نذرت والدتها أن ما في بطنها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٧].

جعل الله كفالة مريم لزكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجعله أمينًا عليها، وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل، قام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ برعاية مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ

وقضاء حوائجها، وكان يتردد عليها في المحراب ليطمئن عليها وعلى أحوالها، لكنه كان يرى ما يدهشه، كان كلما دخل عليها وجد عندها من رزق الله فيضًا من فيوضاته، وكان هذا يثير تعجبه؛ فسألها: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ وتجيب مريم: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، أدرك زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن الرازق للشيء في غير أوانه، قادر على أن يرزقه ولدًا، وإن كان قد طعن في السن، وقد استشرفت نفسه لذلك، فدعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وكان الغرض نبيلًا، فقد كان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يخشى الموالي على تراث النبوة الذي ورثه من آبائه وأجداده، ومواليه هم بنو عمه ولم يكونوا ملتزمين بطاعة الله، فخاف ألا يحسنوا خلافته في أمته ويبدلوا عليهم دينهم[1].

فناجى ربه في ضراعة وخفية، بعيدًا عن أعين الناس، قال الله تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم:٢-٦].

واستجاب الله القدير لدعاء زكريا وناداه الحق: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم:٧-١١].

---

(١) ينظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٣٦٥).

وفي سياق آخر يقول الله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران:٣٩]، فبعد أن دعا زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه أن يرزقه ذرية طيبة، طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، استجاب الله له دعاءه، فبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة مخبرة أن الله يبشره بيحيى مصدقًا بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسيدًا يرجع إليه في الأمور، وحصورًا ممنوعًا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالًا بخدمة ربه وطاعته ونبيًّا من الصالحين.

وهي بلا شك بشارة عظيمة؛ أن يُرزق ولد بصفات عظيمة وبكونه نبيا من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه: كيف يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، وهو تحت مشيئته فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك استعجالًا لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة.

طلب زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ربه علامة على وجود الولد، فأخبره بأن العلامة أن ينحبس لسانك عن الكلام من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك على أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى

إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١] أي: أول النهار وآخره(١).

وفي سياق آخر لهذه القصة يقول تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩، ٩٠]، مشيرًا إلى شيء من أسباب الاستجابة لهم، وهو المسارعة في الخيرات وكثرة عبادتهم لله وخشوعهم له.

ثانيًا- العبر في قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. تعجب زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما رأى الفاكهة عند مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولذا بادر إلى دعاء الله بالذرية الطيبة؛ ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٧، ٣٨].

٢. من حفظ الله حفظه الله؛ فلما كان زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأهل بيته من المسارعين في الخيرات وذوي دعاء وخشوع لله، فإن الله حفظهم حال كبرهم ورزقهم ما تمنوا من الولد في معجزة إلهية مبهرة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص١٢٩-١٣٠).

٣. عناية زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدعوة بني إسرائيل بالتوراة التي أنزلت على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث كان يقوِّمُ ما اعوج فيهم، ويحثهم على طاعة الله وتسبيحه، قال الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:١١].

٤. تتجلى في قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شيء من كرم الله وسخائه وجوده وإحسانه ولطفه بعباده المخبتين المسبحين، يظهر ذلك أن وهب لعبده زكريا ولدًا على كبر سنه وعقم زوجته، ولم يكن ذلك الغلام أي غلام بل كان بمواصفات عالية فقد جعله الله من الأنبياء.

المبحث التاسع عشر

يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهو ابن خالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أوتي يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ الكتاب والحكمة في سن الصبا وهو لم يبلغ، قال سبحانه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم:١٢]، أي: خذ التوراة بقوة وجد واجتهاد، وآتاه الله الحكم وهو العلم النافع والعمل به، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهمًا صحيحًا، والعمل به حقًا.

ووصفه القرآن كذلك بأنه ذو تقوى وبر بوالديه، ولم يكن جبارًا عصيًا، قال الله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ [مريم:١٣، ١٤]، وصفه الله بالحنان: هو ما جبل عليه من الرحمة، والعطف والشفقة، وزكاه الله بطهارته من أدران الذنوب والمعاصي بالطاعة، فكان تقيًا ممتثلًا لأوامر ربه مجتنبًا كل ما نهى عنه، ولذا لم يعمل خطيئة قط، ولم يلم بها، وجعله كثير البر بوالديه، محسنًا إليهما، لطيفًا بهما، لين الجانب لهما، فلم يكن مستكبرًا عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان مطيعًا لله، متواضعًا لوالديه[1].

وأثنى الله عليه بقوله: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩]، أي: ممنوعًا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته[2].

---

(١) ينظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٣٧٨-٣٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص١٢٩).

وقد سلم الله عليه في ثلاثة مواطن أحوج ما يكون الإنسان فيها إلى السلامة، فقال سبحانه: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم:١٥]، والسلام هنا تحية من الله ليحيى، ومعناها: الأمان والسلامة، وإنما خص هذه الأوقات الثلاثة بالسلام التي هي وقت ولادته، ووقت موته، ووقت بعثه؛ لأنها أوحش من غيرها، قال سفيان بن عيينة: «أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فيها»[(١)].

تكاد تتلخص دعوة يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أسس ثلاثة: عبادة الله وحده لا شريك له، والاتصال الوثيق بالله سبحانه وبذكره على كل حال، وأداء العبادات الواجبة، كالصلاة والزكاة والصيام[(٢)].

ثانيًا- العبر في قصة يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في قصة يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر وفوائد منها:

١. شرف الله يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن سماه ولم يسم أحد قبله بهذا الإسم.
٢. الرحمة والطهارة من الذنوب، والخوف من الله وطاعته، بأداء الفرائض، واجتناب المحارم صفات ينبغي أن يتحلى بها المسلم.
٣. وجوب أخذ القرآن بجد وحزم قراءة وحفظًا وعملًا بما فيه.
٤. صدق قول أهل العلم: من حفظ القرآن في سن ما قبل البلوغ، فقد أوتي الحكم صبيًّا.
٥. وجوب البر بالوالدين ورحمتهما والحنان عليهما والتواضع لهما.

---

(١) ينظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٣٧٨-٣٨١).
(٢) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص٣٤٣-٣٤٤).

المبحث العشرون

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولًا- معالم دعوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي مرسل من أولي العزم من الرسل، هو آخر أنبياء بني إسرائيل، ورد ذكره في القرآن الكريم في سور عديدة منها: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، مريم، الزخرف، الصف، كما ذُكرت أمّه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ في سور منها: آل عمران، النساء، المائدة، التوبة، مريم، المؤمنون، الأحزاب، الزخرف، الحديد، الصف.

أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣١، ٣٢]، كما اصطفى الله أمه الطاهرة مريم البتول عَلَيْهَا السَّلَامُ، وأثنى عليها بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٢، ٤٣].

ذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن مرة باسم عيسى ومرة بكنيته «ابن مريم» ومرة باسم «المسيح» وهو في العبرية «يسوع».

كانت ولادته عَلَيْهِ السَّلَامُ آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ؛ فقد وُلد من غير أب، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠]، فولادته معجزة إلهية مبهرة وآية خالدة فوق مقاييس البشر وإمكاناتهم، ولذا لما تعجبت وتساءلت البتول كيف يأتي الولد من غير زوج، جاء الجواب بأنها

قدرة الخالق العظيم القدير، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧]، وفي سياق آخر يقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢٠، ٢١].

نشأ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما ينشأ البشر يجوع ويشبع، وينام ويستيقظ ويأكل الطعام، قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، ذكر الله حقيقة المسيح وأُمِّه، وأن غايته ومنتهى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

وأمه مريم كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، والصديقية هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا، وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبية، فإذا كان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين مع الله؟

وعبارة ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ تعبير قرآني جميل، وكناية لطيفة عما في البشرية من نقص، وما يترتب على أكل الطعام من الفضلات التي يتنزه عنها الإله الكامل في صفاته، وأنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد[1].

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ص٢٣٩).

الدعوة والبلاغ:

أيد الله نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمعجزات الباهرات، من ذلك ولادته من غير أب، وكلامه الناس في المهد وكهلًا، وتأييده بروح القدس، ولمّا رجعت مريم البتول بابنها عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى قومها استنكروا هذا الفعل واستعظموا نكارته، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧، ٢٨]، فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام، أشارت إلى وليدها الصغير أي كلموه: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩] فتكلم عيسى فقال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠].

أوحى اللهَّ تعالى إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين تم له ثلاثون سنة، فأمره أن يبرز للناس فيدعوهم إِلَى اللهَّ عَزَّوَجَلَّ، وكانوا أرباب أوثان، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

كانت أول كلمة قالها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في المهد إني عبدالله، وفي ذلك إبطال لزعم النصارى وكذبهم، في زعمهم أنه ابن الله، ودعاهم إلى عبادة الله وحدة مثبتًا لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق، محذرًا إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ أحدًا من المخلوقين، فعاقبته الخلود في النار[1].

استشرى الفساد والظلم والبعد عن الله في اليهود، وزاد تعلقهم بالمادة والحياة وبعدوا كثيرًا عن تعاليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخذ عيسى يدعوهم إلى عبادة الله ولزوم

(١) المرجع السابق (ص٢٣٩).

طريقه المستقيم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف:٦٣، ٦٤].

أنزل الله على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الإنجيل، وأمده بالمعجزات فكان يداوي المرضى، والزمنى، والعميان، والمجانين، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن اللهَّ، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، قال الله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٤٩].

أخبر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بني إسرائيل أن رسالته مبنية على رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومصدقة لها وممهد لرسالة لاحقة ومبشرة برسولها حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:٦].

استمر بنو إسرائيل في عنادهم وغيهم وعدم إيمانهم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١٥٥، ١٥٦]، وأخبر أنهم قد أتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا يأمرون وينهونهم فيجيبونهم ويخالفون أوامر الله ورسالته التي أنزلها على نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا

مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

الرفع إلى السماء:

استمر اليهود في العداء لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخذوا يصدون عن دعوته ويصرفون الناس عنها، و كادوا لعيسى واستصدروا حكما بصلبه، ولما جاءوا لأخذه ألقى الله الشبه على أحد أتباعه، ورفع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليه في معجزة إلهية أخرى، ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٥٧، ١٥٨]، يبين الله هنا مكر اليهود بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في محاولتهم قتله، وبين أن مكره بهم إلقاؤه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنهم ما قتلوهُ يقينًا، بل رفعهُ اللهُ إليه[١].

وسينزل عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مرة أخرى إلى الأرض، وعودته مرة أخرى علامة من علامات الساعة الكبرى قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**»[٢]، وكسره للصليب فيه إبطال للنصرانية وإظهار لكذب النصارى؛ حيث ادعوا أن اليهود صلبوا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على خشب[٣] ولذا فسيحكم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقت نزوله بشريعة الإسلام.

---

(١) ينظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (١/ ٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٦)، برقم (٢٤٧٦)، كتاب المظالم والغصب، باب كسر الصليب وقتل الخنزير.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني (١٢/ ٣٥).

تأليه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن النصارى قد غلوا في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غلوًّا عظيمًا، فقد ادعوا أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٨٨-٩٥].

وبين في آية أخرى أن اليهود والنصارى قد قالوا بذلك حيث قال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠].

ثانيًا- العبر من قصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في قصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ **عبر وفوائد منها:**

١. إعجاز خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير أب وكلامه في المهد، لتبرئته أمّه مريم من التهمة وإثبات نبوّته.

٢. إثبات أنّ لكل شيء سببًا والله تعالى هو المسبّب، فكلّ ما أراده الله كان ولو بأدنى الحيل، وكلّ ما لم يُرده لم يكن ولو بأدهى الحيل، لذا على الإنسان أن يبذل السبب، قال الله تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ

رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم:٢٣-٢٥]، طلب منها أن تبذل السبب وهي في غاية حالات الضعف بعد الولادة وقد قيل:

ألم تر أنّ الله أوحى لمريم وهزّي عليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّة ولكن كل شيء له سبب

كما أمر أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأخذ السبب وهو في حالة مرض شديد، حيث قال سبحانه: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ [ص:٤٢].

لذا لا بدّ من السعي في طلب الرزق، ولو أراد الله عَزَّوَجَلَّ لأنزل على مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ هذه الرطب دون أن تسعى لها، لذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ**»(١).

٣. من صفات اليهود: معاداة الأنبياء فهم الذين سعوا في قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصلبه، فتاريخهم مليء بجرائمهم من الكفر والقتل(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (٣/ ٥٧)، برقم: (٢٠٧٤)، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

(٢) ينظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري (١/ ٦٥٧).

أسئلة للمراجعة والاستذكار:

١. ما أهم معالم قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٢. ما أهم معالم قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٣. ما أهم معالم قصة هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٤. ما أهم معالم قصة صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٥. ما أهم معالم قصة ابراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٦. ما أهم معالم قصة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٧. ما أهم معالم قصة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٨. ما أهم معالم قصة إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
٩. ما أهم معالم قصة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٠. ما أهم معالم قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١١. ما أهم معالم قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٢. ما أهم معالم قصة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٣. ما أهم معالم قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٤. ما أهم معالم قصة إلياس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٥. ما أهم معالم قصة داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٦. ما أهم معالم قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟
١٧. ما أهم معالم قصة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟

١٨. ما أهم معالم قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟

١٩. ما أهم معالم قصة يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟

٢٠. ما أهم معالم قصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته؟ وما أهم الفوائد والعبر منها؟

٢١. أكتب مقالًا علميًّا في أحد الأنبياء الوارد ذكرهم في القرآن الكريم مع بيان أهم الدروس والعبر الواردة في قصته ودعوته.

الفصل الثاني

دعوة النبي المصطفى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وفيه مبحثان:

❁ المبحث الأول: الدعوة في العهد المكي وما فيها من عبر.

❁ المبحث الثاني: الدعوة في العهد المدني وما فيها من عبر.

مدخل

منَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على البشرية ببعث النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، انطبق الشرك عليها، متبعة لما وجدت عليه أسلافها من الآراء المنحرفة والمذاهب المبتدعة.

فالمتأمل في حال البشرية قبل بعثة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد أنها كانت على حالة من الفوضى والاضطراب، ووسط جملة من الانحرافات في مختلف المجالات، وذلك بسبب بُعد البشرية عن طريق الحق والصواب، واختفاء الدعوات الصافية التي كانت تقود البشرية نحو جادة الصواب، واتباعهم دعاة الضلال من شياطين الإنس والجن، وبالجملة فقد أطبق الشرك على تلك الحقبة من الزمن، ولفَّها ظلام الوثنية، حتى لم يبق من البشر على دين صحيح إلا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، يقول الله تعالى موضحًا ذلك الحال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢]، وببعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزاحت البشرية عن صدرها غمة الشرك والضلال، وحل النور عوض الضلال، وأنار الإيمان قلوب العباد، وانتشر الإسلام في أنحاء الأرض.

فقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة الناس إلى دين الله تعالى، وإيصال دعوة الإسلام العظيمة لهم وفق مراتب خمس: «الأولى: النبوة، والثانية: إنذار عشيرته الأقربين، والثالثة: إنذار قومه، والرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب

قاطبة، والخامسة: إنذار جميع من بلغتهم دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر»[١].

ومسيرة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهدت العديد من العقبات والصعاب، فتنوعت قريش في الإيذاء، وبالغت اليهود في الأذية، وهاجر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو وأصحابه إلى المدينة، فرارًا بدين الله تعالى، وما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد أن ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وبالجملة فإن الدعوة في عهدها النبوي، هي النموذج الأكمل والأسوة الحسنة والمنهج القويم إلى يوم الدين.

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، (١/ ٨٦).

المبحث الأول

الدعوة في العهد المكي وما فيها من عبر

أولًا- معالم الدعوة في العهد المكي:

حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة:

نسبه الشريف ومولده:

وُلِد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشرف بيت من بيوت العرب، فهو من أشرف فروع قريش، وهم بنو هاشم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سيد ولد آدم، واسمه: **مُحَمّدٌ، وأَحْمَدُ، وَالْمَاحِي الّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ، وَالْحَاشِرُ الّذِي يُحْشَرُ النّاسُ عَلَى قَدَمَيه، وَالْعَاقِبُ الّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيّ**(١).

فأما نسبه الشريف: فهو محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم بن عبد مناف، بن قصي بن كلاب، بن مرة بن كعب، بن لؤي بن غالب، بن فهر بن مالك، ابن النضر بن كنانة، بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، ابن عدنان(٢).

وُلد يوم الاثنين، في عام الفيل العام الذي أهلك الله أبرهة وجيشه لمّا أرادوا تخريب الكعبة.

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم (١/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، (٥/ ٤٤) برقم (٣٨٥١)، كتاب المناقب، باب مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تربيته ونشأته وشبابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نشأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتيمًا؛ فقد مات أبوه وهو حمل في بطن أمّه، وأمضى السنوات الأربع الأولى من طفولته في الصحراء في بني سعد، فنشأ قوي البنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، جريء البنان.

ولما بلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السادسة من عمره توفيت أمّه آمنة، فكفله جده عبد المطلب، والذي أولاه عناية خاصة، فتربّى في كنفه حتى بلغ الثامنة من عمره، ثمّ توفي، فتولى كفالته عمّه أبو طالب[1].

عاش الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحضان عمّه أبي طالب، وكان في أوائل شبابه يرعى الغنم لأهل مكة.

شبَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت رعاية الله، فحفظه من أمور الجاهلية وعاداتها السيئة، فلم يشارك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرانه في لهوهم وعبثهم، إذ لم يسجد لوثن ولم يشرب خمرًا ولم يلعب قمارًا، ولا عُرف عنه فحش في القول، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم من الفحش والأذى، حتى سماه قومه الأمين»[2]، واشتهر بينهم بحسن المعاملة، والوفاء بالوعد، واستقامة السيرة، وحسن السمعة.

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم (١/ ٧٠).

(٢) سيرة ابن كثير (١/ ٢٤٩).

سافر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرتين خارج مكة، أولاهما مع عمه أبي طالب حين كان عمره اثني عشرة سنة، وثانيتهما حين كان عمره خمسًا وعشرين سنة، متاجرًا لخديجة بمالها، وكانت كلتا الرحلتين إلى الشام، وفيهما شاهد علماء أهل الكتاب فيه علامات النبوة، فقد قال بحيرى الراهب لأبي طالب: ارجع بابن أخيك واحذر عليه من اليهود، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم، فقضى أبو طالب تجارته وأسرع به إلى مكة، وقال راهب آخر لميسرة غلام خديجة: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبي.

حكى ميسرة ما رآه من خصال وأخلاق حميدة، وما قاله الراهب في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخديجة فرغبت به زوجًا فتزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الجزيرة العربية قبل الإسلام:

ترك العرب دين أبيهم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابتعدوا عن الحنيفية دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وانتشرت بينهم عبادة الأصنام والأوثان، وعددوا فيها إلى حد يثير السخرية؛ حيث كان الواحد منهم في سفره يجمع أربعة أحجار، ثلاثة لقِدْرِه وواحدًا يعبده، وإن لم يجد حلب الشاة على كوم من تراب ثم عبده.

وقد أخبر الله عن حال العرب مع أصنامهم، فبين خطأهم وانحرافهم فقال سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

والخلاصة أن العرب كانت تؤمن بأنه لا يرزق إلا الله، ولا يحي إلا الله، ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، وأن جميع من في السماوات ومن فيهن والأرضين ومن فيهن عبيده وتحت تصرفه وقهره، ومع ذلك كانوا يشركون به ويدعون معه غيره، بل كانت الكعبة وهي بيت الله المعظم تحيط بها الأصنام من كل جانب(١).

كانت البشرية عمومًا إبَّان بعثة النبي محمد ﷺ قد انحرفت عن التوحيد واستشرى الفساد والظلم والطغيان في الأرض، وأصبحت بحاجة ماسة إلى منقذ لها من الضلالة إلى النور.

في هذا الجو القاتم والزمن المدلهم بُعث النبي المصطفى ﷺ.

البعثة والرسالة:

قبل نزول الوحي على النبي ﷺ وقعت عدة أحداث كانت بمثابة إرهاصات وعلامات للنبوة، من ذلك: تسليم الحجر: فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»(٢)، ومن ذلك الرؤيا الصادقة: فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ومن ذلك العزلة والخلوة حيث كان يقضي أياما في التأمل والتفكر في غار حراء.

---

(١) ينظر: نفحة عبير من سيرة البشير النذير ﷺ، د. يحيى بن ابراهيم اليحيى (ص١٦-٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٧/ ٥٨)، برقم (٢٢٧٧)، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه.

وبعدما بلغ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العمر أربعين عامًا، جاءه جبريل فنُبّئ بإقرأ وأُرسل بالمدثّر، في الحديث الصحيح عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: فرجع بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة.

وكان امرأً قد تَنَصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما أري، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك،

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو مخرجيّ هم؟**» فقال: نعم. لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي...»[(١)].

البدأ بالدعوة:

بدأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة إلى الله واستمر في ذلك ثلاث سنين غير جاهر بها مبتدئًا بأقاربه، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فكان أول من آمن به خديجة زوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم علي ابن عمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أبو بكر الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم زيد بن حارثة مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عثمان بن عفّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص. ثم أسلم أبو عُبيدة بن الجرّاح. فهؤلاء سبقوا الناس إلى الإسلام[(٢)].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشًا، فاجتمعوا فعم وخص، فقال: «**يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧)، برقم (٣)، كتاب الوحي، باب بدء الوحي.

(٢) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (ص٨٥-٨٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، (١/ ١٩٢)، برقم (٢٠٤)، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

الدعوة جهرًا:

كان نتيجة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أسلم عدد من الرجال والنساء، ثم نزل قول الله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]، فصدع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر الله، ونادى قومه إلى الإسلام، فلما فعل ذلك ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام.

دعا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومه إلى عبادة الله وحده وترك الشرك وعبادة الأوثان، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦]، وأخبرهم بضعف آلهتهم التي يعبدون فقال: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس:٧٤، ٧٥].

وذكرهم باليوم الآخر، والبعث والنشور، فجاءت آيات عديدة تتحدث عن يوم القيامة والجزاء والحساب، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة:١-٤]، وقال أيضًا: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة:١-٤].

ولما جاء أحدهم بعظم قديم وفتَّه بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستبعدًا عودة الحياة إليه مرة أخرى، جاءه الجواب: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٧-٧٩].

مقاومة قريش للدعوة:

إعلان التوحيد في مكة أزعج قريشًا، ورأوا فيها معتقدًا يهدد معتقداتهم الموروثة التي عشعشت في عقولهم، ويهدد مصالحهم العامة التي بنيت على تلك المعتقدات الباطلة، واستفادوا منها مركزًا بين القبائل العربية، فانتصب المشركون لعداوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقاومة دعوته وإلحاق الأذى به، فمضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه وانتشر خبره بين الناس وأكثرت قريش ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينها، وتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضًا عليه.

وثَبَتْ كل قبيلة من قريش على من فيها من مستضعفي المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب في دينه ويعصمه الله منهم.

ومنهم: بلال بن رباح الحبشي، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، يُلقى في الرمضاء على وجهه وظهره، ثم توضع الصخرة العظيمة فتلقى على صدره، ويقال له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فكان يقول: أحد أحد.

وممن نالهم الأذى: عمار بن ياسر، فكانوا يخرجون عمارا وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء، فمر بهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فقال: «**صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**»[١]، ومنهم: خباب بن الأرت، وصهيب بن سنان الرومي[٢].

ولم يسلم الرسول الكريم من الأذى، كذلك فقد لحق به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد أنواع الأذى فبُصق في وجهه الشريف، ووُضع على ظهره وهو ساجد فرث الجزور وسلاها ودمها، وضُرب وخُنق وهو يصلي، وسال دمه من جسده الشريف، وكانوا يسخرون و يستهزئون به، فاتهموه بالجنون، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ [الحجر:٦]، واتهموه بالسحر والكذب، قال سبحانه: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص:٤].

والمقصود أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجه من الأذى الشيء الكثير، ومع ذلك فقد صبر وجاهد واستمر يدعو إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، فيحضر مجامعهم ومحافلهم وفي المواسم، وفي الحج يبلغ الرسالة ويؤدي الأمانة ويعرض الدعوة.

استمرت قريش في تعذيب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فواجهوا أصنافًا من الضيم والظلم والإذلال، لم يكن يألفوها من قبل، ولذا جاء بعضهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالبين الإذن بالقتال فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلَّةً، فقال: «**إِنِّي أُمِرتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا، فَلَمَّا**

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٣)، برقم: (٥٦٩١)، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ذكر مناقب عمار بن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -إيذاء الكفار آل ياسر-، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير (٣/ ٦٦٣-٦٦٧).

حَوَّلَنَا اللهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَنَا بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] [النساء:٧٧].

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوجه أصحابه لتحمل أذى المشركين، بالاستعانة بالصلاة التي هي عنوان الصلة الدائمة بالله تعالى[2] قال تعالى:﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:١، ٢].

ولَمّا اشْتَدّ البَلَاءُ بأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ اللهُ سُبحَانَهُ لَهُم بِالهجرَةِ الأُولَى إِلَى أَرضِ الحَبَشَةِ، وَكَانوا اثنَي عَشَرَ رَجُلًا وَأَربَعَ نِسوَةٍ، ثم عادوا بعد أن سمعوا أن قريشًا قد كفت عن أذى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما عادوا وجدوا أن ذلك غير صحيح.

ثُمّ اشتَدّ البلاءُ من قُرَيشٍ على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولقُوا منهم أذًى شدِيدًا، فأذِنَ لهم رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخُرُوجِ إِلَى أَرضِ الحَبَشَةِ مَرّةً ثَانِيَةً، وَكَانَ خُرُوجُهُم الثّانِي أَشَقّ عليهِم وَأَصعَبَ، وَلَقُوا من قريشٍ تعنِيفًا شديدًا، ونالوهم بالأذى، وكان عِدّةُ من خرجَ في هذهِ المرّةِ ثلاثةً وثمانينَ رجلًا وتسعَ عشرةَ امرأةً.

بعثت قريش برسول إلى النجاشي وحملته بهدايَا وتُحَفٍ لِيَرُدّهُم عليهم فأبَى.

ثُمّ أسلم حمزةُ عَمّهُ، وجماعةٌ كثيرُونَ، وفشا الإِسلامُ، فَلَمّا رَأت قريشٌ أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلُو والأُمُورُ تَتَزَايَدُ؛ أَجْمَعُوا عَلَى أَن يَتَعَاقَدُوا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ

(١) أخرجه النسائي (١/ ٦٠٨)، برقم: (٣٠٨٦)، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٧/ ١٥٨)، برقم (٣٠٨٦).

(٢) ينظر: نفحة عبير من سيرة البشير النذير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، د. يحيى اليحيى (ص٤٤-٤٩).

وَبَنِي الْمُطّلِبِ وَبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْ لَا يُبَايِعُوهُمْ وَلَا يُنَاكِحُوهُمْ وَلَا يُكَلّمُوهُمْ وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، حَتّى يُسَلّمُوا إلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ صَحِيفَةً وَعَلّقُوهَا فِي سَقْفِ الْكَعْبَةِ، فَانْحَازَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطّلِبِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ إلّا أَبَا لَهَبٍ، فَإِنّهُ ظَاهَرَ قُرَيْشًا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطّلِبِ، وَحُبِسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ فِي الشّعْبِ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَعُلّقَتْ الصّحِيفَةُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَبَقُوا مَحْبُوسِينَ وَمَحْصُورِينَ مُضَيّقًا عَلَيْهِمْ مَقْطُوعًا عَنْهُمْ الْمِيرَةُ وَالمَادّةُ نَحْوَ ثَلَاثِ سِنِينَ، حَتّى بَلَغَهُمْ الْجَهْدُ، وَسُمِعَ أَصْوَاتُ صِبْيَانِهِمْ بِالْبُكَاءِ مِنْ وَرَاءِ الشّعْبِ.

ثُمّ أَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَى أَمْرِ صَحِيفَتِهِمْ، وَأَنّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهَا الْأَرَضَةَ فَأَكَلَتْ جَمِيعَ مَا فِيهَا مِنْ جَوْرٍ وَقَطِيعَةٍ وَظُلْمٍ إلّا ذِكْرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عَمّهُ فَخَرَجَ إلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ أَنّ ابْنَ أَخِيهِ قَدْ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا خَلّيْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا رَجَعْتُمْ عَنْ قَطِيعَتِنَا وَظُلْمِنَا، قَالُوا: قَدْ أَنْصَفْت، فَأَنْزَلُوا الصّحِيفَةَ، فَلَمّا رَأَوْا الْأَمْرَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ازْدَادُوا كُفْرًا إلَى كُفْرِهِمْ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الشّعْبِ[1].

توفيت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوفي كذلك عمه أبو طالب في عام واحد، فاجتمعت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصيبتان، فلزم بيته، وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به[2].

---

(١) ينظر: زاد المعاد، ابن القيم (٣/ ٢٠-٢٦).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي (٣/ ١١-١٢).

ثم وقعت معجزة الإسراء والمعراج، حيث أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السماوات العلا فرأى في السماء الدنيا آدم، ثم إلى الثانية فرأى عيسى ويحيى، ثم في الثالثة فرأى فيها يوسف، ثم إلى الرابعة فرأى فيها إدريس، ثم إلى الخامسة فرأى فيها هارون، ثم إلى السادسة فرأى فيها موسى، ثم إلى السابعة فرأى فيها إبراهيم، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم رفع إلى البيت المعمور[1]، ثم عاد إلى بيته في مكة تلك الليلة، وفي هذه الليلة المباركة والرحلة العظيمة المعجزة فرضت الصلوات الخمس.

بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ:

وفي العام التالي لاثنتي عشرة سنة من البعثة، وافى اثنا عشر رجلًا من الأنصار في الموسم، فاجتمعوا بالنبي ﷺ وبايعوه، فلما عادوا أرسل معهم مصعب ابن عمير رضي الله عنه إلى المدينة.

وفي العام الذي يليه حضر من الأنصار جماعة في موسم الحج، فاجتمعوا بالنبي ﷺ مستخفين، وكانوا سبعين رجلًا وامرأتين، وبايعوه على النصرة والتأييد، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأهليهم، وعادوا إلى المدينة بعد أن اختار منهم اثني عشر.

الهجرة إلى المدينة:

بدأ المسلمون بالهجرة إلى المدينة، ورأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، فعرفوا أن المسلمين قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة.

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب (ص١١٦-١١٧).

أراد الصديق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يهاجر للمدينة، فذهب يستأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطلب منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الانتظار ليترافقا سويًّا، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: «لَمْ أَعْقِل أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثم قالت: وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ، قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»[1].

عقدت قريش مؤتمرًا في دار الندوة للتفكير في منع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخروج من مكة أو القضاء عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأقل الخسائر، فقرّ رأيهم على قتله، وخوفًا من انتقام بني مناف من قتل أحد أفرادها؛ اتفقوا أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى جلدًا، ويجتمعوا على قتله، فيتفرق دمه في القبائل، ولا يقدر بنو مناف على حربهم جميعًا، وهكذا اجتمع الفتيان الموكلون بقتل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بابه ليلة الهجرة ينتظرون خروجه ليقتلوه.

طلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ينام في مكانه، وأمره إذا أصبح أن يرد الودائع التي كان أودعها كفار قريش عنده إلى أصحابها، وغادر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيته دون أن يشاهده الموكَّلون بقتله.

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه أبو بكر يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول لسنة ثلاث وخمسين من مولده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٥٩٣) رقم (٢٢٩٧)، كتاب الكفالة، بَاب جِوَارِ أَبِي بَكْرٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَقْدِهِ.

علمت قريش أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه قد غادرا مكة، فخرجوا يطلبونه في طريق مكة المعتاد، فلم يجدوه، فاتجهوا إلى طريق اليمن، حتى وصلوا عند فم (غار ثور) قال بعضهم: لعله وصاحبه في هذا الغار، فأجابه الآخرون: ألا ترى إلى فم الغار كيف نسجت عليه العنكبوت خيوطها، وعششت فيه الطيور، كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أقدامهم على فم الغار فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم لقدميه لرآنا فيجيبه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

ثانيًا - العبر في العهد المكي:

في العهد المكي من بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هجرته إلى المدينة عبر وفوائد، منها:

١. لم يكن رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستشرفًا للنبوة، ولم يحلم بها، وإنما ألهمه الله الخلوة للعبادة تطهيرًا، وإعدادًا لتحمُّل أعباء الرسالة، ولو كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يستشرف للنبوة؛ لما فزع من نزول الوحي عليه.
٢. الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيرًا من الصعاب لزوجها الداعية، إذا شاركته في همومه وآلامه، وبذلك تخفف عنه عبء هذه الهموم، والموقف الكبير للسيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المثل الأعلى لما تستطيع الزوجة المؤمنة بدعوة الخير أن تقدمه في نجاح زوجها الداعية[1].
٣. أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة وتبليغ ما أنزل إليه فبدأ بمن يثق به سرًّا، ومكث على هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث سنين، مسرًّا بالدعوة منذ أرسله الله حتى بدأ قومه بالدعوة، حين أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة والصدع بها.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي (ص٥٦).

٤. لسرية الدعوة حكم ودروس وعظات منها: التخفيف على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا يواجه العدو وحده من أول يوم مع فقدان الناصر، واستطاع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الفترة أن يستقطب أنصارًا للدعوة، تمكن من تربيتهم والعناية بهم، فكانوا خير عون وسند له بعد الهجرة.

٥. الإسرار بالدعوة أمر مرحلي واستثنائي لظروف وملابسات خاصة، هي ظروف بداية الدعوة، وعلى هذا فإن الإسرار بالدعوة كلها بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخالف للأصل الثابت المستقر، فلا يجوز اللجوء إليه إلا عند الضرورة، أما الإسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات، فهو أمر مصلحي خاضع للنظر والاجتهاد؛ إذ لا يترتب عليه كتمان للدين ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان وإبلاغ، ولهذا فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بعد أن صدع بالدعوة وأنذر الناس وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي، ومن أمثلة ذلك قصة الهجرة.

٦. الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون سرية يخاطب فيها الفرد بعد الآخر، وإنما جاءت نذارة للعالمين وبشارة للخلق أجمعين؛ لإخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد أنزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بعد محصور في مكة وقريش تكيد له وتعاديه، أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن الدعوة الإسلامية ليست خاصة بقريش ولا بالعرب، وإنما هي رحمة من الله لجميع الخلق، فلابد من الجهر بها، وإعلانها للناس.

٧. بداية الأقربين بالدعوة حتى لا يكونوا حجة للأبعدين، والحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وهم أولى بالبر والخير بالنسبة للداعي من غيرهم؛ لما في ذلك من صلة الرحم، كما أن النتيجة القريبة المباشرة للجهر بالدعوة هي الصد والإعراض والتكذيب والإيذاء والسخرية، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد وطن نفسه على ذلك كله، ويعرف تلك النتيجة مسبقًا، ولكن ليست هذه هي كل النتيجة، فما بعدها هو المطلوب والمقصود.

٨. إن الجهر بالدعوة ينقلها من مكان مغلق إلى الهواء الطلق والميدان الرحب، وممن سيساهم في نقل الدعوة هم أعداؤها عن طريق التحذير منها، والناس ليسوا كلهم تقليديين إمعات يتبعون كل ما تقوله قريش.

٩. مدى الجهد والكيد الذي بذلته قريش في محاربة الدعوة وصاحبها على المستوى الفردي والجماعي.

١٠. ثقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنصر الله له جعلته لا ييأس ولا يمل، ويدأب في الدعوة وعرضها على القبائل والأفراد في جميع المواسم، وعلى كل المستويات، فصبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مشاق الدعوة وعوائقها وتبعتها، فلم يضعفه موقف سخرية، ولم يحبط همته استهزاء، ولذا فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتتبع الناس في منازلهم وأسواقهم عشر سنين، وهذا يكشف لنا مدى الجهد والتعب الذي بذله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته ومدى صبره ومواصلته للعمل، وعدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم.

١١. كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما يعرض على القبائل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لأنها أساس الإسلام.

١٢. لا يستوحش من الحق لقلة السالكين، وهذا الدين سيمكن في الأرض ولو بعد حين، فقد بقي النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة يطارد ويحارب بمكة، فلم يتطرق إلى نفسه اليأس من الانتصار، وجاء نصر الله مسوقًا إليه من أهل المدينة، فالاضطهاد والملاحقة لا تُثني الداعي عن دعوته، ولا تمنع من استجابة الناس له.

١٣. لقد أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة، ولم يختر صاحبًا له في الهجرة غير أبي بكر رضي الله عنه، وفي هذا دلالة على عظم الصلة وقوة الرابطة بينه وبين الرسول ﷺ، وفيه كذلك منزلة أبي بكر من ﷺ وصلته الوثيقة به، ومعايشته لأمر الدعوة منذ بزوغ فجرها، فقد كان عليه الصلاة والسلام يزوره كل يوم مرتين.

١٤. إن أمن الدين هو الأصل عند المسلم، فإن وجد عليه خطرًا دفع بلده وماله وأهله حماية لدينه، ولهذا خرج أبو بكر مهاجرًا وحده تاركًا كل شيء خلف ظهره، يطلب الأمان لدينه ودعوته.

١٥. مقابلة التخطيط بالتخطيط، والتنظيم بالتنظيم، والترتيب بالترتيب فقريش تخطط وترتب للإيقاع بالدعوة، بينما الرسول ﷺ يخطط ويرتب للنجاة بها، ولا يتعارض التخطيط وأخذ الحيطة مع التوكل على الله تعالى؛ لأن الأخذ بالأسباب جزء من العبادة.

١٦. وإن من أعظم مظاهر التضحية في هذه الهجرة: أن يغادر النبي ﷺ والمؤمنون هذا البلد الأمين الحبيب إلى قلوبهم -بل إلى قلوب المسلمين جميعًا- مغادرة يعلمون أن لا استقرار لهم فيه بعدها، وهذا من أشق الأمور على النفس، ولكن رجال العقيدة يرخصون في سبيلها كل غال[1].

(١) ينظر: نفحة عبير من سيرة البشير النذير ﷺ، د. يحيى إبراهيم اليحيى (ص٣٢-٥٢).

المبحث الثاني

الدعوة في العهد المدني وما فيها من عبر

أولًا- معالم الدعوة في العهد المدني:

وصل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، فقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببناء المجتمع في المدينة على عدة دعائم أهمها ما يأتي:

أولًا: بناء مسجده بالمدينة: فكان أول عمل قام به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة بناء مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يشارك في بنائه بحمل الحجارة.

ثانيًا: المؤاخاة: آخى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، وذلك لتخفيف الغربة على المهاجرين، وتوثيق العلاقة بين أفراد المجتمع المدني، فقد ترك المهاجرون بيوتهم وأموالهم في مكة من أجل الله ورسوله، ولذا قد تنافس الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في إيواء إخوانهم المهاجرين، وقد ضرب الأنصار أروع المثل في إكرام إخوانهم المهاجرين، بل في إيثارهم على أنفسهم،كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

طلب الأنصار من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقسم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين نخيلهم، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قالت الأنصار للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقسم بيننا وبينهم النخل، قال: لا، فقالوا: تكفوننا المئونة ونشرككم في التمر، قالوا سمعنا وأطعنا»(١).

(١) أخرجه البخاري، (٦/ ٤٣) رقم (٢٣٢٥)، كتاب الحرث والزراعة، بَاب إِذَا قَالَ اكْفِنِي مَئُونَةَ النَّخْلِ وَغَيْرِهِ وَتُشْرِكُنِي فِي الثَّمَرِ.

ثالثًا: المعاهدة مع اليهود:

كان يهود المدينة يهددون الأوس والخزرج بخروج نبي سيتبعه اليهود ويقتلونهم، ولذا لما علمت يهود بخروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه ليس منهم؛ حسدوا العرب أن بُعث فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكذبوه وعادوه، مع معرفتهم التامة بصدقه، ووضوح علامات النبوة التي يجدونها في التوراة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

قام النبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتابة وثيقة تنظم الأمور في المدينة بين سكانها من المسلمين وغيرهم وفي مقدمتهم اليهود، وكان من نتائج تلك الأعمال: أن تنظمت الأمور في المدينة، وقويت شوكة الإسلام فيها، وآل الأمر في المدينة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومما ورد في الصحيفة: «أنه من تبعه من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم، فإنه لا يوتغ -أي لا يهلك- إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا

بإذن محمد، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم»[١].

بتلك الصحيفة التزم اليهود بدفع قسط من المال في الحروب دفاعًا عن المدينة، وأن المجرم ينال جزاءه من أي فريق كان، وأن اليهود لا يخرجون من المدينة إلا بإذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتبرت المعاهدة أن المدينة حرم والحرم لا يحل انتهاكه، والمرجع الوحيد عند التحاكم هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنعت الصحيفة من إجارة قريش أو نصرها.

وعلى الرغم من هذه المعاهدة ووضوح بنودها، وتحقيقها حياة آمنة مطمئنة لليهود في المدينة، إلا أن اليهود ما انفكوا عن الكيد للإسلام وأهله، ومحاولة طرح الشبه للتشكيك في نبوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قام اليهود بتدبير المؤامرات والكيد للمسلمين في كل فرصة ينتهزونها، فمرة يثيرون العداوة بين المسلمين ويذكرونهم بثأراتهم الماضية حتى كاد الأوس والخزرج أن يقتتلوا، وتارة يهددون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جمعهم في سوق بني قينقاع ورأى ما بهم من الشر والنوايا الفاسدة في نقض المعاهدة -بعد ما شرقوا بانتصار المسلمين في بدر- فوعظهم وذكرهم فقالوا له: يا محمد لا يغرنك نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا.

كما دعوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالموت كلما لقوه قائلين: السام عليك، وقام رجل منهم يقال له: لبيد الأعصم بعمل السحر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحرشوا بامرأة مسلمة في سوقهم وكشفوا سوأتها.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ١٤٧-١٥٠).

ثم قاموا بتحريض قريش على غزو المدينة، وقاموا بتنظيم عملية اغتيال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجندوا شعراءهم للتشبيب بنساء المسلمين والتغزل بهن.

فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم سلكوا طريق القوة في مقاومتهم للمسلمين واستنصار الأعداء عليهم والتهديد السافر للمسلمين؛ أجلى من نقض العهد منهم كبني قينقاع وبني النضير بموجب المعاهدة بينهم.

ثم حزبوا الأحزاب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاموا بنفير عام وتجميع لجميع قوات القبائل لغزو المدينة في السنة الخامسة، ثم غدروا بالمسلمين وحاولوا ضرب جيشهم من الخلف في أحرج الظروف، وفي تلك الساعات الرهيبة الحاسمة التي كان فيها مصير كل الكيان الإسلامي في خطر في جميع التقديرات العسكرية، فأصبح المسلمون بين فكي كماشة، وقد قام يهود بني قريظة بهذه الخيانة العظمى بالرغم من أن هؤلاء لم يروا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلا الصدق والوفاء.

لقد كشفت الأحداث أن اليهود خلال أربع سنوات ما قبلوا تلك المعاهدة إلا مكرًا وخداعًا، وأنهم اتخذوا تلك المعاهدة ستارا ينفذون من خلالها مخططاتهم وأنهم كلما سنحت لهم فرصة خالفوا تلك المعاهدة وشرعوا في تسديد ضرباتهم ضد الإسلام والمسلمين[1].

الدعوة في المدينة:

قويت شوكة الإسلام، فواجه قريشًا في غزوة بدر وهزمهم، فقتل سبعين من علية قريش وسادتهم الذين كادوا له ووقفوا ضد الدعوة وصاحبها، ثم كانت غزوة أحد فانتصر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قريش فيها في أول المعركة، ولما خالف

(١) ينظر: نفحة عبير من سيرة البشير النذير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، د. يحيى إبراهيم اليحيى (ص٧٩-٨٣).

الرماة أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُزموا وانتصرت قريش، ثم كانت غزوة الخندق فهزم الله الأحزاب بالملائكة والريح، ثم تتابعت الغزوات والسرايا فكانت الحديبية ثم خيبر، إلى أن جاء فتح مكة فدخلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواضعًا لربه قد طأطأ وشنق لناقته الزمام، مع أنه كان معه عشرة آلاف مقاتل، واستسلمت قريش وعفا عنهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عالمية الدعوة:

بعد صلح الحديبية أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسائل وكتبًا إلى الزعماء والقياصرة في زمانه يدعوهم فيها إلى الإسلام ومن بين تلكم الرسائل:

- كتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي:

فقد كتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا إلى النجاشي جاء فيه: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران:٦٤]، فآمن ومن كان عنده.

- كتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كسرى:

وكتب إلى كسرى عظيم الفرس مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمزقوا كل ممزق.

- كتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قيصر:

وكتب إلى هرقل عظيم الروم مع دحية بن خليفة الكلبي يدعوه إلى الإسلام جاء فيه: (**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم**

الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

- كتابه ﷺ إلى المقوقس:

وبعث رسول الله ﷺ كتابه إلى المقوقس عظيم القبط، مع حاطب بن أبي بلتعة، فلم يسلم وأهدى إلى النبي ﷺ مارية وأختها سيرين وقَيسرَى[1].

أخلاق النبي ﷺ:

كان رسول الله ﷺ على خلق عظيم، فقد وصفه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، فقد كان ﷺ حكيمًا رحيمًا رفيقا لينًا كثير التبسم، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وكان ﷺ يربي أصحابه ويوجههم بالرفق واللين وحسن التعامل، فكان يؤاكل أصحابه، فربما حضر الطعام معه الأعرابي حديث عهد بالإسلام، أو الغلام والجارية ممن لا يعرف آداب الطعام والشراب، فيأخذ ﷺ بأيديهم ويعلمهم ويربيهم، وأحيانًا يأتيه الأعرابي الجافي فيغلظ لرسول الله ﷺ القول، وربما يستطيل بيده على طبيعة الأعراب من العنف والجفاء، فيبتسم له رسول الله ﷺ، ويجيبه إلى طلبه بحسن خلق وسمو معاملة.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة، د. مهدي رزق الله أحمد (ص٥١٤-٥٢٠).

وقد بلغ من رأفته ورحمته أن يصعد الصبي على ظهره وهو ساجد يصلي بالناس، فيطيل السجود كراهة أن يعجل الصبي، بل إن رأفته ورحمته بالناس حملته على تخفيف الصلاة بسبب بكاء الصبي مراعاة لحال أمه، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يداعب أصحابه ويلاعب أطفالهم، وربما لحقه الأطفال فأركبهم معه على بغلته، أما خدمه ومواليه فلم يكن يكلفهم من العمل ما لا يطيقون.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبرز للناس كلهم ويبايع الوفود بنفسه ولا ينيب عنه أحدًا من أصحابه.

وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وفي السنة العاشرة حج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس وبعد رجوعه من الحج، وفي شهر ربيع الأول بدأ به المرض بأبي هو وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم اشتد وجعه حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

ثانيًا- العبر في العهد المدني:

في العهد المدني من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة إلى حين وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبر وفوائد منها:

١. أهمية المسجد في الإسلام، فقد كان من أول الأعمال التي قام بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين وصل المدينة.
٢. عناية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتقوية الروابط الإيمانية في المجتمع من خلال نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
٣. ظهر فضل الأنصار وطيب أخلاقهم وسماحتهم وكرمهم وإيثارهم؛ حيث شاركوا إخوانهم المهاجرين أموالهم ومساكنهم، ولذا فقد استحقوا ثناء الله

عليهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

٤. نزل في المدينة أكثر أحكام الإسلام وتشريعاته، خاصة فيما يتعلق بالجهاد والصوم والحجاب وشرب الخمر والحج وغيرها.

٥. كانت المرحلة المدنية مرحلة جهاد وفتح وقتال، وقد واجهت الدعوة الإسلامية تهديدات كبيرة، إلا أن النصر والظفر كان لحزب الإيمان.

٦. أظهرت المرحلة المدنية من الدعوة عداوة اليهود للإسلام والنبي محمد ﷺ ومكرهم وخداعهم وحقدهم عليه، وحسدهم له أن آتاه الله النبوة، ولذا فقد تآمروا عليه وكادوا له وغدروا به، مع علمهم بصحة نبوته وأنه مذكور في كتبهم.

٧. عناية النبي ﷺ بالشورى خاصة في المسائل الحرجة، كما حصل في غزوة بدر الكبرى، وغزوة أحد، والأحزاب، وغيرها من المواقف، وتأكيده ﷺ على هذا المبدأ لأهل الحل والعقد وعامة المسلمين.

٨. تعريف المؤمنين بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم يوم أحد ويوم حنين، كان بسبب مخالفة توجيهات الرسول الكريم ﷺ.

٩. إن حكمة الله وسنته في رسله، وأتباعهم، جرت بأن يداولوا مرة ويداول عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة.

١٠. ميزت المحن التي واجهها المسلمون في هذه المرحلة بين المؤمن والمنافق الذي دخل الإسلام ظاهرًا بعد انتصار المسلمين ببدر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ

ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

١١. أن الإسلام دين عالمي، لذا كان واجب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبلاغ الدعوة إلى كل من يعرف من الناس، وبكل الوسائل المتاحة في ذلك الزمان.

١٢. إن رفض بعض الحكام لدعوة الإسلام نابع من حبهم لسلطتهم وتكبرهم وتجبرهم، وليس لعدم قناعتهم بالإسلام(١).

١٣. أجواء الصلح العادل أجواء آمنة ومناسبة لنشر الإسلام، والجو الآمن مناخ الحضارات، وقد حقق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المناخ للجميع حتى الطيور والشجر.

١٤. كتابة الوثائق والمعاهدات مظهر من مظاهر القوة، ولذا تبرز أهمية كتابة المعاهدات بين الناس خاصة في المجتمعات المختلطة، ولا يكفي الكلام الشفوي إذ لا يفيد في المعاهدات إلا الكتابة.

١٥. رغم المحبة بين المهاجرين والأنصار إلا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب بينهم كتابًا، وحين يغفل الناس عن توثيق المعاملات بينهم وقع كثير من الشقاق والخلاف.

(١) ينظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة، د. مهدي رزق الله أحمد (ص٥٢٤).

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. ما أهم معالم دعوة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العهد المكي؟
٢. ما أهم الفوائد والعبر في دعوة النبي الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العهد المكي؟
٣. ما أهم معالم دعوة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العهد المدني؟
٤. ما أهم الفوائد والعبر في دعوة النبي الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العهد المدني؟

الفصل الثالث

تاريخ الدعوة
في عهد الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأَول: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ في عهدِ أَبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- المبحث الثاني: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ في عهدِ عمر بن الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- المبحث الثالث: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ في عهدِ عثمانَ بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- المبحث الرابع: أَهم ملامحِ الدعوةِ في عهد عِلي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مدخل

توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تاركًا أمته على المحجة البيضاء، بعد أن أدَّى الأمانة ونصح الأمة، وأدى واجب البلاغ كما أمره ربه، تاركًا مشعل الدعوة في أيدي من قال فيهم: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقرن سنة خلفائه بسنته، وأمر باتباعها كما أمر باتباع سنته، وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأن يعض عليها بالنواجذ، وهذا يتناول ما أفتوا به وسنوه للأمة، وإن لم يتقدم من نبيهم فيه شيء، وإلا كان ذلك سنته، ويتناول ما أفتى به جميعهم أو أكثرهم أو بعضهم؛ لأنه علق ذلك بما سنه الخلفاء الراشدون، ومعلوم أنهم لم يسنوا ذلك في آن واحد، فعلم أن ما سنه كل واحد منهم في وقته؛ فهو من سنة الخلفاء الراشدين»(٢).

وقد امتدت الخلافة الراشدة ثلاثون عامًا، من وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة العاشرة للهجرة، إلى مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام ٤٠ هـ، جاء في الحديث: «**خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ الْمُلْكَ أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**»(٣)،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، (٤/ ٢٠٠)، برقم: (٤٦٠٧)، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، وابن ماجه في سننه، (١/ ١٦)، برقم: (٤٣)، كتاب الإيمان و فضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٢٥٦) برقم: (٢٧٣٥).

(٢) إعلام الموقعين، محمد بن قيم الجوزية (٤/ ١٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، (٤/ ٢١١)، برقم: (٤٦٤٦)، كتاب السنة، باب في الخلفاء، والترمذي في سننه، (٤/ ٥٠٣)، برقم: (٢٢٢٦)، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، وقال: هذا حديث حسن قد رواه غير واحد، وصححه الألباني في السلسلة (١/ ٨٢١)، برقم: (٤٥٩).

فقد بُويع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت خلافته عامين وثلاثة أشهر وثمانية أيام، ثم خلفه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطالت خلافته عشر سنين وستة أشهر ونصف الشهر، ثم خلفه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودامت خلافته اثني عشر عامًا سوى عشرة أيام، تلاه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافة استمرت خمس سنوات تقريبًا.

وقد امتاز عهد الخلفاء الراشدين بأنه امتداد واستمرار لعهد النبوة، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرثه أحد في زعامته الدينية أو في مقامه الروحي، وإنما هو موروث بالعلماء من أمته، «ولقد أدرك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذلك، فحرصوا على الجماعة والإجماع، وقاموا بعبء الدعوة الإسلامية، فطبقوا الأحكام الإسلامية كاملة في الداخل، وأقاموا حياة إسلامية شرحت صدر الشعوب للإسلام، فتسارعت إليه واندمجت وامتزجت بالمسلمين، وحملوا الدعوة إلى الخارج عن طريق الجهاد، وكلما زال سد أو حاجز من وجه الدعوة؛ انطلق العلماء والدعاة يفتحون القلوب والعقول للإسلام، فاتسعت الدولة وكثر عدد المسلمين»[1].

وكان العدل في جميع مجالاته سمة مشتركة في عهد الخلفاء الراشدين؛ إذ هو أحد أهم قواعد الحكومة الإسلامية، وأهم مميزات النظام الإسلامي، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٨٥].

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين، جميل المصري (ص٤١٦-٤١٧).

ولا نعلم حكومة في تاريخ العالم التزمت بالعدل بالقدر الذي ظهر في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين، فقد كان قصد أولئك الخلفاء وهدفهم: المحافظة التامة على تراث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصورة التي تركه بها، فكان شأنهم الأول ومهمتهم الأولى؛ العقيدة الإسلامية، وتبليغ الدعوة، والتزموا بالمسؤولية كاملة، فكان نتيجة ذلك؛ انتشار الإسلام وشيوعه بين الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم(١).

ولم يكن طريق الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين معبدًا ومريحًا، بل كان مليئًا بالمتاعب والعقبات، جعلت الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يهتمون بها؛ دفاعًا عن دين الله تعالى ونصرة للدعوة الإسلامية، فكان الجهاد في سبيل الله وإعلان كلمة التوحيد أهم ملامح هذه الفترة، إضافة إلى القضاء على كثير من الفتن الداخلية التي شغلت المسلمين حينها، أبانوا فيها عن فقه التعامل مع النوازل؛ كجمع القرآن الكريم خشية الضياع في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجمعه في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توحيدًا للمصاحف.

(١) المرجع السابق (ص٤٢١).

المبحث الأول

أهم ملامح الدعوة في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]

رجل الأمة وخليفة المسلمين بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، وغيرها من معارك المسلمين، ولم يفارق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا في حضر ولا سفر، قال عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ**»[٢]، تولى الخلافة بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحفظ الله به الدين بثباته في فتنة أهل الردة ومانعي الزكاة.

وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة؛ منها قصته ليلة الإسراء، وثباته، وجوابه للكفار في ذلك، وهجرته مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وملازمته في الغار وسائر الطريق ثم ثباته يوم وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخطبته الناس وتسكينهم، ثم قيامه في قضية البيعة لمصلحة المسلمين، ثم اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة ابن زيد إلى الشام وتصميمه في ذلك، ثم قتاله لأهل الردة ومناظرته للصحابة حتى حاجَّهم بالدلائل، وقيامه بالجهاد لتحقيق الفتوحات إعلانًا لكلمة التوحيد.

---

(١) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن القرشي التميمي، كان مولده بمكة المكرمة في العام الثالث للفيل بعد ميلاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسنتين وأشهر، وأمه سلمى بنت صخر أسلمت مبكرًا، وكنيته أبو بكر، وهو صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار وفي الهجرة، والخليفة بعده. ينظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (٣/ ٦٩٣).

(٢) أخرجه البخاري، (١/ ١٠٠)، برقم: (٤٦٦)، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد.

إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما سمع أبو بكر بالإسلام ذهب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسأله: «أحق ما تقول قريش يا محمد؟ من تركك آلهتنا، وتسفيه عقولنا وتكفيرك آبائنا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يا أبا بكر، إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فو الله إنه للحق، أدعوك إلى الله يا أبا بكر، وحده لا شريك له، ولا يعبد غيره، والموالاة على طاعته**، وقرأ عليه القرآن، فلم يفر، ولم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق[(١)].

وفي إسلامه يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معلقًا: «**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر ما عتم حين ذكرته له، وما تردد فيه**»[(٢)].

فأدخل إسلامه السرور على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فلما فرغ كلامه -أي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أسْلم أبو بكر، فانطلق عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورًا منه بإسلام أبي بكر»[(٣)].

مواقفه الحكيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حزن المسلمون حزنًا عظيمًا لوفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف لا وهو النور الذي عاش بينهم، يتمتعون بالنظر إليه، ويجالسونه ويتعلمون منه، والسكينة والطمأنينة

(١) سيرة ابن إسحاق (١/ ١٣٩).
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٣-٣٧).
(٣) المرجع السابق، (٤٣٩).

تحفهم، حتى تحوَّل ذلك النور إلى ظلام أظلم الدنيا على الصحابة الكرام، فلم يصدقوا خبر وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوقع الخبر عليهم وقع الصواعق، وارتجت المدينة، وزلزلت القلوب، ويصف أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك الحال بقوله: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَيْدِي، وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا»(١).

وكان للصحابة في هذا اليوم مواقف تدل على عظم تأثرهم بوفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «واضطربت الحال؛ فكان موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاصمة الظهر، ومصيبة العمر، فأمَّا علي فاستخفى في بيته مع فاطمة، وأما عثمان فسكت، وأما عمر فأهجر وقال: «ما مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما وعده الله كما وعد موسى، وليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي ناس وأرجلهم وتعلق بال العباس وعلي بأمر أنفسهما»(٢).

وبينما هم كذلك إذ جاء أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السنح - منطقة خارج المدينة - بعد أن وصله النبأ هناك، أقبل على فرسه، ونزل عند مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يكلم الناس، ودخل المسجد، ومنه دخل إلى بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

---

(١) أخرجه الترمذي، (٦ / ١٣) برقم: (٣٦١٨)، أبواب المناقب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب. وابن ماجه في سننه (٢/ ٥٥٣) برقم: (١٦٣١)، أبواب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال الترمذي في صحيح مختصر الشمائل: صحيح، (١٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٤/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٧١)، برقم: (١٢٤١)، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت.

حيث مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدرها، فتوجه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مغطى بثوب، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: «بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها»، ثم خرج في ثبات عجيب، فوجد عمر يتكلم مع الناس والناس ملتفون حوله يتمنون أن لو كان كلامه حقًا، وأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيعود ثانية كما يقول، قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اجلس يا عمر!»، لكن عمر قد أذهلته المصيبة، فلم يسمع الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له فلم يجلس، وظل على حاله، لكن الناس كانوا قد وجدوا وزير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأول أبا بكر، فتركوا عمر والتفوا حول الصديق ينتظرون ما يقول، فقال الصديق في فهم عميق وحكمة بالغة: « ألا من كان يعبد محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فوصلت الآية إلى أسماع عمر بن الخطاب فقال: «وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ»[(١)].

وهكذا ثبَّت الله الأمة جميعًا بثبات الصديق، فاستطاع أن يُحافظ على الكيان الإسلامي وأن يوحد المجتمع المسلم، بقدرته الكبيرة على امتصاص الصدمة

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٤) برقم: (٤٤٥٤)، كتاب المغازي ، باب مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، وينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٨/ ٧٨)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٦٢٦).

من أنفس المسلمين في هذا الحدث الجلل، فاستحق من البداية أن يكون خليفة للمسلمين بهذا الموقف العظيم، وهذه واحد من أعظم حسناته.

وفي دار السقيفة بويع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإجماع الصحابة، وبدون منازع، أخرج الحاكم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ، وَقَدْ رَأَى الصَّحَابَةُ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَخْلِفُوا أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»(١).

أهم ملامح الدعوة في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عمل الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ما في وسعه من أجل الحفاظ على ثوابت الدين، وحفظه من أي نقصان أو زيادة يعطلان أو ينقصان من أصوله وأحكامه، كما سعى في الحفاظ على الكيان الإسلامي، متأسيًا في ذلك بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وظهر ذلك عمليًّا من خلال الملامح الدعوية الآتية:

أولًا: تسيير بعث أسامة:

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفاته أمَّر أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جيش وهيأهم لغزو الروم، وأمر قائدهم بالإسراع في الغزو قائلًا له: «يَا أُسَامَةُ، سِرْ عَلَى اسْمِ اللهِ وَبَرَكَتِهِ حَتّى تَنْتَهِيَ إِلَى مَقْتَلِ أَبِيك، فَأَوْطِئْهُمْ الْخَيْلَ، فَقَدْ وَلّيْتُك عَلَى هَذَا الْجَيْشِ، فَأَغِرْ صَبَاحًا عَلَى أَهْلِ أُبْنَى وَحَرّقْ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرِعْ السّيْرَ تَسْبِقْ الْخَبَرَ، فَإِنْ أَظْفَرَك اللهُ فَأَقْلِلْ اللّبْثَ فِيهِمْ، وَخُذْ مَعَك الْأَدِلّاءَ، وَقَدّمْ الْعُيُونَ أَمَامَك وَالطّلَائِعَ»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم، (٣/ ٧٨) برقم: (٤٤٩١)، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، يتجلى الله لعباده في الآخرة عامة ولأبي بكر خاصة، بهذا اللفظ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) المغازي، محمد أبو عبد الله الواقدي (٣/ ١١١٧).

وشاء الله تعالى أن توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجيش أسامة لا زال معسكرة بالجرف[١]، فأشار كثير من الناس على الخليفة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا ينفذ جيش أسامة؛ لاحتياج المسلمين إليه فيما هو أهم، خاصة وقد عظم الخطب واشتد الحال وظهر النفاق بالمدينة، وارتد من ارتد من أحياء العرب، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة.

إلا أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصر على إنفاذ جيش أسامة وقال: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو أن الطير تخطَفُنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرَّت بأرجل أمهات المؤمنين لأُجهزن جيش أسامة»، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أُرْعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم مَنَعَة شديدة، فقاموا أربعين يومًا ويقال سبعين يومًا، ثم أتوا سالمين غانمين، ثم رجعوا فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة[٢].

فكان تسيير هذا البعث سياسة حكيمة من أبي بكر الصديق، وطَّدت أمر الإسلام وأرهبت أهل الردة الذين قالو: لو لم يكن أبو بكر على بصيرة من أمره وقوة من جيشه وكثرة جنوده؛ لما بعث هذا البعث في مثل هذا الظرف، كما أثَّرت هذه الغارة على هرقل ومنتصرة العرب؛ فقد بلغ الخبر هرقل وكان بحمص، فاستشار بطارقته، فأشار عليه أخوه أن يبعث رابطة تكون بالبلقاء، ولم تزل هذه الرابطة مقيمة فيه حتى قدم جيش المسلمين لفتح الشام، وبذلك أوقعت الارتباك في خططهم[٣].

---

(١) **الجُرف**: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. معجم البلدان (٢/ ١٢٨).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٠٤).

(٣) ينظر: تاريخ الدعوة الاسلامية في زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين، جميل المصري (ص٢٤٦).

ثانيًا: قتال أهل الردة ومانعي الزكاة:

لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم النفاق بالمدينة، وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة، والتفت على طليحة الأسدي بنو أسد وطيء، وبشر كثير أيضًا، وادعى النبوة أيضًا كما ادعاها مسيلمة الكذاب، وعظم الخطب واشتدت الحال.

وجعلت وفود العرب تقدم المدينة، يقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصديق، وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ للقتال فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[1].

وقال في شأن بقية المرتدين الذين يبلغون مئات الآلاف قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أهل مكة في صلح الحديبية: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى**

---

(١) أخرجه البخاري، (٢/ ١٠٥)، برقم: (١٣٩٩)، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ومسلم في صحيحه (٣٨/ ١) برقم: (٢٠)، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.

تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ»[١]، يعني: حتى تنقطع عنقي، ثم جهز الجيوش لقتال أهل الردة ومانعي الزكاة.

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثابتًا بهذه العزيمة وعلى هذه العقيدة، ولما رأى الصحابة هذا الإصرار منه انشرحت صدورهم لهذا الحق الذي أجراه الله على لسان هذا الرجل، فسجل بذلك موقفًا لا هوادة فيه، ولا مساواة فيه، فبقي الدين بفضل الله أولًا وجهوده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سليمًا نقيًّا صافيًا.

ولقد استطاع أمراء الجند الذين أرسلهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقمع الردة، ومحاربة مانعي أداء الزكاة، أن يقضوا على هذه الفتن في وقت قصير، وعادت دولة الإسلام قوية كما كانت عليه من قبل، لتستأنف مهمتها في تبليغ دعوة الإسلام، وكانت درسًا للمرتدين والمسلمين، فقد أثبتت أن الدين الإسلامي كل لا يتجزأ، وأن التهاون في جانب من جوانب العقيدة الإسلامية لا بد وأن يؤدي إلى التهاون فيها جميعًا، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجل الساعة بالفعل؛ فجاهد في الله دفاعًا عن العقيدة الإسلامية، وحتى لا يتمكن المرتدون الخارجون أو مانعو الزكاة من تشويه صورة العقيدة الصافية، أو إدخال شيء من الجاهلية في الإسلام[٢].

ثالثًا: جمع القرآن الكريم:

لما تولى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمارة المسلمين واجهته أحداث جسيمة، خصوصًا ما كان من قبل أهل الردة، كما سبق، وما دار بعد ذلك من حروب طاحنة ومعارك

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٩٣) برقم: (٢٧٣١)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

(٢) ينظر: تاريخ الدعوة الاسلامية في زمن الرسول والخلفاء الراشدين، د. جميل المصري، (ص٢٥٢).

عنيفة، خاصة ما كان في موقعة اليمامة[١]؛ حيث استشهد فيها عدد كبير من الصحابة، منهم أكثر من سبعين من قراء الصحابة، فاشتد ذلك على الصحابة، ولا سيما على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاقترح على الصديق أن يجمع القرآن، خشية ضياعه بموت الحفاظ ومقتل القراء، فتردد أبو بكر أول الأمر، ثم شرح الله صدره لما شرح له صدر عمر، فكان هو أول من جمع القرآن بين اللوحين.

قال زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ممن يكتب الوحي: «أرسل إلي أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن؛ إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن..»[٢].

---

(١) قال الحموي: بين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر، وتسمى اليمامة جوة والعروض - بفتح العين، وكان اسمها قديمًا: جوّا، فسميت اليمامة باليمامة بنت سهم بن طسم، (معجم البلدان، (٥/ ٤٤٢).
أما غزوة اليمامة فكانت سنة ١٢هـ، قتل فيها عدو الله مسيلمة الكذاب، وآلاف من جنده وأعوانه، وفتحت على يد خالد بن الوليد صلحًا، واستشهد فيها أكثر من سبعمائة وقيل أكثر، من كبار المهاجرين والأنصار، (الكامل لابن الأثير: (٢/ ٢٤٣)، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي، (ص٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٧١) برقم: (٤٦٧٩)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

فتبين أن السبب الذي دفع أكابر الصحابة في هذا العهد إلى جمع القرآن، هو الخوف من ذهاب شيء منه بذهاب حفظته، وهذا الموقف الذي عرضه عمر بن الخطاب له بضرورة جمع القرآن، كان تجربة من نوع جديد، وأن القرآن لم يجمع من قبل هذه الصورة، وذلك مفهوم من تردد الصديق وزيد بن ثابت، وقولهم: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ.

فكان من نتائج هذا الجمع في عهد الصديق رضي الله عنه: أنْ سُجل كامل القرآن الكريم وقيد بالكتابة، وزال الخوف من ضياعه بوفاة حملته وقرائه، وحفظ كله في موضع واحد بعدما كان مبعثرًا في أماكن متفرقة، وأجمع الصحابة كلهم على ما سجل فيه، وأصبح منزلة وثيقة وسجل يرجع إليه وقت الضرورة، وزالت شبهة بدعة الجمع من الأذهان(١).

إنه لعمل مبارك وفق الله تعالى فيه الفاروق عمر، والصديق أبا بكر رضي الله عنهما، إلى جمع كلامه عز وجل، تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فخدما مصدر الدعوة الأول، وحرصا على حفظ أركان الدين وثوابته، قال علي رضي الله عنه: «إن أعظم الناس أجرًا في المصاحف: أبو بكر الصديق، كان أول من جمع القرآن بين اللوحين»(٢).

رابعًا: الحسبة في عهده رضي الله عنه:

لما للحسبة من أهمية في توجيه الناس إلى الخير ومنعهم من الشر، وتطهير المجتمع من بواعث الفتنة والمعصية، وردعًا للعصاة وتأديبهم؛ فقد تولى الصديق رضي الله عنه وظيفة الحسبة بنفسه، وشدد على الرعية في المحافظة على تعاليم الإسلام.

---

(١) ينظر: جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، أ. د. فهد بن عبد الرحمن الرومي (ص٢٦).
(٢) فضائل الصحابة، للإمام أحمد بن حنبل (١/ ٣٥٤)، برقم: (٥١٣).

فقد بين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهجه في ذلك وأن اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينقطع بوفاته، فقال: «لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ؛ فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ»(١)، وفي حرصه على تطبيقه هذه الشعيرة، خشي على الأمة من ترك الاحتساب اعتمادًا على فهم خطإ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٥]، فما هنئت نفسه حتى بين للناس أن شعيرة الحسبة لا تسقط، وأن تعطيلها سبب للعذاب، حيث قام في الناس خطيبًا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ اللهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ**»(٢).

وإن من أعظم أعماله في الحسبة التي تولاها وأعانه الله عليها: مسألة مانعي الزكاة، حيث جاهدهم حتى عادت كما كانت زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

خامسًا: الفتوحات الإسلامية:

أرسل الله نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين، ونورًا وهاديًا إلى الخير، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨]، وأمره بأن يبلغ رسالة ربه تعالى، قائلًا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤/ ٧٩) برقم: (٣٠٩٢) كتاب فرض الخمس، باب فرض الخمس، ومسلم، (٥/ ١٥٣)، برقم: (١٧٥٩)، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا نورث ما تركنا فهو صدقة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢) برقم: (١)، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن أبي شيبة في مصنفه، (١٣/ ١٥٠)، برقم: (٢٦١١٥)، كتاب الأدب، ما جاء في الكذب.

بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧]، وهذا التبليغ ما كان ليتم لولا إخضاع الناس تحت سلطة الإسلام، حتى يبلغهم البلاغ من غير مانع ولا حاجز، ثم يُلزموا بالدخول في الإسلام، أو إعطاء الجزية.

وما كان للخليفة إلا أن يقتدي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويمضي بشريعة الجهاد، ويقاتل من كفر بالله، وما الجهاد إلا وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى ونشر الإسلام وإخماد الشرك؛ لأن الهدف منه: إخراج الناس من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال:٣٩]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: **حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

ففي عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتحت بلاد العراق ومدن كثيرة، فأصبحت تخضع لسلطان الدولة الإسلامية، حيث جهز الخليفة أبو بكر الصديق الجيوش من أجل أن تسير لفتح الأمصار، وأمر أمراء الفتوح على الجند، وكان على رأسهم: خالد بن الوليد، بعثه إلى العراق، وأبو عبيدة عامر بن الجراح بعثه إلى الشام، وعمرو بن العاص بعثه بالمدد إلى أبي عبيدة، والمثنى بن حارثة الشيباني، وعدي بن حاتم الطائي، وضرار بن الأزور كانا مع خالد بن الوليد، ومثلهما ضرار بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١/ ١٤) برقم: (٢٦)، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، ومسلم في صحيحه (١/ ٦٢)، برقم: (٨٣)، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

فاستطاع هؤلاء القادة الأبطال تحقيق مجموعة من الانتصارات الباهرة في العراق والشام، على دولتي الفرس والروم في آن واحد.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة، بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بِفَرْجِ الْهِنْدِ، وَهِيَ الْأُبُلَّةُ ويأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا من ذلك كله قاتلهم في الله، وأمره ألا يكره أحدًا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام، وإن كان قد عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين، وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمدادًا لخالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[1].

ففتحت مدن كثيرة من مدن العراق بقيادة خالد بن الوليد سنة ١٢ من الهجرة، وبسطت الدولة الإسلامية نفوذها على معظم مناطق العراق، وغنم المسلمون خلالها غنائم هائلة، وأعطى الفرس وأتباعهم من نصارى العرب الجزية عن يد وهم صاغرون.

وفي سنة ١٣ من الهجرة، وبعد رجوع الصديق من الحج، جهز الجيوش إلى الشام، وبعث عمرو بن العاص إلى فلسطين، وكلًّا من يزيد بن أبي سفيان، وأبي عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة إلى الشام، قائلا لهم لما رأوا هول جيش الروم وهو يضع أسباب النصر والعزة: «إن مثلكم لا يؤتى من قلة، وإنما يؤتى عشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، فاجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل واحد منكم بأصحابه»[2].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٥١١).

(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/ ٢٥١).

فمضوا في الجهاد ففتح الله بهم عدة مدن، منها: البلقاء، وتدمر، وبصرى.

ولقد خاضت جيوش الدولة الإسلامية على عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معارك شديدة ضارية ضد دولة الروم على أرض الشام، ولعل أهمها وأشهرها: أجنادين[١]، ومرج الصفر[٢]، انتصر فيها المسلمون نصًرا عزيزًا مؤزرًا، وغنموا الكثير، وقتلوا من الروم ما لا يعد ولا يحصى، وفي مقدمتهم قادتهم وكبراؤهم.

وفاتــه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ثم ختم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعماله باستخلافه على المسلمين عمر الفاروق، وقد تفرس فيه فأوصى له، واستودعه الأمة من بعده، بعد أن استشار نفرًا من فضلاء الصحابة فيه، رغم ما عُرف عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من صلابة في الدين، إلا أن شدة نصحه للأمة وخوفه عليها؛ اختار لهم أن يكون عمر خليفة عليهم من بعده، حيث دعا عثمان بن عفان فقال له: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلًا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا، فإنْ عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكل امرئ

(١) معركة دارت بين المسلمين، والروم، و شهدها من الروم زهاء مائة ألف فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا، وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاء حسنًا وقتل من المسلمين يومها جماعة. (ينظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري (ص١١٦).

(٢) موضع بالشام، كانت به معركة، في جمادى الأولى، انتصر فيها المسلمون على نصارى الشام بعد وقعة أجنادين، قبل وفاة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأربعة أيام، (تاريخ الإسلام، للذهبي، (٣/ ٨٤).

ما اكتسب من الإثم، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله، ثم أمر بالكتاب فختمه»[١].

فبذلك شهد تاريخ الدعوة ومسارها في عهد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انطلاقة كبيرة، وأحداث عظيمة ومهمة، تعامل معها الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحكمة في القول وقوة في العمل، فقضى على الفتن الداخلية بسياسته الرشيدة، وقاد الإسلام نحو أماكن بعيدة، فحقق انتصارات مهمة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٦٠).

المبحث الثاني

أهم ملامح الدعوة في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]

ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنَّة، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، قوي الإيمان، ذو الفراسة والفطنة والذكاء، والهيبة والشجاعة والدهاء، أعز الله به الإسلام، سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفاروق؛ أي: الذي يفرق بين الحق والباطل، قوي في دين الله، كان الشيطانُ يفرُّ منه، صاحبَ رسول الله، وهاجر جهرًا، وشهد المشاهد كلها، أحبَّه النبي وقرَّبه إليه، وأدناه منه، قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ**»[٢]، وقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ**»[٣].

أسلم في السنة السادسة من النبوة، بعد أربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة، وقيل: بعد تسعة وثلاثين رجلًا وثلاث وعشرين امرأة، وله سبع وعشرون سنة، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولد عمر بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم أو

---

(١) هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، سمي بأمير المؤمنين ولقب بالفاروق، ولد سنة ٤٠ قبل الهجرة، روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسمائة حديث وتسعة وثلاثون (٣٩) حديثًا، بويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة ١٣ هـ بعهد منه، توفي سنة ٢٣هـ. (ينظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء، (٢/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي، (٦/ ٥٩) برقم: (٣٦٨٦)، أبواب المناقب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب. وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أحمد، (٣/ ١١٤١) برقم: (٥٢٤٠)، مسند عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والترمذي (٦/ ٥٧) برقم: (٣٦٨٢)، أبواب المناقب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، وحسنه الألباني في المشكاة (٣/ ١٧٠٤)، برقم: (٦٠٤٢).

بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، أي: رسولًا، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافرًا أو مفاخرًا»[(١)].

فما هو إلا أن أسلم حتى ظهر الإسلام بمكة وفرح به المسلمون، أخرج الترمذي عن ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ؛ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ**»، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ[(٢)]، وأخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً**»[(٣)].

وأخرج ابن سعد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج عمر متقلدًا سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة، فقال: أين تَعْمِدُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا، قَالَ: وَكَيْفَ تَأْمَنُ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلا قَدْ صَبَوْتَ وَتَرَكْتَ دِينَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى الْعَجَبِ يَا عُمَرُ؟ إِنَّ خَتنَكَ وَأُخْتَكَ قد صبوَا وتركا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، فَمَشَى عُمَرُ ذَامِرًا حَتَّى أَتَاهُمَا وَعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُقَالُ لَهُ خَبَّابٌ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابَ حِسَّ عُمَرَ تَوَارَى فِي الْبَيْتِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْنَمَةُ الَّتِي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُمْ؟ وكانوا يقرؤون

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (١/ ٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي، (٦/ ٥٦) برقم: (٣٦٨١)، أبواب المناقب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: صحيح حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، (٨/ ٨١)، برقم: (٣٦٨١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب ومن مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣/ ٨٩)، برقم: (٤٤٨٥)، وابن ماجه في سننه، (١/ ٧٧) برقم: (١٠٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح دون قوله: (خاصة)، وينظر: السلسلة الصحيحة، رقم: (٣٢٢٥)، وقال: إسناده صحيح.

طه، فَقَالا: مَا عَدَا حَدِيثًا تَحَدَّثْنَاهُ بَيْنَنَا، قَالَ: فَلَعَلَّكُمَا قَدْ صَبَوْتُمَا؟ فَقَالَ لَهُ خَتْنُهُ: أَرَأَيْتَ يَا عُمَرُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ؟ فَوَثَبَ عُمَرُ عَلَى خَتْنِهِ فَوَطِئَهُ وَطْأً شَدِيدًا فَجَاءَتْ أُخْتُهُ فَدَفَعَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا فَنَفَحَهَا بِيَدِهِ نَفْحَةً فَدَمِيَ وَجْهُهَا فَقَالَتْ وَهِيَ غَضْبَى: يَا عُمَرُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَشْهَدُ أن محمدًا رسول اللهِ، فَلَمَّا يَئِسَ عُمَرُ قَالَ:

أَعْطُونِي هَذَا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الْكُتُبَ. فَقَالَتْ أُخْتُهُ: إِنَّكَ رِجْسٌ وَلا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ فَقُمْ فَاغْتَسِلْ أَوْ تَوَضَّأْ، فَقَامَ عُمَرُ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١-١٥]، فَقَالَ عُمَرُ: دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ قَوْلَ عُمَرَ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا عُمَرُ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ: اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، فَانْطَلَقَ عُمَرُ حَتَّى أَتَى الدَّارَ، وَعَلَى بَابِ الدَّارِ حَمْزَةُ وَطَلْحَةُ وَأُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَى حَمْزَةُ وَجَلَ الْقَوْمِ مِنْ عُمَرَ قَالَ حَمْزَةُ: نعم، فهذا عمر فإن يُرد الله بِعُمَرَ خَيْرًا يُسْلِمْ وَيَتْبَعِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ يُرِدْ غَيْرَ ذَلِكَ يَكُنْ قتله علينا هينًا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَى عُمَرُ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ وَحَمَائِلِ السَّيْفِ فَقَالَ: **«أَمَا أَنْتَ مُنْتَهِيًا يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزِلَ اللهُ بِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا أَنْزَلَ بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؟ اللَّهُمَّ هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، اللَّهُمَّ أَعِزَّ الدِّينَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»**، فَقَالَ عُمَرُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ فَأَسْلَمَ[1].

---

(١) أخرج القصة ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٠٣)، ولبعض ألفاظها شواهد عند أصحاب السنن.

فكان إسلامه عزًا ظهر به الإسلام، وله مواقف عظيمة في الإسلام، ولما ولي الخلافة سار بأحسن سيرة وأنزل نفسه من مال الله منزلة رجل من الناس، وفتح الله له الفتوح بالشام، والعراق، ومصر، ودوَّن الدواوين في العطاء، ورتب الناس فيه على سوابقهم، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، أرَّخ التاريخ من الهجرة الذي بأيدي الناس إلى اليوم، وهو أول من سمي بأمير المؤمنين.

أهم ملامح الدعوة في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُويع أبو بكر بالخلافة وحارب قبائل العرب في حروب الردة، وبعدها فتح المسلمون بلاد الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين، ففتحوا الشام ومصر والعراق وفارس، وبعدها ازدهرت الحضارة الإسلامية في الدول التي دانت بالإسلام ودانت له طواعية تحت ظل الخلافة الراشدة، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب أقيمت أول المدن الإسلامية؛ كالكوفة والفسطاط ومدن إسلامية عديدة، وكان من بين أهم أعماله:

أولًا: تنظيم الدولة ورعاية المسلمين:

بدأ الخليفة عمر بن الخطاب بتنظيم الدولة الإسلامية بعزيمة قوية لا تلين، وذلك ليستطيع مواجهة مشكلات الحياة ومتطلبات الظروف الجديدة، خاصة عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا، وفي سبيل ذلك قام بما يأتي:

١. دون الدواوين، فأسس ديوان الجند الذي يشبه في أيامنا وزارة الدفاع، وديوان الخراج الذي يشبه وزارة المالية؛ لضبط دخل الدولة ونفقاتها، وترتيب الأمور المالية.

٢. أنشأ بيت مال المسلمين، وعين القضاة والكتاب، وجعل التاريخ الهجري أساس تقوم الدولة الإسلامية كما نظم البريد.
٣. اهتمامه بالرعية، فمن ذلك تفقده أحوال المسلمين وعسُّه بالليل.
٤. أبقى الأراضي المفتوحة بأيدي أهلها الأصليين بدلًا من تقسيمها بين المحاربين، على أن يدفعوا عنها الخراج.
٥. قسم البلاد المفتوحة إلى ولايات، وعيَّن على كل ولاية عاملًا له راتب محدد يأخذه من بيت مال المسلمين، وكان يختار الولاة ممن يُعرفون بالتقوى وحسن الإدارة دون النظر إلى أحسابهم وأنسابهم.
٦. أمر بإنشاء عدة مدن في البلاد المفتوحة، مثل البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر وغيرها؛ لتكون مركزًا للدولة الإسلامية في تلك البلاد[١].

ثانيًا: عنايته بالقرآن الكريم والسنة النبوية:

كان الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي الرعية بتعلم القرآن الكريم، والتفقه فيه، وطلب مرضاة الله في تعلمه، فقد روي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يوصي الناس أن يكونوا أوعية الكتاب، وينابيعًا للعلم[٢] ، وكان يقول: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ النِّسَاءِ، وَسُورَةَ الْمَائِدَةِ وَسُورَةَ الْحَجِّ، وَسُورَةَ النُّورِ، فَإِنَّ فِيهِنَّ الْفَرَائِضَ»[٣] ، وروي أنه كان يوصي بأن يتعلم النساء سورة النور[٤]، وكان يوصي بتعلم إعراب

(١) ينظر: تاريخ الدعوة الإسلامية، د. جميل المصري (ص٣١٦).
(٢) ينظر: حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني (١/ ٥١).
(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٩٥)، برقم: (٣٥١٤)، كتاب التفسير، تفسير سورة النور، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
(٤) ينظر: فضائل القرآن، القاسم بن سلام (ص٢٤١).

القرآن الكريم؛ لأنه نزل بلغة العرب، ونبههم على تعلم اللحن من أجل أن لا يقعوا فيه[١].

ومما ورد عن الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قراءة القرآن وتعلمه والعمل به وإخلاص النية فيه، أنه كان يقول: «يَا أَيهَا النَّاسُ! إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَأَنَا أَرَى مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللهَ وَمَا عِنْده، فيخيل إِلَيّ أَن قومًا قرأوه يُرِيدُونَ بِهِ النَّاسَ، وَيُرِيدُونَ بِهِ الدُّنْيَا، أَلا فَأَرِيدُوا اللهَ بِأَعْمَالِكُمْ»[٢].

وكان من أشد الناس حرصًا وعناية بالسنة النبوية، وحمايتها من التغيير أو التحريف، ظهر ذلك في جوانب عدة، كتأكده وتحققه من صحة ما نقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يطالب من يروي حديثًا من يشهد معه على صحة ما قاله عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسأل الصحابة عن حكم مسألة من حديث سمعه أحدهم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

ومن حرص الفاروق وعنايته بالسنة النبوية، وخشيته أن يدخل فيها ما ليس منها؛ أنه كان ينهي عن كثرة التحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن ذلك مظنة وقوع المتحدث في الوهم والخطأ، ومدعاة لعدم التحري والدقة في النقل، فكان في عهده يخيف الناس في الله تعالى من كثرة الأحاديث[٤].

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي (١/ ٢٨٠).
(٢) الأحاديث المختارة، ضياء الدين المقدسي (١/ ٢١٩)، برقم: (١١٦)، وقال: إسناده حسن.
(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٦٥)، برقم: (٥٩٣٣)، كتاب اللباس، باب الوصل في الشعر.
(٤) أخرجه مسلم، (٢/ ٧١٨)، برقم: (١٠٣٧)، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

ثالثًا: نشر العدل:

عمل الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على نشر العدل بين الناس والحكم بالسوية في المجتمع، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم ونجاحهم وفلاحهم؛ بدأ بأهله، وتقدم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمره، فعن سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة»[(١)].

رابعًا: توسعة المسجد النبوي الشريف (١٧هـ):

لما كثر الناس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وضاق بهم المسجد قالوا: يا أمير المؤمنين لو وسعت في المسجد، فقال: « لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: نَبْغِي نَزِيدُ فِي مَسْجِدِنَا مَا زِدْتُ فِيهِ»[(٢)] فقام بتوسعة المسجد وعمارته، وكان ذلك سنة ١٧هـ، فبنى أساسه بالحجارة إلى أن بلغ قامة، وقد روى عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّ المَسْجِدَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْنِيًّا بِاللَّبِنِ، وَسَقْفُهُ الجَرِيدُ، وَعُمُدُهُ خَشَبُ النَّخْلِ، فَلَمْ يَزِدْ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ شَيْئًا، وَزَادَ فِيهِ عُمَرُ، وَبَنَاهُ عَلَى بُنْيَانِهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللَّبِنِ وَالجَرِيدِ، وَأَعَادَ عُمُدَهُ خَشَبًا»[(٣)].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٧)، والكامل في التاريخ (٢/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، (١/ ١١١) برقم: (٣٣٦)، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبزار في مسنده (١/ ١٦٢)، برقم: (١٥٧)، مسند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما روى عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٩٦)، برقم: (٤٤٦)، كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد.

فزاد من جهة القبلة إلى الرواق[١] المتوسط بين المصلى النبوي والمصلى العثماني، وذلك نحو عشرة أذرع، أي خمسة أمتار، وزاد من جهة الشمال ثلاثين ذراعًا، أي خمسة عشر مترًا، وزاد من جهة المغرب أسطوانتين، وذلك نحو عشرين ذراعًا، أي عشرة أمتار، ولم يزد من جهة المشرق شيئًا، وفتح باب السلام في أول الحائط الغربي من جهة الجنوب، وفتح باب النساء في الحائط الشرقي، وأمر بالحصباء[٢] فجيء به من العقيق فبسط في المسجد.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثير الاهتمام بالالتزام بآداب المسجد النبوي، والتي منها: عدم رفع الصوت فيه تأدبًا مع رسول الله، وليؤدي المسلمون صلاتهم وعبادهم بخشوع وطمأنينة؛ لذا بنى رحْبَة خارج المسجد، وعرفت بالبطحاء[٣]، وكان الهدف منها كما روى سالم بن عبد الله؛ أنَّ من أراد أن يغلط[٤] أو يرفع صوتًا أو ينشد شعرًا فليخرج إليها[٥].

خامسًا:

اهتم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناحية العلمية في المجتمع المسلم، وتعاهد الرعية بنفسه بالتوجيه والتعلم والتربية، تمثل ذلك في رسائله ونصحه إلى قضاته وعماله على البلاد الإسلامية، وفي هذا غاية العناية بالرعية.

---

(١) **الرواق**: جمع أورقة، وهو بيت كالفسطاط يحمل على عمود واحد طويل، ورواق البيت مقدمه، وسقيفة للدراسة في مسجد أو معبد أو غيرهما. (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (١/ ٣٨٣).

(٢) **الحصباء**: واحدته حصبة، صغار الحجارة من الحصى. (لسان العرب، ابن منظور، (١/ ١٨٠).

(٣) **البطحاء**: رحبة مرتفعة نحو الذراع، بناها عمر بن الخطاب خارج المسجد بالمدينة. (القاموس المحيط، للفيروز آبادي (ص٢١٣).

(٤) **لغط**: معناه ما يغالط به من الكلام المبهم الذي لا يفهم معناه، وجمعه أغاليط. (المعجم الوسيط، (٢/ ٦٥٨).

(٥) ينظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، على بن عبد الله السمهودي، (٢/ ٦٧ وما بعدها).

سادسًا: الحسبة في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كانت الحسبة في عهد عمر الفاروق مشهورة، فكان مهتمًا بها، يباشرها بنفسه، ويحمل الدرة ويخفق بها ويؤدب، فقد أُثر عنه أنه رأى قومًا يصلون في الطريق، فقال: «صلوا في المسجد»(١)، وكان يكتب إلى العمال والولاة في الآفاق والأقاليم في شأن الصلاة واهتمامه بها، فيقول: «إِنَّ أَهَمَّ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، مَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِسِوَاهَا أَضْيَعُ»(٢).

سابعًا: العناية بالفتوحات الإسلامية:

كان من اهتمامات الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مواصلة الجهاد ونشر الإسلام، والاستمرار في الفتح الذي بدأ في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لبلاد الفرس والروم، وكانت أهم هذه الفتوحات ما يأتي:

١- فتح العراق وبلاد فارس:

كانت أول معارك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العراق، معركة الجسر في (١٣هـ)، هُزِم فيها المسلمون واستشهد قائدهم أبو عبيد الثقفي، ففي بدء المعركة رجحت كفة المسلمين، لكن الفيلة أرعبت خيلهم وانهزم المسلمون، وقام أحدهم بقطع الجسر ليمنع الهزيمة لكنه أخطأ، وزادت خسائر المسلمين التي بلغت أربعة آلاف بين قتيل وغريق، ثم أصلح الجسر وعبر المسلمون(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (١/ ٧٨) برقم: (٢٢٢)، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند أبي حفص عمر بن الخطاب، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١/ ٥٣٦)، برقم: (٢٠٣٨)، كتاب الصلاة، باب المواقيت، وقال ابن الأثير في جامع الأصول في أحاديث الرسول: منقطع؛ لأن نافعًا لم يلق عمر (٥/ ٢١٦).

(٣) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٣)، وتاريخ الطبري (٣/ ٤٥٤)، وعصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري (٣/ ٣٥٧).

ثم موقعة البويب (١٣هـ) في رمضان، وفيها ثأر المسلمون لهزيمتهم في موقعة الجسر، وكان قائد المسلمين المثنى بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم القادسية[١] الموقعة الشهيرة سنة (١٤ هـ) بقيادة سعد بن أبي وقاص ومعه ٣٦,٠٠٠ مقاتل، كانت معركة من المعارك الرهيبة الفاصلة، والتي واجهوا فيها ١٢٠,٠٠٠ مقاتلًا من جيش الفرس، ومعهم ٣٣ فيلًا، يقودهم رستم كبير القادة الفرس، وانتهت بانتصار المسلمين نصرًا مؤزرًا بعد أربعة أيام من القتال المتواصل، وقد أفاد المسلمون من يوم الجسر، فتمكنوا من الخلاص من الفيلة برمي عيونها، ففرت، وقتل رستم وانهزم الفرس وقُتل منهم ألوف كثيرة، وخسر المسلمون ٦٠٠٠ مقاتل، فكان هذا الفتح ممهدًا لفتح المدائن عاصمة الفرس.

ثم فتحت المدائن[٢] في السنة (١٦هـ)، وتقع على ضفتي نهر دجلة، وعددها سبع مدائن، وفيها قصور كسرى، وفيها القصر الأبيض (إيوان كسري) دخلها المسلمون مصداقًا لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحفر الخندق مع المسلمين، وتحقيقًا لبشارته لسراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه يلبس سواري كسرى[٣]، وقد كان له ذلك.

ثم تتالت الفتوحات إلى معركة نهاوند[٤] (٢١هـ)، وسميت بذلك لأنها فتحت بلاد الفرس على مصاريعها للمسلمين، وكسرت فيها شوكة الفرس، فبعد

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري، (٣/ ٤٨٣)، والبداية والنهاية، (٧/ ٤٢)، وعصر الخلافة الراشدة، (١/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٧٤)، وفتوح البلدان (٢٥٨).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب، (٢/ ٥٨١)، و ابن حجر في الإصابة، (٣/ ٣٥)، عن سفيان بن عيينة، عن أبي موسى، عن الحسن أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟».

(٤) ينظر: فتوح البلدان (٢٩٦)، وتاريخ الطبري (٤/ ١١٤).

نهاوند انكسرت شوكة الفرس وانساح المسلمون في أرض فارس، وتحطمت آمال (يزدجرد) في العودة إلى ملك آبائه.

ثم انتشر المسلمون في بلاد الفرس من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، فكانت الحروب دامية شديدة مستمرة، وكان النصر حليف المسلمين في كل موقعة، فامتدت رقعة الإسلام من نهر الفرات إلى نهر جيحون والسند شرقًا، ومن بلاد أرمينية وبحر قزوين (الخزر) شمالًا والمحيط الهندي جنوبًا، وكان ذلك في مدة لا تتجاوز سبع سنين، مما لا يزال محل دهشة العالم واستغرابه حتى اليوم.

فيما فُتح أكثر العراق عنوة، حتى إن عهود الفتح وشروط الصلح تغيرت مرات عديدة، ويترتب على الفتح عنوة استملاك المسلمين للأرض، لكنهم دعوا المغلوبين للبقاء فيها على أن يدفعوا الخراج، وأفاد هذا الإجراء في عدم تحول الفاتحين إلى فلاحين، وفي ربط الفلاحين القدامى بأرضهم وولائهم لبلدهم.

وهكذا وَجه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ همه لفتح العراق وبلاد فارس، بعد أن اطمأن على سلامة وضع الجيش الإسلامي في بلاد الشام، وبهذا الفتح توسعت الدولة الإسلامية ونصر الله الإسلام وقوَّى أهله، وذلَّ أعداءه.

٢- فتح دمشق:

علم الروم بدخول الجيوش الإسلامية أرضهم، فكتبوا إلى هرقل وكان بالقدس، فقال هرقل: «أرى أن تصالحوا المسلمين، فو الله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم، أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم»[١].

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٢٥١).

وأغضبت هذه النصيحة قادة الروم، وظنوا أن الإمبراطور قد وهن وضعف وسيسلم البلاد للغزاة الفاتحين، والحق أن هرقل قد ضعف أمام غضبة قاداته وعزم على قتال المسلمين مع يقينه بالهزيمة، فجمع هرقل الثائرين وتوجه إلى حمص، وهناك أعد جيشًا ضخم العُدد كثير العَدد لمواجهة المسلمين، ومن أشهر المعارك التي دارت بين المسلمين والروم في عهد الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

معركة اليرموك[1]: (١٣هـ) وهي معركة حاسمة من أشهر المعارك بين المسلمين والروم، سميت بذلك نسبة إلى الوادي الذي وقعت فيه، حيث اتخذه الروم مكانًا لجيشهم الضخم، ثم أغلق المسلمون عليهم الوادي، فلم يعد للروم طريق يسلكونه، وكان قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه كبار قادة الفتح، كأبي عبيدة، وعمرو بن العاص، فنظم خالد الجيش على شكل كراديس كل كردوس بألف مقاتل، يقوده عدد من أبطال المسلمين، فاشتد القتال حتى مالت الشمس للمغيب، ثم انتهز المسلمون فرصة تضعضع الروم فقضوا عليهم بأن فصلوا الخيل عن ركابها، مما اضطر الروم للهرب، فكان عدد من قتل في هذه المعركة مائة وعشرون ألفًا، منهم عدد من قادات الروم، وكتب الله النصر للمسلمين، وقد شارك في هذه المعركة ألف من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منهم مائة ممن شهد بدرًا، فيما استشهد ثلاثة آلاف من المسلمين، فكانت معركة فاصلة لم يلق المسلمون بعد مثلها.

ثم فُتحت دمشق: (سنة ١٤هـ)، حيث سار إليها أبو عبيدة، وجعل خالدًا على المقدمة وحاصرها المسلمون وفتح جزء منها عنوة، والآخر صلحًا، ثم توجه

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٧).

المسلمون لفتح جميع بلاد الشام: سورية، وفلسطين، والأردن، ولم يبق سوى بيت المقدس، وعقب هذه الانتصارات المتتالية للمسلمين، يئس هرقل من بقاء الشام في يده، فودع سورية قائلًا: «عليك السلام يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده»[١].

٣- فتح بيت المقدس (سنة ١٥هـ):

وجه المسلمون عنايتهم لفتح بيت المقدس التي كانت محصنة تحصينًا قويًا، فحاصرها عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حصارًا طويلًا، حتى طلب أهلها الصلح شريطة حضور الخليفة ليتولى أمر الصلح، فحضر عمر، ونزل الجابية فاستقبله أمراء الجيوش، وخرج أهل القدس (إيلياء) للقائه، وكتب لهم كتابًا أمَّنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، ثم دخل القدس وصلى بها، وأمر ببناء مسجده المعروف باسمه إلى اليوم، وأمَّن الناس على حريتهم الدينية، وهكذا أصبحت بلاد الشام كلها في يد المسلمين[٢].

٤- فتح مصر:

كانت مصر في ذلك الحين من ممتلكات الروم، وكانت تدين بالنصرانية، ولكن الروم كانوا يسيئون إلى المصريين مع أن دينهم واحد، فكانوا يرهقونهم بالضرائب حتى وصل الأمر بهم إلى أن يفرضوا الضرائب على الموتى؛ فلا يسمحون بدفن الميت إلا بعد أن يدفع أهله ضريبة.

سار عمرو بن العاص متجهًا من الشام إلى مصر، وكان معه من جنود المسلمين أربعة آلاف، واخترق بهم رمال سيناء حتى وصل إلى العريش في آخر سنة

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٣).

(٢) ينظر: سيرة الخلفاء الراشدين، سليمان معروفي (ص٢٣٥).

١٨هـ وفتحها دون مقاومة؛ لأنه لم يكن بها حامية رومية، ثم سار حتى وصل إلى الفرما[١] فحاصرها شهرًا ونصف الشهر حتى تم له فتحها في أول سنة ١٩هـ، ثم تقدم عمرو إلى (بلبيس)[٢] فاستولى عليها بعد شهر لم ينقطع فيه القتال... ثم سار إلى (أم دنين)[٣] فنشب القتال وتحصن الروم في حصنهم، فحاصرهم المسلمون حتى تم لهم النصر بعون الله تعالى، وتتابع فتح المدن حتى أصبحت مصر ولاية إسلامية[٤].

وهكذا تبين استمرار عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنشر دعوة الإسلام، والالتزام بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدم الحيد عنه، والتوسع في تبليغ الدين الحنيف، وتطبيقه للشريعة الإسلامية تطبيقًا كاملًا، من خلال جهوده ومناشطه المتنوعة، وفتوحاته الواسعة.

استشهاده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]:

استشهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على يد فيروز غلام المغيرة بن شعبة، ولقبه: أبو لؤلؤة وكان مجوسيًا، قتله بخنجر له رأسان طعنه به ست طعنات، أحدها تحت سرته وهي التي قتلته، وكان ذلك في صلاة الفجر، عندما كبر للصلاة،

---

(١) **الفرَما**: مدينة على الساحل من ناحية مصر. معجم البلدان، للحموي (٤/ ٢٥٥).

(٢) **بلبيس**: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، فتحت في سنة ١٨ أو ١٩هـ على يد عمرو بن العاص. معجم البلدان (١/ ٤٧٩).

(٣) **أم دُنيْن**: موضع بمصر، وهي قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة. معجم البلدان (١/ ٢٥١).

(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٧).

(٥) ينظر قصة وفاته في البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ١٣٨).

وهرب فيروز وأخذ يطعن بخنجره كل من يمر به، حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا مات منهم ما يزيد على النصف، وعندما أحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ لا محالة أقدم على الانتحار بخنجره ذاتها، فحُمل الخليفة إلى بيته وبقي ثلاثة أيام بعد طعنه، ثم توفي يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقد غسله وكفنه ابنه عبد الله وصلى عليه، ثم دفن بجانب صاحبيه، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الثالث

أهم ملامح الدعوة في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]

هو ثالث الخلفاء الراشدين، وثالث المبشرين بالجنة، وأحد السِّتة الذين تُوُفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غنيًّا عفيفًا في الجاهلية، ومن أحكم قريش عقلًا وأفضلهم رأيًا، كما كان محبوبًا من قبلهم، لم يسجد لأي صنم طوال حياته، كما أنه لم يشرب الخمر لا في جاهلية ولا في إسلام، وقد كان على علم بمعارف العرب من الأنساب والأمثال وأخبار الأيام، وقد رحل إلى الشام والحبشة، وعاشر أقوامًا غير العرب، فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره من قومه، وكان كريمًا ينفق كثيرًا، ذا حياء واسع، كثير القراءة للقرآن الكريم، ويلقب بذي النورين لزواجه من رقية ومن ثم أم كلثوم بنتي النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]، وقد كان يكنَّى في الجاهلية أبا عمرو، ثم كناه المسلمون أبا عبد الله، وقد سماه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمين فقال: «**عَلَيْكُمْ بِالْأَمِينِ وَأَصْحَابِهِ**»، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عُثْمَانَ بِذَلِكَ[٣].

أسلم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قديمًا قبل دخول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار الأرقم، وكان عمره قد تجاوز الثلاثين، دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام قائلًا له: ويحك

(١) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، يجتمع هو ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عبد مناف، ولد سنة ٣٥ قبل الهجرة، بعد عام الفيل بست سنين، أمه أروى بنت كريز أسلمت وماتت في خلافته، وأما أبوه فمات في الجاهلية، اشتهر بالكرم والإنفاق والحياء، توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا سنة ٣٥هـ. ينظر ترجمته في: أسد الغابة (٣/ ٥٧٨).

(٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي (١/ ١١٨).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٩٢)، برقم: (٨٦٦٠)، مسند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسه الألباني في السلسلة، (٧٥٧٢)، برقم: (٣١٨٨).

يا عثمان! والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدها قومك، أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟ فقال: بلى والله، إنها كذلك، قال أبو بكر: هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه؟ فقال: نعم، وفي الحال مرَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا عثمان أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه، قال: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله[1].

وقال ابن سعد: « خَرَجَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ عَلَى أَثَرِ الزُّبَيْرِ ابْنِ الْعَوَّامِ، فَدَخَلا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَرَضَ عَلَيْهِمَا الإِسْلامَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمَا الْقُرْآنَ وَأَنْبَأَهُمَا بِحُقُوقِ الإِسْلامِ، وَوَعَدَهُمَا الْكَرَامَةَ مِنَ اللهِ؛ فَآمَنَا وَصَدَّقَا»[2].

وشهد له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الملائكة تستحي منه، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ ! فَقَالَ: **«أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»**[3].

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ١٩٩).

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠).

(٣) أخرجه مسلم، (٧/ ١١٦) برقم: (٢٤٠١)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

له مواقفُ عظيمةٌ، تدلُّ على فضله ونُصرته لهذا الدين، فمن ذلك أنه هاجَرَ الهجرتين: الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة، وجهَّز جيش العُسرة، وحفَرَ بئر رُومَة وتصدَّق بها على المسلمين، كما قام بتوسعة المسجد النبوي، وفي عهده جمع القرآن الكريم، وتوسَّعتْ فتوحات المسلمين، ووصلتْ إلى مشارق الأرض ومغاربها.

خلافتــه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما قُتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قيل له حين طعن: «استخلف» فأبى أن يسمي رجلًا بعينه وقال: عليكم هؤلاء الرهط الذين توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راض: علي، وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن، وسعد خالا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والزبير بن العوام حواريّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابن عمته، وطلحة الخير، فليختاروا رجلًا منهم، وفي الأخير اختير عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليكون خليفة للمسلمين، وبويع في غرة المحرم سنة أربع وعشرين، وهو يومئذ ابن تسع وستين[1].

أهم ملامح الدعوة في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أولًا: توسعة المسجد النبوي سنة (٢٩هـ):

توسعة المسجد النبوي الشريف من الأعمال الجليلة التي نفذها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وذلك لما كثر عدد المسلمين في خلافته، وازدحم المسجد بقاصديه، وشكا الناس إليه ضيقه، إضافة إلى تفتت بعض جذوعه، فاستشار أهل الرأي من كبار الصحابة، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ مَسْجِدَ النَّبِيِّ

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٢٨)، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي (ص١٢٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ سَوَارِيهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ، أَعْلَاهُ مُظَلَّلٌ بِجَرِيدِ النَّخْلِ، ثُمَّ إِنَّهَا نَخِرَتْ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ فَبَنَاهَا بِجُذُوعِ النَّخْلِ وَبِجَرِيدِ النَّخْلِ، ثُمَّ إِنَّهَا نَخِرَتْ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ فَبَنَاهَا بِالْآجُرِّ، فَلَمْ تَزَلْ ثَابِتَةً حَتَّى الْآنَ»[1]، وكان الشكل الهندسي البنائي مختلفًا عما كان عليه، قال الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «زاد عثمان في مسجد المدينة ووسعه، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من الحجارة، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع»[2].

ثانيًا: جمع القرآن الكريم في مصحف واحد:

لما اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرق القراء في الأمصار المختلفة، وأخذ كل أهل مصر عمن وفد إليهم لتعليمهم القرآن الكريم، وتنوعت أوجه القراءات وأصبحت مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، حتى تعجب البعض من هذا الاختلاف، وتسرب الشك في نفوس الكثيرين، خاصة من لم يدرك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أضف إلى ذلك الامتزاج اللغوي سواء بين العرب أنفسهم أم بينهم وبين غيرهم من الداخلين في الإسلام.

«فلما كانت غزوة «أرمينية» وغزوة «أذربيجان» من أهل العراق، كان فيمن غزاهما حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرأى اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلْف كل لقراءته، ووقوفه عندها، وماراته مخالفة لغيره، وتكفير بعضهم الآخر، حينئذ فزع إلى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخبره بما رأى، وكان عثمان قد

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ١٧٢)، برقم: (٤٥٢)، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، والبزار في مسنده (١٢/ ١٣)، برقم: (٥٣٧٧)، مسند عبد الله بن عمر.

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (ص١٣٢).

نمي إليه أن شيئًا من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرئون الصِّبية، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل، وأجمعوا أمرهم أن نسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش؛ فإنه نزل بلسانهم»[(١)]، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمَر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرق[(٢)].

وهذا أيضًا لا شك أنه من الأعمال الجليلة التي فعلها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد سدّ الاختلاف الذي وقع بين المسلمين وجمعهم على مصحف واحد وقراءة واحدة، فتلقت الأمة ذلك بالطاعة، ورأت في فعله رشدًا وهداية، فقطع دابر الفتنة وحسم الخلاف وحصَّن مصدر الدعوة الأول من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان.

ثالثًا: زيادة الأذان الثاني في يوم الجمعة:

الأذان لصلاة الجمعة كان أذانًا واحدًا سوى الإقامة في عهد النبي وأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان يرفع حين يجلس الإمام على المنبر، وفي خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زاد أذانًا ثالثًا حين كثر الناس، دل على ذلك قول السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) ينظر: المصاحف، لأبي داود السجستاني (ص٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٠) برقم: (٣٥٠٦)، كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش.

«إِنَّ الْأَذَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَانَ أَوَّلُهُ حِينَ يَجْلِسُ الْإِمَامُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَلَمَّا كَانَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَثُرُوا؛ أَمَرَ عُثْمَانُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْأَذَانِ الثَّالِثِ، فَأُذِّنَ بِهِ عَلَى الزَّوْرَاءِ[1]، فَثَبَتَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ»[2]، إضافة إلى كثرة الناس وتباعد منازلهم عن المسجد النبوي.

قيل في شرح الحديث: إن النداء الذي زاده عثمان هو عند دخول الوقت سماه ثالثًا، باعتبار كونه مزيدًا على الأذان بين يدي الإمام والإقامة للصلاة، وأطلق على الإقامة أذان تغليبًا بجامع الإعلام فيهما، وكان هذا الأذان لما كثر المسلمون فزاده عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اجتهادًا منه، ووافقه سائر الصحابة بالسكوت وعدم الإنكار؛ فصار إجماعًا سكوتيًّا[3].

فسنة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة متبعة؛ إذا لم تخالف سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقم أحد من الصحابة الذين هم أغير على دين الله بمعارضته، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعهم.

ثم إن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعتمد على أصل، وهو أن بلالا كان يؤذن قبل الفجر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا لصلاة الفجر، ولكن ليرجع القائم ويوقظ النائم، كما قال ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر عثمان بالأذان الأول يوم الجمعة، لا لحضور الإمام، ولكن لحضور الناس؛ لأن المدينة كبرت واتسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجمعة قبل حضور الإمام، من أجل أن يكون حضورهم قبل حضور الإمام.

(١) **الزوراء**: ماء لبني أسد، وقيل موضع بالسوق بالمدينة، (فتح الباري، لابن رجب (٨/ ٢١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٨)، برقم: (٩١٢)، كتاب الجمعة، باب الأذان يوم الجمعة.
(٣) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد القسطلاني (٢/ ١٧٧).

فأهل السنة والجماعة يتبعون ما أوصى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الحث على التمسك بسنته، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، إلا إذا خالف كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونعتذر عن هذا الصحابي، ونقول: هذا من باب الاجتهاد المعذور فيه[١].

فهذا أيضًا من الأعمال المباركة التي قام بها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد نظر إلى المصلحة؛ لأن الناس في وقت خلافته قد كثروا، ويكون هذا الأذان الأول تنبيهًا للمسلمين على وقت صلاة الجمعة ليتركوا أعمالهم وينطلقوا إلى المسجد، لبعد بيوت بعض المسلمين من مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس فيما فعله بدعة محدثة.

رابعًا: الحسبة في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

سارت الحسبة في عهد الخليفة عثمان بن عفان على الطريقة نفسها التي سارت عليها في عهد من سبقه من الخلفاء، وقد أولاها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عناية خاصة بالإشراف على مصالح المسلمين، ومن ذلك ما يتعلق بالحسبة في الأسواق وغيرها، ومن حسبته على وُلاته الذين أمَّرهم على الأمصار أنه كتب إليهم في أول ولايته يقول: «أما بعد: فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعاة، وإنَّ صدْر هذه الأمة قد خُلقوا رعاة و لم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يكونوا جباة ولا يكونوا رعاة، فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، فعليكم أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم وتأخذوا بما عليهم، ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوا بالذي عليهم، ثم العدو والذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»[٢].

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٨/ ١٣٩).
(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٢٤٥).

وقد باشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحسبة بنفسه؛ ففي سنن البيهقي أنه كان يقول وهو على المنبر: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِيَّاكُمْ وَالْمَيْسِرَ يُرِيدُ النَّرْدَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ ذُكِرَتْ لِي أَنَّهَا فِي بُيُوتِ نَاسٍ مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَتْ فِي بَيْتِهِ فَلْيَحْرِقْهَا أَوْ فَيَكْسِرْهَا، قَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ كَلَّمْتُكُمْ فِي هَذَا النَّرْدِ، وَلَمْ أَرَكُمْ أَخْرَجْتُمُوهَا وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحُزَمِ الْحَطَبِ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى بُيُوتِ الَّذِينَ هِيَ فِي بُيُوتِهِمْ، فَأُحَرِّقَهَا عَلَيْهِمْ»[(١)].

خامسًا: الفتوحات الإسلامية:

في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فُتحت العديد من البلدان وتوسعت الدولة الإسلامية، فقد فتحت في أيام خلافته أرمينية وخراسان وكرمان وسجستان وإفريقية وقبرص، وقد أنشأ أول أسطول بحري إسلامي لحماية الشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين[(٢)].

فكانت فتوحات عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متنوعة، نبينها باختصار في النقاط الآتية:

١- فتح أذربيجان:

غزا الوليد بن عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إمارته على الكوفة زمن الخليفة عثمان بن عفان أهل أذربيجان؛ لأنهم حبسوا ما كانوا يدفعونه في عهد عمر، ووطئهم بالجيش فلما رأوا ذلك، انقادوا له وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح[(٣)].

---

(١) السنن الكبرى، للبيهقي (١٠/ ٢١٥)، برقم: (٢١٠١٧)، كتاب الشهادات، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب كراهية اللعب بالنرد أكثر من كراهية اللعب بالشيء من الملاهي.

(٢) الخلافة والخلفاء الراشدون، محمود شاكر (١/ ٢٢٢).

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٤/ ٢٤٦).

٢- فتح خراسان:

ذهب سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الكوفة غازيًا يريد خراسان ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خراسان، فسبق سعيدًا ونزل أبرشهر، ونزل سعيد قوميس، وهي صلح، صالحهم بعد نهاوند، فأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى طميسة، وهي كلها من طبرستان جرجان، وهي مدينة على ساحل البحر، فقاتله أهلها حتى صلى صلاة الخوف، وحاصرهم ففتحوا الحصن[١].

٣- فتح قبرص:

لما أذن الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمعاوية بن أبي سفيان بركوب السفن والاستعانة بها في الغزو البحري، بعد أن كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد منعه من ذلك، وقد اشترط عليه عثمان شرطًا بقوله: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيِّرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه»[٢]، فلما قرأ معاوية ذلك، كتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا، حيث رممه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص.

فكانت عكا مكان انطلاق الأسطول البحري لغزو قبرص، فبعد نهاية شتاء سنة ٢٨هـ / ٦٤٩ م أَعد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المراكب اللازمة لحمل الجيش، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجته فاختة، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان، ورغم أن معاوية لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٥٠).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٢٦٠).

جيش كبير، وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص، ونزلوا إلى الساحل، فتقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وألقت أم حرام على الأرض فاندقت عنقها فماتت، ودفنت هناك، واجتمع معاوية بأصحابه، وكان فيهم أبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازني، والمقداد بن الأسود، وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبروهم أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم، ولكن أرادوا دعوتهم للإسلام، ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام؛ وذلك لأن البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون فيها إذا غزوا ويتمونون منها إذا قل زادهم، فكانت بلدًا مهمة لإخضاعها تحت سيطرة المسلمين، ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا، بل تحصنوا في العاصمة ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين.

ثم تقدم المسلمون إلى قسطنطينا عاصمة قبرص وحاصروها، وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وأجابهم المسلمون لذلك، وقدموا شروطًا للمسلمين، كما اشترط عليهم المسلمون شروطًا، أما شرط أهل قبرص كانت في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطًا تورطهم مع الروم؛ لأنه ليست لهم قدرة بهم، وأما شروط المسلمين فكانت: ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة إذا هاجم سكانها محاربون، وأن يدلوا المسلمين على تحركات عدوهم من الروم، وأن يدفعوا للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام، وألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، وألا يطلعوهم على أسرارهم[1].

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٥٩)، وتاريخ الطبري (٥/ ٢٦٠).

٤- ردع التمرد في الإسكندرية:

عندما خرجت الإسكندرية من سيطرة الروم، عملوا على تحريض من بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، وصادف هذا التحريض رغبة عند سكانها فاستجابوا للدعوة، وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلة عدد المسلمين ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان، ثم نهب منويل وجيشه الإسكندرية، وخرج بجيشه من الإسكندرية يقصد مصر السفلي دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحابه، أما عمرو فقد رأى أن يتركهم يقصدونه، وأمعن الروم في إفسادهم ونهبهم وسلبهم، وضج المصريون من فعالهم، وأخذوا يتطلعون إلى من يخلصهم منهم.

حتى حاصر عمرو بن العاص جيش الروم في الإسكندرية، فنصب عليها المجانيق فضرب أسوار المدينة حتى تمت السيطرة عليها فدخلها المسلمون، ثم تواصلت الحرب حتى شد المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم، فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم فانتصر المسلمون، وصالح أهل تلك البلاد على الجزية، وأما شمالها فكان في قبضة الروم[1].

٥- معركة ذات الصواري:

هي معركة بحرية وقعت في عام ٣٥ هـ، الموافق لعام ٦٥٥ م، بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية، وانتهت بنصر المسلمين، ومثلت هذه المعركة نهاية سيطرة الدولة البيزنطية على البحر المتوسط، وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان البيزنطيون تحت قيادة قسطنطين الثاني ابن أخي هرقل.

(١) ينظر: فتوح مصر والمغرب، عبد الرحمن المصري (ص٢٠٣).

وسببها: أن الروم أصيبوا بضربة حاسمة في إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل المتوسط، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولًا بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة لضرب المسلمين ضربة يثأر فيها لخسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان بن عفان بصد العدوان، فدارت معركة سميت بذات الصواري؛ لكثرة المراكب وصواريها، فسار قتال قاسٍ بين الطرفين، وسالت الدماء على الماء في البحر، وقتل الكثير من الطرفين، وانتصر المسلمون وثبتوا في هذه المعركة ثباتًا عظيمًا، وأبلوا بلاء حسنًا، وكاد أمير قسطنطين أن يقع أسيرًا في أيدي المسلمين لكنه تمكن من الفرار[1].

فهذه أهم الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دعمًا لحركة الفتوحات الإسلامية، وزيادة رقعة الدولة الإسلامية، مما نتج عنه انتشار الإسلام، ودخول خلق كثير في الدين الحنيف.

استشهاده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تصدى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للفتن التي ظهرت في عهده، وواجه بحكمة مخاطرها على المجتمع المسلم، ومن أخطرها فتنة السَّبئيين التي قاد لواءها ابن السوداء عبد الله بن سبأ، وحرَّض الناس على الخروج على خليفة المسلمين، مع ادعائه لادعاءات باطلة، وإشاعات كاذبة، ومن جملة عقائده الخبيثة: (إنه كان لكل نبي وصي، وعلي وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووثب على وصيه، وإن عثمان أخذها بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر، وابدؤوا

(١) ينظر تفاصيل المعركة في: تاريخ الطبري (٤/ ٢٩١).

بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[١]، فتكاثر أهل الفتن في كل مكان، وعقدوا العزم على قتل الخليفة، وإشعال نار الحرب، ثم ظُلم الخليفة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتله.

وقد سلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهجًا حكيمًا تعامل به مع هذه أثناء الفتنة، حيث أمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصَّبر، والاحتساب، وعدم القتال حتَّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وقد وفَّى ذو النُّورين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بوعده، حتَّى خرَّ شهيدًا والمصحف في يده، « والذي يدل عليه مجموع الأخبار عن موقف عثمان من أمر الدفاع عنه أو الاستسلام للأقدار، هو أنه كان يكره الفتنة، ويتقي الله في دماء المسلمين، وكان لا يظن أن الجرأة تبلغ بفريق من إخوانه المسلمين إلى أن يتكالبوا على دم أول مهاجر إلى الله في سبيل دينه، فلما تذاءب عليه البغاة واعتقد أن الدفاع عنه تسفك فيه الدماء جزافًا؛ عزم على كل من له عليهم سمع وطاعة أن يكفوا أيديهم وأسلحتهم عن مزالق العنف»[٢].

صلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاة الصبح ذات يوم، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «إني رأيت أبا بكر وعمر أتياني الليلة فقالا لي: صم يا عثمان فإنك تفطر عندنا، وإني أشهدكم أني وقد أصبحت صائمًا، وإني أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخرج من الدار سالما مسلوما منه»، ثم دعا بالمصحف فأكب عليه ما طوى المصحف، ولبس السراويل في هذا اليوم؛ لئلا تبدو عورته إذا قتل، فإنه كان شديد الحياء»، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) ينظر: الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الأسدي التَّمِيمي (ص٤٨).
(٢) العواصم من القواصم، القاضي محمد أبو بكر بن العربي (ص١٣٢).

فِتْنَةً، فَمَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ: «يُقْتَلُ فِيهَا هَذَا الْمُقَنَّعُ يَوْمَئِذٍ مَظْلُومًا»، قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ[١].

وكان قد قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوسط أيام التشريق من سنة خمس وثلاثين، وقيل: قتل يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة، وقد قتل مظلوما من قبل الخوارج، ودفن ليلة السبت، بين المغرب والعشاء بالبقيع، وقيل: كان يوم قتله يوم الأربعاء، وقيل: يوم الاثنين لست بقين من ذي الحجة، وكان له يوم قتل اثنتان وثمانون سنة، وقيل: إحدى وثمانون سنة، وقيل غير ذلك، صلى عليه الزبير ودفنه، وكان أوصى بذلك إليه[٢].

ولما وقع هذا الأمر العظيم الفظيع الشنيع، أُسقط في أيدي الناس، فأعظموه جدًّا، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلمَّا قُتل عثمان، تفرَّقَتِ القلوب، وعظُمت الكروب، وظهر الأشرارُ، وذلَّ الأخيار، وسعى في الفتنة مَن كان عاجزًا عنها، وعجز عن الخير والصَّلاح مَن كان يُحب إقامته»[٣].

إن للقلب مرضًا كما أن للبدن مرضًا، وإن مرض القلب أعصى من مرض البدن، وهي أشد فتكًا بالإنسان؛ لأنها متعلقة بدينه، وتحدد مصيره في آخرته، ومن أعظم أمراض القلوب التي تورد أصحابها المهالك في الدنيا والآخرة: الشبهات التي تعلق بالقلوب حتى يظن أصحابها أنهم على هدى وهم على ضلال، ويحسبون

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، (٦/ ٧٥) برقم: (٣٧٠٨)، أبواب المناقب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٧٠)، برقم: (٦٠٦١)، مسند عبد الله بن عمر، وقال ابن حجر في الفتح: (٧/ ٤٦): إسناده صحيح.

(٢) ينظر القصة كاملة في: تاريخ الطبري (٤/ ٣٦٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠٤).

أنهم يحسنون صنعًا وهم مخطئون، كحال قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو أنهم فهموا نصوص الكتاب والسنة، ولم يخرقوا إجماع الأمة، لما ضلوا الصراط المستقيم، ولما رفعوا السلاح على المسلمين، واستحلوا الدماء المحرمة التي شأنها عند الله تعالى عظيم.

المبحث الرابع

أهم ملامح الدعوة في عهد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]

أول من أسلم من الصبيان ومن العشرة المبشرين بالجنَّة، شجاعٌ مِقدام، شهد بدرًا، وأُحدًا، والخندق، وبيعة الرِّضوان، وجميعَ المشاهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلاَّ تبوك وكان يعيش في كنف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرف بالشجاعة والخطابة والبلاغة، كما عرف ببراعته في القضاء، وقد اشتهرت فضائله ومناقبه، وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانته منه في عدة مواقف، حتى قال الإمام أحمد وغيره: «لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي»[٢]، وأعطاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللواء في مواطن كثيرة بيده.

خلافتــه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حريصًا على إسداء النصيحة لعثمان، والإصلاح بين الناس عندما هاجت الفتنة، وحاول الدفع عن عثمان، وأرسل الحسن والحسين للمشاركة في حراسة داره، وأرسل إليه الماء حين منع الثوار الماء عن داره، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه حين طلبه وقت الحصار بسبب خطورة الثوار المحاصرين، وكان الثوار

---

(١) هو الصحابي الجليل ورابع الخلفاء الراشدين، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، كانت من المهاجرات، توفيت في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، ولد علي قبل البعثة النبوية بعشر سنين، وأسلم وهو في الخامسة من عمره أو الثامنة أو العاشرة كفله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتولى تربيته ليخفف عن عمه شيئًا من مؤونة العيال وحينما بعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان علي لا يزال في حجره، فدعاه إلى الإسلام فآمن به وصدقه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لعليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت منِّي وأنا منك»، توفي سنة ٤٠هـ. ينظر ترجمته في: الإصابة، لابن حجر (٤/ ٤٦٤).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (٧/ ٧١).

يغلب عليهم إظهار القول الحسن، والقراءة الجيدة للقرآن، والصلاة الحسنة، فلم يتصور أحد أنهم يجرؤون على قتل الخليفة، فلما حصل الأمر ووقعت الفتنة، أصيب المسلمون ببلاء عظيم، عسر عليهم معالجة الوضع، وقد كان الثوار يعرضون الخلافة على غير علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لاكن لم يكن أحدٌ ليقبل منهم السلطة في ظروف الفتنة.

يقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن توليه الخلافة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَقَدْ طَاشَ عَقْلِي يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ، وَأَنْكَرْتُ نَفْسِي وَجَاؤُونِي لِلْبَيْعَةِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ أَنْ أُبَايِعَ قَوْمًا قَتَلُوا رَجُلًا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **أَلَا أَسْتَحْيِي مِمَّنْ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ أَنْ أُبَايِعَ وَعُثْمَانُ قَتِيلٌ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ، فَانْصَرَفُوا، فَلَمَّا دُفِنَ رَجَعَ النَّاسُ فَسَأَلُونِي الْبَيْعَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي مُشْفِقٌ مِمَّا أَقْدَمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَتْ عَزِيمَةٌ فَبَايَعْت، فَلَقَدْ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي، وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ خُذْ مِنِّي لِعُثْمَانَ حَتَّى تَرْضَى**»[1]، وقد اجتمع أهل المدينة على بيعته رغم أنه أظهر عدم رغبته في ذلك، ثم وافق منعًا للفتن، وحرصًا على الأخوة الإسلامية، مع أنه يعلم أنه أصبح أولى الناس بالخلافة وأحقهم بها.

أهم ملامح الدعوة في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أولًا: تحكيم الشرع الحنيف:

اشتغل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد استخلافه بمواجهة المعارضين له، فخاض غمار المعارك الطاحنة ضدهم في الجمل وصفين والنهروان، وأظهر قدرة فائقة على تعبئة الجيوش وقيادة الناس وتوضيح أحكام الشرع في الحروب الداخلية بين المسلمين، ومنها:

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٩٥)، برقم (٤٥٥٣)، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فضائل أمير المؤمنين ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

الكف عن المدبر، والإحسان إلى الأسير وإطلاقه بعد انتهاء المعركة، أو أخذ العهد عليه أن لا يعود للقتال، وعدم قسمة أموالهم، واعتبارها غنيمة سوى السلاح والكراع الذي حملوه في الحرب، وعدم سبي النساء والذراري، وعدم حرمان المخالفين من حقهم في الفيء أو الصلاة في المساجد، وعدم بدئهم بالقتال[١].

ثانيًا: الاهتمام بشؤون الرعية:

كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يراقب ولاته ويسائلهم عن سياستهم تجاه الدولة والرعية، كما فتح بابه لاستقبال شكاوى الرعية ضد الولاة، فكان يقول: «اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك أو يتركوا حقك»[٢].

وذكر ابن كثير أنه جاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكتب حاجتك على الأرض، فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك، فكتب: إني محتاج، فقال علي: علي بحلة، فأُتي بها فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشد شعرًا فأمر له بمائة دينار، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذه منزلة الرجل عندي»[٣].

ثالثًا: الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك:

كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقافًا عند حدود الله غيورًا على دينه، سباقًا إلى محو آثار الشرك والدعوة إلى توحيد الله تعالى، يدل على ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه

---

(١) ينظر: عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري (ص٩٢).
(٢) السياسة الشرعية، لابن تيمية (ص٢٧).
(٣) البداية والنهاية، لابن كثير (٨/ ٩).

عن أبي الهيَّاج الأسَدي قال: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»[١].

رابعًا: الحسبة في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إن الفتن والقلاقل التي ألمت بالأمة الإسلامية زمن خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم تُثنه عن القيام بالحسبة بنفسه، أو إسنادها إلى غيره؛ كل ذلك استشعارًا منه أن هذه الوظيفة لا يمكن إهمالها أو التغافل عنها مهما كانت الظروف؛ لكونها ركيزة من ركائز المجتمع المسلم الأساسية، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حريصًا على مباشرة الاحتساب بنفسه في مجالات متعددة، ومن ذلك: احتسابه في الأسواق، فعن الحر بن جُرْمُوز عن أبيه قال: «رَأَيْتُ عَلِيًّا وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْقَصْرِ وعليه قبطيتان إِزَارٌ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ وَرِدَاءٌ مُشَمَّرٌ قَرِيبٌ مِنْهُ، وَمَعَهُ دِرَّةٌ لَهُ يَمْشِي بِهَا فِي الأسواق ويَأمر النَّاسَ بِتَقْوَى اللهِ وَحُسْنِ الْبَيْعِ وَيَقُولُ: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَيَقُولُ: لَا تَنْفُخُوا اللَّحْمَ»[٢]، وروى الإمام عبد الله بن الإمام أحمد عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال للناس: «تَسْتَحْيُونَ، أَوْ تَغَارُونَ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ نِسَاءَكُمْ يَخْرُجْنَ فِي الْأَسْوَاقِ يُزَاحِمْنَ الْعُلُوجَ»[٣].

وقد استعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعاونين له على هذه الشعيرة العظيمة، فأسند أمر الحسبة إلى غيره، فعن عبد الملك بن عمير قال: استعملني علي بن أبي طالب على مدرج سابور[٤]، فقال: « لا تَضْرِبَنَّ رَجُلا سَوْطًا فِي جِبَايَةِ دِرْهَمٍ، وَلا تَتْبَعَنَّ لَهُمْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٦١)، برقم: (٩٦٩)، كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر.
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٨/ ٣).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، (١/ ٢٩٤)، برقم: (١١٣٣)، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال أحمد شاكر: حسن صحيح.
(٤) **سابور:** مدن من مدن فارس. معجم ما استعجم، أبو عبيد البكري (٣/ ٧١١).

رِزْقًا وَلا كِسْوَةً شِتَاءً وَلا صَيْفًا، وَلا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلا تُقِيمَنَّ رَجُلا قَائِمًا فِي طَلَبِ دِرْهَمٍ. قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَنْ أَرْجِعُ إِلَيْكَ كَمَا ذَهَبْتُ مِنْ عِنْدِكَ. قَالَ: وَإِنْ رَجَعْتَ وَيْحَكَ! إِنَّمَا أُمِرْنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْهُمُ الْعَفْوَ- يَعْنِيَ الْفَضْلَ»[1].

كما اعتنى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالدعاة والوعاظ في عهده، من خلال توجيههم الوجهة الصحيحة، وتحذيرهم من الجهل والخرافات، مع تقويم أخطاء الدعاة ومعالجتها، ولذلك نماذج عدة، منها تصحيحه لفتوى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عزم على رجم المرأة المجنونة التي زنت، فبين له علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها ممن رُفع القلم عنهم[2]، وكذلك موقفه مع ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد صحح له حديثًا سمعه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]، وهكذا كان الخليفة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يتوانى عن تصويب ما يراه خطأً من الدعاة، سواء من ولاة الأمور أو غيرهم من عامة الناس.

وهكذا قام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بواجب الدعوة إلى الله تعالى، من خلال تطبيقه لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بذلك بنفسه رغم اشتغاله بأمور الخلافة وسياسة الرعية، ثم اتخاذه لمعاونين له يقومون بالنصح للناس وإرشادهم إلى الخير ودلالتهم على الحق، وتحذيرهم من الجهالة.

---

(١) أسد الغابة، لابن الأثير (٣/ ٦٠٠).

(٢) القصة أخرجها الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٥٩) برقم: (٩٥٥)، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم ، مسند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والنسائي في الكبرى، (٦/ ٤٨٧) برقم: (٧٣٠٣)، كتاب الرجم، المجنونة تصيب الحد، وقال الألباني في إرواء الغليل (٢/ ٥): صحيح.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢١٤)، برقم: (٧٢٥)، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩٨): رجالة ثقات.

خامسًا: الفتوحات الإسلامية:

توقفت حركة الفتوحات الإسلامية في عهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نتيجة للفتن والمشكلات الداخلية[١].

سادسًا: ظهور الفتن:

ظهرت العديد من الفتن والبدع والتيارات الفكرية المنحرفة مثل: الخوارج وما قاموا به من أعمال عنف دامية، أضرت بمسيرة الدعوة الإسلامية، وقد قام الخليفة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمحاولات لتصحيح مفاهيمهم، وتقويم المعتقد والفكر الذي ابتدعوه، وذلك من خلال إرسال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليهم ومناظرتهم ومحاججتهم، ودعوتهم إلى الحق والصواب؛ مما أثمر عنه رجوع عدد منهم إلى جادة الصواب وترك الضلال[٢]، بينما وقف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل حزم وقوة أمام الخوارج حينما لم يُجد نصحهم ووعظهم، وهذا يؤكد ما سار عليه الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بتمسكهم بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحرص على الجماعة وتجنب الفرقة، وتصحيح الأخطاء؛ دعوة إلى الله ورفقًا بالمدعو.

وقد تظافرت النصوص وتنوعت في النهي عن الفرقة والاختلاف، والأمر بالاعتصام ولزوم الجماعة، وبينت أن الاجتماع والائتلاف رحمة، والفرقة والاختلاف زيغ وعذاب، وفي الحديث: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٣].

---

(١) تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (٢/ ٩٣).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٦٥-٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٧٦)، برقم: (١٨٤٨)، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أشد الناس تحذيرًا من التفرق ونهيًا عن الاختلاف، ومن ذلك قول الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إياكم والفرقة بعدي»[1].

تحتاج الدعوة إلى الله تعالى إلى تعاون مع توحيد الصف والمنهج، حتى تُحقق أهدافها السامية، أما التفرق فهو أكبر عائق في تحقيق ذلك، وإن التفرق الذي يقع بين الدعاة ما وقع إلا لعدم فقه الدعوة من الكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح.

أهم الأحداث في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

شاء الله تعالى أن تطول الفتنة بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتتجدد أحداثها بمكر وحيل أعداء الإسلام، ابتلاء وامتحانا للمسلمين، فهو سبحانه حكيم في قضائه عليم في أقداره، ومعروف عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصرامة والحزم والصلابة والشدة في الحق، وقد بادر عقب بيعته فأصدر أمرين في منتهي الصرامة وهما:

عزلُ ولاة عثمان (وهم من بني أمية)، واسترداد القطائع والهبات التي منحها عثمان لأقاربه من بيت المال، وتصرفه هذا نتج عنه عدم مبايعته من البعض، وتمثل ذلك في معاوية بن أبي سفيان (والي الشام)، أما باقي الأمصار الإسلامية فقد بايعت عليًا، واستتب الأمر فيها.

والثاني: أجَّل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معاقبة قتلة عثمان؛ ريثما يستقر حكمه ويجتمع عليه المسلمون في البلاد الأخرى.

وقد نتج عن استغلال الحاقدين لهذا الخلاف حربان مؤسفتان بين المسلمين، دفاعًا عما يعتقده كل فريق من الحق والصواب، فكانت الأولى:

---

(١) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير (١١/ ٤٢٢).

(أ) معركة الجمل (٣٦هـ):

وسببها أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومعها طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ساروا إلى البصرة ومعهم كثير من الناس، بنية تأليف القلوب وتهدئة الوضع المضطرب، والإصلاح بين الناس حينما اختلفوا بعد استخلاف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممتثلين بذلك قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤]، وبعد أن سمع علي بخروج عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى البصرة، خرج بجيشه يريد الإصلاح أيضًا، بدليل قوله عنه عندما سئل أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب؟ فقال: «أما الذي نريد وننوي: فالإصلاح إن قَبلوا منا وأجابونا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليه قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونسير، قال: فإن لم يرضوا، قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا، قال: امتنعنا منهم، قال: أي السائل: فنعم إذًا»[(١)]، ودار الحوار والتفاهم بينه وبين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومن معها، وبات الجيشان بخير ليلة، ولكن أهل الفتنة – عبد الله بن سبأ ومن معه – خافوا على أنفسهم من الاتفاق بين الطرفين، فقاموا مع الفجر وانقسموا قسمين، وهجم كل قسم على معسكر الآخر، فقام الناس إلى سلاحهم وهم يظنون الغدر، واشتبك المسلمون في قتال مرير حتى عقر جمل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فتفرق الناس وانتهت المعركة ورجعت عائشة إلى مكة بعد أن جهزها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ما تحتاج وسار بجانب هودجها ماشيًا، حتى خارج المدينة وسيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر، وسيَّر أولاده معها مسيرة يوم[(٢)].

---

(١) ينظر تفاصيل الوقعة في: البداية والنهاية (٧/ ٢٢٩).

(٢) الخلفاء الراشدون أعمال وأحداث، د. أمين القضاة (ص٩٣).

(ب) معركة صفين (٣٧هـ):

وهي المعركة الثانية نتيجة لهذا الخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان أصحاب علي وأصحاب معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد تكاتبا مدة ستة أشهر قبل المعركة، وهذا يدل دلالة واضحة على كرههما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للقتال ورغبتهما في الإصلاح، ولكن لم يتوصلا إلى نتيجة خلال هذه المدة، فدارت بينهما معارك متساوية النتائج، وإن كانت الكفة راجحة لصالح علي، ومع ذلك كان الكثير من أفراد الجيشين يلتقون في الليل ويتحدثون[1].

ثم خاف المخلصون أن يُفني المسلمون بعضهم بعضًا، فتمنوا ما ينقذهم ويوقف القتال، وكان عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفكر مليًّا بذلك، حتى اهتدى إلى فكرة التحكيم، ليوقف تلك المقتلة الكبرى، عند ذلك أبدى الفكرة لمعاوية، ففرح بها ورفع جيش الشام المصاحف، فهاب جيش علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتالهم، وتوقف القتال وتفرق الجيشان بعد مسألة التحكيم ومضى كل إلى بلده.

(جـ) الخوارج ومعركة النهروان (٣٨هـ):

كان الخوارج ضمن جيش علي، فخرجوا عليه بعد التحكيم واعتزلوه؛ لأنه قبل التحكيم، والعجيب أن أكثرهم كانوا قد أرغموا عليًا على قبول التحكيم، وطالب هؤلاء بالعودة لقتال معاوية، فرفض طلبهم، فانحازوا إلى منطقة حروراء، وصمموا على القتال، ثم إن هذه الجماعة أخذت تزداد وتتجمع في منطقة النهروان، فأخذوا يقتلون المسلمين، ويعيثون فسادًا في الأرض، فخرج إليهم علي وجادلهم

(١) المرجع السابق (ص٩٤).

طويلًا، وبين لهم خطأ مذهبهم بكل طريقة، فارتدع بعضهم، أما الأكثرية فصمموا على القتال، فنشب القتال، وأبادهم علي تمامًا، ولم ينج منهم إلا عدد قليل[١].

وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد الحذر من الخوارج، وبين لأمته بعض صفاتهم، وأنهم شر الخلق والخليقة، فعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي -أَوْ سَيَكُونُ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي- قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ**»[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخوارج المارقون الذين أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم»[٣].

وأن من صفاتهم أنهم يرفعون شعارات مستقاة من الكتاب والسنة؛ للتمويه على الناس واستدراجهم، فالخوارج في زمن علي بن أبي طالب رفعوا شعار لا حكم إلا لله، وهي كلمة حق أُريد بها باطل كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يختلف العلماء قديمًا وحديثًا أن الخوارج قوم سوء عصاة لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن صلوا وصاموا، واجتهدوا في العبادة، فليس ذلك بنافع لهم، ويظهرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس ذلك بنافع لهم؛ لأنهم قوم يتأولون القرآن على ما يهوون، ويموهون على المسلمين، وقد حذرنا الله تعالى

---

(١) ينظر تفاصيل المعركة في: تاريخ الطبري.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١١٦) برقم: (١٠٦٧)، كتاب الزكاة، باب الخوارج شر الخلق والخليقة.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣/ ٢٨٢).

منهم، وحذرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحذرناهم الخلفاء الراشدون بعده، وحذرناهم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان..»[1].

وإن من الخطر على المجتمع المسلم أن هذه الأفكار لا زالت راسخة في بعض من ينتسب للإسلام وأهله في عصرنا الحالي، ومسؤولية الدعاة آكدة في مواجهة هذه الجماعات وحصار أفكارهم وكشف أباطيلهم؛ لحماية المجتمعات المسلمة من خطرهم.

إنّ الله حين اختار نبيّه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتبليغ رسالته، اختار له أصحابًا على شاكلته، عزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذي أنزل معه، عاشوا تحت راية نبيّهم سعداء، وماتوا صديقين أو شهداء، كان التّوحيد مبدأهم، والحب ديدنهم، والصلاة والصيام والصدقة وصلة الأرحام منهجهم، ورضا الله غايتهم، ملؤوا الدنيا نورًا، وأشاعوا في الكون بهجة وسرورًا، وقادوا الإنسانية إلى ركب الحضارة المستنيرة، وأرسوا قواعد الدين فلم يغيروا ولم يبدّلوا، حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلًا من الله ونعمة.

(١) الشريعة، للإمام الآجري (١/ ٣٢٥).

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. ما أهم ملامح الدعوة في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟
٢. ما أهم ملامح الدعوة في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟
٣. ما أهم ملامح الدعوة في عهد ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟
٤. ما أهم ملامح الدعوة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟
٥. اهتم الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالقرآن الكريم وخدمته، لكونه المصدر الأول للدعوة، تحدث عن مظاهر ذلك الاهتمام.
٦. ما أبرز المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام في عهد الخلافة الراشدة؟ مع ذكر بعض آثرها على الدعوة الإسلامية.

الفصل الرابع

تاريخ الدعوة في العهد الأموي ونماذج من الدعاة فيه (٤١-١٣٢هـ)

وَفِيهِ مَبحَثَان:

* المبحثُ الأولُ: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ الإسلاميةِ فِي العهدِ الأمويّ.
* المبحثُ الثانِي: نماذجُ منَ العلماءِ فِي العهدِ الأمويِّ.

مدخل

استمرت الخلافة الأموية إحدى وتسعين عامًا، (٤١ - ١٣٢هـ)، وكان أول خلفائها معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وآخرهم مروان بن محمد.

ابتدأت بتنازل الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٤١هـ، وبالحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اكتملت خلافة النبوة ثلاثون سنة، فلما توفي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصلى عليه ابنه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بايعه الناس بالخلافة، ثم ألحوا عليه في النفير لقتال أهل الشام، ولم يكن من نيته أن يقاتل أحدًا، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعًا عظيمًا لم يسمع بمثله، وسار بالجيوش قاصدًا بلاد الشام، ثم حصل في الجيش فتنة واختلاف وتفرق، فلما رأى الحسن بن علي تفرق جيشه عليه مقتهم، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يراوضه على الصلح بينهما، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، وتم الصلح، وبايع لمعاوية بالخلافة وبايعه الناس، وتنازل له عنها، ولهذا يقال له عام الجماعة؛ لاجتماع الكلمة فيه على معاوية[1].

وقد مدحه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صنيعه هذا، وهو تركه الإمارة وحقنه لدماء المسلمين، روى البخاري عن أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ**»[2].

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ١٥٨)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٨/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ١٨٦) برقم: (٢٧٠٤)، كتاب الصلح، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ابني هذا سيد.

وكان من أهم ملامح هذا العصر: أن حدثت تغيرات كبيرة في أواخر الخلافة الراشدة، كمقتل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتغيرت رقعة العالم الإسلامي نتيجة الفتوح الكثيرة، وامتد التوسع الإسلامي شرقًا وغربًا، وصارت دمشق مقرًا للعاصمة الإسلامية الجديدة، وتغيرت طبيعة الحياة البشرية، فانتقل الناس من حياة الزهد والتقشف التي ألفوها في صدر الإسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين، إلى حياة فيها الكثير من التوسع والترف.

وفي هذا الفصل بيان لأهم ملامح الدعوة في هذا العهد، مع ذكر نماذج من العلماء والدعاة فيه.

المبحث الأول

أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد الأموي

شهد العهد الأموي مسارات عدة في تاريخ الدعوة إلى الله تعالى، نشير إلى ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الحالة العلمية والفكرية والدعوية:

١- تابعت الدعوة الإسلامية امتدادها العلمي والفكري، وشهدت نهضة علمية كبرى، «فكان الجنود يفتحون كل يوم أرضًا جديدة، فيعقبهم العلماء بالفقه والتشريع والحديث والتفسير يشرحون الإسلام، ويعلمون الناس قضاياه، وقد تفرق هؤلاء في جميع أنحاء المملكة الإسلامية، فنتج عن ذلك حركة علمية في كل بلد نزلوا فيها، وتكوَّنت مدارس العلوم وحلقاته في كل مكان، حتى أحدث ذلك حركة علمية سيطرت على الساحة الإسلامية كلها، وربطت بين أبناء الحضارة الإسلامية برباط واحد، وقد نجح الإسلام في إذابة النعرات الجنسية والفوارق بين الأجناس، وفي إنشاء كيان موحد تنمحي فيه الثارات، وتقدم المسلمون عربًا وعجمًا يخدمون دعوتهم، ويبنون دولتهم، وأصبح الموالي في البلاد المفتوحة يضارعون العرب الأقحاح، ويبزونهم في التفوق العلمي»[(١)].

وكانت الحركة العلمية بمختلف اتجاهاتها في العصر الأموي، امتدادًا للحركة العلمية التي بدأت منذ عهد النبي ﷺ ونمت في عهد الخلفاء الراشدين، وأخذت العلوم تتمايز عن بعضها، ويصبح لكل منها مدارسه ورجاله، بعد أن

(١) تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (٢/ ١٢١).

كانت العلوم ممتزجة بعضها في بعض، وعرف رجال بالتفسير وآخرون بالحديث، واختص غيرهم بالفقه[١].

٢- حركة تدوين العلوم: خطت الحركة العلمية خطوة كبيرة في ذلك الوقت، ببدء حركة تدوين العلوم، فلم يكن الأمويون رجال سياسة وإدارة من طراز عال فحسب، بل إن عصرهم شهد بداية نمو الحركة العلمية في كل مجال من مجالات العلوم.

فبدأ تدوين علم الحديث في هذا العصر، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه في العصر الأموي: محمد بن شهاب الزهري، وابن جريج المكي، وسفيان الثوري، والإمامان: أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس.

وأول من فكر في جمع الحديث وتدوينه كما تذكر الروايات، هو عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من التابعين[٢]، فإنه كتب إلى عامله وقاضيه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاكْتُبْهُ؛ فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلْتُفْشُوا الْعِلْمَ، وَلْتَجْلِسُوا؛ حَتَّى يُعَلَّمَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا»[٣].

وفي هذا العهد ظهر ما يسمى بعلم الجرح والتعديل أو علم الرجال، والغرض منه: الكشف عن أحوال رواة السنة، وتمييز الصادق من الكاذب، والضابط من

---

(١) ينظر: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المؤلفين (٢/ ٧٠).

(٢) تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، محمد بن مطر الزهراني (٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٣١)، برقم: (٩٩)، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم.

الواهم، والموثوق بروايته من المطعون فيها، وقد كان السبب في إنشاء هذا العلم الجليل أنه في أعقاب الفتن التي شهدها العصر الأموي، ظهرت الفرق ذات الآراء السياسية المتعارضة والأهواء المذهبية المتعصبة، ففشا الكذب، وظهر الوضع، ولجأ أتباع هذه الفرق إلى الوضع في الحديث والأخبار، وهذا ما جعل العلماء يؤكدون على ضرورة التثبت في مصادر الرواية ويسألون عن الرجال الذين اشتركوا في نقلها[١].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّا كُنَّا نُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ لَمْ يَكُنْ يُكْذَبُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ، تَرَكْنَا الْحَدِيثَ عَنْهُ»[٢].

وبرز كثير من التابعين في علم التفسير، واشتهر منهم: مجاهد بن جبر، وعطاء ابن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين.

ولم تكن الدعوة الإسلامية في هذا العصر محصورة بأناس وأشخاص معينين، ولا دعاة مخصوصين، وإنما كان كل فرد في الأمة تقريبًا يشعر بواجب الدعوة عليه، فيعمل على نشر الإسلام وتمكينه في الأرض، لذا نشطت الدعوة الإسلامية من الركود الذي أصاب مسيرتها، وقام الدعاة بنشر الإسلام في البلاد المفتوحة، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وتنوعت وسائل الدعوة وأساليبها خلال العهد الأموي، اعتمادًا على ما كان متاحًا لدى الدعاة والعلماء والخلفاء، كبناء المساجد: فقد ازدهرت حركة بناء المساجد في عهد الأمويين ازدهارًا كبيرًا، فوسعوا المساجد

---

(١) ينظر: عناية العلماء بالإسناد وعلم الجرح والتعديل وأثر ذلك في حفظ السنة النبوية، صالح الرفاعي (ص١١).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١ / ١٠) برقم: (٧)، مقدمة، باب فِي الضعفاء والكذابين ومن يرغب عَنْ حديثهم.

التي كانت موجودة من قبل، كالمسجد الحرام والمسجد النبوي، وجامع عمرو بن العاص في الفسطاط، والمسجد الكبير في صنعاء باليمن، كما أقاموا العديد من المساجد الجديدة، ومن أشهرها: مسجد قبة الصخرة، الذى أنشأه عبد الملك بن مروان في القدس، والمسجد الأقصى الذى أنشأه ابنه الوليد، والمسجد الأموي الكبير في دمشق، الذى أنشأه الوليد أيضًا.

وكذلك بناء المرافق العامة: فقد اهتمت الدولة الأموية اهتمامًا كبيرًا بإنشاء الطرق، لربط أجزائها التي امتدت من الصين إلى الأندلس، وهى مسافة تبلغ (١٢) ألف كيلومتر من الشرق إلى الغرب، ولتيسير الاتصال ببعضها، ولتحقيق كثير من الأغراض، منها ما هو عسكري لتيسير حركة الجيوش، ومنها ما هو اقتصادي لتيسير حركة التجارة، ومنها ما هو إداري لتسهيل وصول الأخبار عن طريق رجال البريد، ومنها ما هو ديني لتسهيل وصول حجَّاج بيت الله الحرام من كل أنحاء الدولة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وإلى المدينة المنورة؛ لزيارة مسجد النبي ﷺ، وعمرت الطرق بالخانات والاستراحات، ليستريح الناس من وعثاء السفر، فوق ما كانت تتمتع به من أمن وأمان[1].

ثانيًا: الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة:

نشأت في هذا العهد بعض الفرق والجماعات التي جانبت المعتقد الصحيح، كالقدرية، والجهمية، والشيعة، والمرجئة، التي كانت أهم أسباب سقوط الدولة الأموية، ولم يخل الأمر من أناس حنقوا على الإسلام، وتآمروا عليه؛ لأنه أزال ملكهم، وقوَّض دولتهم.

(١) ينظر: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المؤلفين (٢/ ٦٩)

وقد بذل العلماء والدعاة جهودًا في الرد على هذه الفرق التي كانت لها أثر وسط عامة الناس، بل مارسوا ضد أهل الحق ألوانًا من التعذيب والاضطهاد، فلم يزدهم ذلك إلا ثباتًا على الحق، وصبرًا في سبيل نصرة دين الله، فعن الإمام مالك عن عمه أبي سهيل قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في القدرية: «أرى أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قتلوا، قال أبو سهيل: وذلك رأيي، قال مالك: وذلك رأيي»[١].

وقد سلك علماء السلف منهجًا حكيمًا في قمع أهل البدع عامة، كان له عظيم الأثر في مواجهة البدعة بالقمع، ودحض الأفكار الضالة، «فلقد كان المنهج المهيمن في العصر الأموي هو منهج السلف الصالح، وكان أهل البدع مقموعين في هذه الفترة، وكلما أظهر أحد المبتدعة مقالة؛ قوبلت بالاحتقار والازدراء، وكان أهل البدع يلقون الجزاء المباشر على إحداثهم في الدين، وكان من منهج السلف عدم الجدال، والمحاورة مع المبتدعة، وهجرهم حتى لا تتاح الفرصة لمبتدعاتهم بالانتشار»[٢].

يضاف إلى ذلك تسمية خاصة لأهل البدعة، تميزهم عن جمهور الأمة، الذين يدينون بالعقيدة الصحيحة؛ عقيدة السلف الصالح، ولذلك أطلقوا عليهم تسميات مثل: الخوارج، والقدرية، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، وهذا التصنيف لأهل البدع يمثل نوعًا من التحذير للأمة من الثقة بأصحابها أو التعامل معهم[٣].

---

(١) السنة، لابن أبي عاصم (١/ ٨٨).

(٢) العقيدة الإسلامية وجهود علماء السلف في تقريرها والدفاع عنها حتى نهاية العصر الأموي، د. عطا الله بخيت المعايطة (ص٧٢٢).

(٣) العقيدة الإسلامية وجهود علماء السلف في تقريرها والدفاع عنها حتى نهاية العصر الأموي، د. عطا الله بخيت المعايطة (ص٦٦٣).

ثالثًا: الفتوحات الإسلامية:

استأنف الجهاد في سبيل الله تعالى، وانتشرت حركة الفتوحات الإسلامية، فاتسعت دائرة الفتوحات، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، «فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبًا، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو، الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم طائفة عظيمة ينصر الله بهم دينه»[١].

وقد امتدت الدعوة الإسلامية في هذا العهد في ميادين ثلاثة[٢]:

(أ) في السند وما وراء النهر: واصل المسلمون الفتح في بلاد ما وراء النهر، على يد عبيد بن زياد بن أبيه، وقتيبة بن مسلم، فحطمت الأصنام، ودخل كثير من الناس في الإسلام، كما اتجه محمد بن القاسم الثقفي لجهة السند، وانتصر فيها انتصارات عظيمة.

(ب) وفي شمال إفريقية والأندلس كان لعقبة بن نافع فتح مهم حتى وصل إلى بلاد السودان، وأنشأ مدينة القيروان وجعلها مركزًا أساسيًا، وفي الأندلس والساحل الإفريقي كان لموسى بن نصير فتح مأزر، فانتشرت الدعوة الإسلامية، ورتب عمر بن عبد العزيز عشرة فقهاء من أعيان التابعين، فانتشروا في أنحاء الولاية، وأقبل الناس على الإسلام إقبالًا كبيرًا.

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٩/ ١٠٤).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٦/ ٤٦٨).

(جـ) وفي آسيا الصغرى وبلاد الروم تقدم الأمويون من دمشق لنشر الإسلام وتأمين الثغور الإسلامية، مستخدمين في ذلك أسطولًا ضخمًا، فتقدموا نحو القسطنطينية.

«ولم تكن تلك الفتوحات غزوًا عسكريًّا، مستغلًّا للشعوب ناهبًا لثرواتها، وإنما كانت فتحًا دينيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، فانتشر الإسلام في البلاد المفتوحة بخطى حثيثة، وتغيرت أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويمكن القول: إن هذا العالم الفسيح أصبح عالمًا إسلاميًّا واحدًا، فسيادة المسلمين عليه لا تنازع، والإسلام هو الدين الغالب في سماحة ورحمة، والحاكم في عدل، ولم تأخذ المسلمين نشوة النصر والغلبة التي قد تحملهم على الكبر والتعالي وإذلال الشعوب المغلوبة، بل عاملوهم معاملة كريمة، وصانوا أرواحهم وأموالهم وعقائدهم، وحفظوا عهودهم ومواثيقهم معهم، ووفوا بها في صدق وإخلاص، وأشركوا أبناءهم في حكم بلادهم وإدارتها»[1].

وكان من عوامل انتشار الإسلام في البلاد التي فتحت في هذا العهد؛ سياسة الأمويين الحكيمة، فقد «حافظ الأمويون على روح التسامح الإسلامي في سياستهم للبلاد المفتوحة إلى حد كبير، فالتزموا بنصوص المعاهدات وروحها التي أعطيت لأهالي تلك البلاد، فلم ينكثوا عهدًا أو ينقضوا معاهدة، وإذا حدث شيء من هذا، فإن الدولة تسارع بتصحيح الخطأ»[2].

---

(١) ينظر: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المؤلفين (٢/ ٩).
(٢) المرجع السابق (٢/ ١٣).

رابعًا: الحسبة في العهد الأموي:

لم تشر المراجع التاريخية بوفرة عن الحسبة والاحتساب في هذا العهد، سوى إشارات عابرة؛ وذلك لما انتاب الدولة الأموية من مشكلات وفتن عديدة اشتغلت بها، إلا أن هذا لا يؤثر على اهتمام الأمويين بالحسبة، فقد استمرت الحسبة في هذا العهد على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، فقد أورد الطبري أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان يمر بالبقال يساومه ويناقشه فيما يعرضه من أسعار، كما كان يكثر من المرور على الأسواق يتفقد أحواله، ويخفض الأسعار أحيانًا(١).

وكانت الحسبة في العصر الأموي تسمى ولاية السوق، وصاحبها يدعى: عامل السوق، جاء في أخبار القضاة لوكيع قال: «حدثني أبو سفيان الحميدي، أن جده مهدي بن عبد الرحمن ولي لعمر بن هبيرة حوالي سنة ١٠٣ هـ - ٧٢١ م سوق واسط، ثم وليها بعده إياس بن معاوية»(٢).

وكان عامل السوق يتمتع ببعض الصلاحيات القضائية، والتنفيذية، والإدارية، ويعين معه بعض الأفراد الذين يساعدونه على القيام بعمله لمراقبة المكاييل والموازين، وحل الخلافات التي تنشأ بين الباعة في السوق، وممن تقلد وظيفة عامل السوق: سليمان بن يسار على سوق المدينة المنورة، زمن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣).

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٦/ ٤٩٦).
(٢) أخبار القضاة، محمد أبو بكر بن وكيع (١/ ٣٥٣).
(٣) ينظر: الحسبة في الإسلام، د. عبد الرحيم المغذوي (٣٧).

المبحث الثاني

نماذج من العلماء في العهد الأموي

ساهم الخلفاء إلى جانب العلماء في مسيرة تاريخ الدعوة في العهد الأموي، تاركين جهودًا عظيمة في نشر الإسلام وخدمة الدين الحنيف، وهنا ذكر لنماذج من الخلفاء والعلماء وسيرهم:

١- معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] (ت: ٦٠هـ/ ٦٨٠م):

كان لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتوحات الإسلامية جهود عظيمة؛ فبعد أن وطَّد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعائم دولته من الداخل توجه شطر الفتوحات يستكمل ما بدأه الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكانت له فتوح كبيرة في المشرق ومثلها في المغرب؛ ففي المشرق كانت له غزوات منتظمة، تسمى بالشواتي والصوافي منذ سنة ٤٣هـ، وتوسعت الفتوحات حتى حاصر القسطنطينية لمدة سبع سنوات، بيد أنه لم يكتمل فتحها حينئذ، لكنه فتح الجزر المحيطة بها، وساعد في نشاط الفتوحات الأسطول البحري الذي ابتدأ في بنائه منذ إمارته للشام في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعن سعيد بن عبد العزيز قال: «لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو، حتى كان عام الجماعة فأغْزَا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة، تذهب سرية في الصيف وتشتو بأرض الروم، ثم تقفل وتعقبها أخرى، وكان في جملة من أغزا ابنه يزيد، ومعه خلق من الصحابة، فجاز بهم الخليج، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها، ثم قفل بهم، وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شدوا خناق الروم»[٢].

---

(١) هو الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أسلم يوم الفتح وشهد حنينًا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أحد كتاب الوحي، ولما بعث أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجيوش إلى الشام، استخلفه على دمشق، فأقره عمر، ثم أقره عثمان وجمع له الشام كله، فأقام أميرًا عشرين سنة، ثم أصبح ملكًا لعشرين سنة، ومات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٦٠هـ. ينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي (ص١٤٩).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (١١/ ٤٣٥).

وفي المغرب استكمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سلسلة الفتوحات، وقرر فصل ولاية إفريقية عن ولاية مصر، وجعلها ولاية تابعة للخلافة مباشرة، إلى أن ولَّى عليها عقبة بن نافع رَحِمَهُ اللَّهُ عام ٥٠هـ، فابتدأت به مرحلة الفتح الحقيقي في بلاد المغرب، فأسس القيروان لتكون قاعدة انطلاقه بعد ذلك في الفتوحات[١].

وكطبيعة الفتوحات الإسلامية فإن فتوحات معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت ترافقها فتوحات معنوية؛ بتعليم الإسلام ونشر مبادئه:

فمثلًا حينما فتح جزيرة رُودِس[٢]، كان ممن اشترك في فتحها مجاهد بن جبر المقرئ، فكان مقيمًا بها يقرئ الناس القرآن ويفقههم في الدين، وهذا الموقف مما يدل على عناية معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالفتوحات الإسلامية مع اهتمامه بالعلم والعلماء.

وكمثال على خدماته الاجتماعية، كان عامل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إليه أمر مناديه فنادى: «من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين»[٣].

٢- عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٤] (ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م):

أحد الصحابة الكرام، وأحد فقهاء الإسلام المشهورين، الذين خصَّصوا حياتهم لنشر العلم النافع، والتصدِّي لأهل البدع، نال شرف دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الفتوحات الإسلامية، محمود شاكر (ص١٢٦-١٢٨و ١٣٤-١٣٥).

(٢) رُودِس: جزيرة ببلاد الروم، مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر، وهي أوّل بلاد أفرنجة، معجم البلدان (٣/ ٧٨).

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٥).

(٤) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس، حبر الأمة، الصحابي الجليل، ولد بمكة، ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، شهد مع علي الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها سنة ٦٨هـ. ينظر: الإصابة (٤/ ١٢٣).

له، روى البخاري عن ابن عباس، قال: ضمَّني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى صدره وقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ**»(١).

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجلس في البيت الحرام ويعلم الناس التفسير والحديث والفقه والأدب، وقد بلغ من مجد التعليم غايته، ذلك أن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج حاجًّا، وخرج ابن عباس حاجًّا أيضًا، ولم يكن له صولة ولا إمارة، فكان لمعاوية موكب من رجال دولته، وكان لابن عباس موكب يفوق موكب الخليفة من طلاب العلم(٢).

٣- قتيبة بن مسلم الباهلي رَحِمَهُ اللَّهُ(٣) (٤٩ - ٩٦ هـ/٦٦٩ - ٧١٥ م):

كانت له جهود عظيمة في فتوح بلاد ما وراء النهر ودخول الإسلام إلى أهلها، فقد أخضع إقليم «طخارستان» الواقع على ضفتي نهر «جيحون»، وفتح إقليم بخارى، وأكمل فتح حوض جيحون كله، وأتم فتح سجستان، وإقليم خوارزم، وتوج عمله بفتح سمرقند أعظم مدن ما وراء النهر كلها، ثم عبر نهر سيحون، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: «الشاش» و«أشروسنة» و«فرغانة» ثم دخل أرض الصين، ووصل إلى إقليم «كاشغر» وجعلها قاعدة إسلامية، وتهيأ لفتح

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٥/ ٢٧) برقم: (٣٧٥٦).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣/ ٣٥١).

(٣) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أبو حفص: أمير، فاتح، من مفاخر العرب، افتتح كثيرًا من المدائن، كخوارزم، وسجستان، وسمرقند، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية، وأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها، واشتهرت فتوحاته قتل رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٩٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤١٠).

الصين لولا أن وفاة الحجاج ٩٥هـ، والخليفة الوليد بن عبد الملك ٩٦هـ جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع الجزية[١].

وقد كان قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع فتوحاته يهتم ببناء المساجد في المدن والقرى، ويضع فيها العلماء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام، وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين، ليطلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين وأخلاقهم عن طريق الاحتكاك بهم.

وكان من نتائج الجهود التي بذلها قتيبة في نشر الإسلام؛ أن أصبحت بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز لنشر الإسلام في آسيا الوسطى، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان، حتى دخل كثير من أهالي تلك البلاد في دين الله أفواجًا، وظهر بينهم عدد من المحدثين والفقهاء والمؤرخين، ممن لا يزال ذكرهم خالدًا، وآثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام.

٤- عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] **(٦١-١٠١هـ/٦٨١-٦١٩م):**

كان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من عظماء التابعين وخامس الخلفاء الراشدين في سيره على هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اشتهر بسيرته الحسنة واستقامته وعدله وورعه، بعيدًا عن كبرياء الملوك وجبروتهم، فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه خلافة أشج بني مروان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأكرمه، ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة، من أول حركة

---

(١) ينظر: موجز عن الفتوحات الإسلامية، د. طه عبد المقصود (ص١٢).

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، الخليفة الصالح، والملك العادل، ولد سنة ٦١هـ، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩هـ، وسكن الناس في أيامه، كانت مدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة، توفي سنة ١٠١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤).

بدت منه، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها، والاجتزاء بمركوبه الذي كان يركبه، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة»[١].

ولم يغفل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جانب خدمة رعيته وزهده، جانب خدمة الدين، ونشر الإسلام قولًا وفعلا، روي عنه قوله: «إِنَّ الْقَوْلَ فِتْنَةٌ، وَالْفِعَالَ أَوْلَى بِالْمَرْءِ مِنَ الْقَوْلِ»[٢].

ومن أهم جهوده الدعوية التي حفلت بها مدة خلافته:

١- حرصه على إحياء السنة وإماتة البدعة: روى الإمام اللالكائي عن أبي المليح قال: كتب عمر بن عبد العزيز بإحياء السنة وإماتة البدعة[٣].

وعن عبيد بن عبد الملك، أن عمر بن عبد العزيز، كان يقول: «وَاللهِ لَوْلَا أَنْ أُنْعِشَ سُنَّةً وَأُمِيتَ بِدْعَةً، لَمَا سَرَّنِي أَنْ أَعِيشَ فِي الدُّنْيَا فَوَاقًا، وَلَوَدِدتُ أَنِّي كُلَّمَا أَنْعَشْتُ سُنَّةً أَمَتُّ بِدْعَةً، أَنَّ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِي سَقَطَ مَعَهَا»[٤].

٢- قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للمسلمين: كان من أبرز سمات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلى الله تعالى التدرج والشمولية:

فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ

(١) البداية والنهاية، للحافظ بن كثير (٩/ ١٨٤).
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، كتاب حفظ اللسان، فضل في فضل السكوت عن كل ما لا يعنيه وترك الخوض فيه (٧/ ٤٨)، برقم: (٤٦٢٥).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي (١/ ٦٢).
(٤) السنة، للمروزي (ص٣١).

الإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ[١].

وكان يَتحين الفرص لإلقاء المواعظ على من حوله، خاصة رجال الحاشية الذين يغلب عليهم التنعم والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، ومن ذلك: ما روى الإمام أحمد بسنده عن مسلمة بن عبد الملك قال: «دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه، فلا يدخل عليه أحد، فجاءته جارية بطبق عليه تمر صيحاني، وكان يعجبه التمر، فرفع بكفه منه فقال: يا مسلمة، أترى لو أن رجلًا أكل هذا ثم شرب عليه من الماء، أكان يجزيه إلى الليل؟ قلت: لا أدري، قال: فرفع أكثر منه فقال هذا؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى لا يبالي أن لا يذوق طعامًا غيره، فقال: فعلام يدخل النار، قال مسلمة: فما وقعت مني موعظة ما وقعت هذه[٢].

٣- عنايته بالقضاء وحكمته في ذلك: عن جميل بن عبد الرحمن المؤذن؛ أَنَّهُ كَانَ يَحْضُرُ عند عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ، فَإِذَا جَاءَهُ الرَّجُلُ يَدَّعِي عَلَى الرَّجُلِ حَقًّا نَظَرَ، فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَهُمَا مُخَالَطَةٌ أَوْ مُلَابَسَةٌ؛ أَحْلَفَ الَّذِي ادُّعِيَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يُحَلِّفْهُ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، (١/ ١٠)، برقم: (٧)، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**».

(٢) الورع، للإمام أحمد، رواية المروزي (ص١٠٨).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٤/ ١٠٥٠)، برقم: (٢٦٨٦)، كتاب الأقضية، باب القضاء في الدعوى.

ومن أقواله الدالة على شروطه في اختيار القاضي، ما رواه مزاحم بن زفر قال: قال لنا عمر بن عبد العزيز: « خَمْسٌ إِذَا أَخْطَأَ الْقَاضِي مِنْهُنَّ خَصْلَةً، كَانَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ: أَنْ يَكُونَ فَهِمًا، حَلِيمًا، عَفِيفًا، صَلِيبًا، عَالِمًا سَؤولًا عَنِ الْعِلْمِ»[(١)].

٤- **عدله بين الرعية في الحكم**: مواقفه في العدل بين الرعية كثيرة، فمن ذلك حرصه على المساواة بينهم، ورفعه للضرائب عنهم، وتجنبه الإصلاح بالظلم، وتعجيله في قضاء الحقوق، وعزمه على تعليمهم وحملهم على الشريعة، وإيثاره راحة الرعية في كل شيء، ويوصي الولاة بتقوى الله والعدل بين الناس[(٢)].

٥- أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)] **(٨٠-١٥٠هـ/ ٦٩٩-٧٦٧م):**

أحد الفقهاء الأربعة، والعلماء البارزين، عاش معظم حياته أيام الأمويين، كانت له مواقف حكيمة كثيرة، منها: موقفه الحكيم مع الملحدين في دعوتهم إلى الله، وأنه رب كل شيء ومليكه؛ ذُكر أنه اجتمع طائفة من الملاحدة بأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقالوا: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال: «دعوني، فخاطري مشغول بأمر غريب، قالوا ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا

---

(١) أخرجه البخاري، (٩/ ٦٧)، برقم: (٧١٦٢)، كتاب الأحكام، باب: متى يستوجب الرجل القضاء.

(٢) ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز، عبد الله بن عبد الحكم المصري (ص٤٣).

(٣) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت، يعتبر من التابعين، الفقيه المحدث صاحب المذهب، ولد بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٨٠هـ، من شيوخه: عطاء بن أبي رباح، وقتادة، قال يحيى ابن معين: «كان أبو حنيفة ثقةً، لا يحدِّث بالحديث إلا بما يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظ»، له: الفقه الأكبر، والأوسط، والمسند، توفي سنة ١٥٠هـ. (ينظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر، (١٠/ ٤٤٩).

له: مجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل، فقال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوَّار السيَّار يجري، وتحدث هذه الحوادث من غير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام»[(١)].

وهذا من أعظم مواقف الحكمة في الدعوة إلى الله، فقد استدل على الخالق بوجود المخلوق، فليس هناك من مخلوق إلا وله خالق ومدبر وهو الله عَزَّوَجَلَّ، كما أنه ليس هناك من صنعة إلا ولها صانع، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

٦- مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] (٩٣-١٧٩هـ/ ٧١٢-٧٩٥)؛

كانت له جهود عظيمة في نشر العلم والسنة، فنفع الله به الإسلام والمسلمين، يصدع بالحق ولا تأخذه في الله لومة لائم، يشهد لذلك قول الإمام الشافعي: «كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء، قال: أَمَا إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَدِينِي، وَأَمَّا أَنْتَ فَشَاكٍ إِلَى شَاكٍ مِثْلِكَ فَخَاصَمَهُ»[(٣)].

ومن مواقفه الحكيمة والمسددة في الدعوة إلى الله تعالى: موقفه مع من سأله عن الاستواء، فقد جاء إليه رجل وقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فَمَا وَجَدَ مَالِكٌ مِنْ شَيْءٍ مَا وَجَدَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَنَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٣/ ١٢٧).

(٢) هو الإمام مالك بن أنس، بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن الحارث، الأصبحي، شيخ الإسلام، وإمام دار الهجرة، ولد في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سنة ٩٣هـ، من شيوخه: الزهري، وعبد الله بن دينار، وصالح بن كيسان، قال الشافعي: لولا مالكٌ وابن عيينة، لذهب علم الحجاز، له: الموطأ، والمدونة، وغيرهما، توفي عام ١٧٩ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥٠).

(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني (٦/ ٣٢٤).

وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِعُودٍ فِي يَدِهِ حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ - يَعْنِي الْعَرَقَ - ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَمَى بِالْعُودِ وَقَالَ: «الْكَيْفُ مِنْهُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَأَظُنُّكَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ»[١].

وهذا موقف حكيم مُسدّد؛ لأنه أجاب بالإجابة الصحيحة بعد التأمل والتفكر، فكانت هذه الإجابة قاعدة ثابتة لأهل السنة والجماعة، تُجْرَى عليها صفات الله تعالى كلها[٢].

وبالجملة فقد عاش في هذا العهد نخبة من التابعين الأخيار، والعلماء الأبرار، والدعاة المخلصين، يطول المقام بحصرهم وذكر بعض من جهودهم، لكنا لا يجب أن نغفل عن تعريف موجز لمن اشتهر منهم: كسعيد بن المسيب[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، ومجاهد بن جبر[٥]، وعكرمة مولى ابن عباس[٦]، .....

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٨١).

(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني (٢٨٢).

(٣) هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد، ولد سنة ١٣هـ، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، توفي سنة ٩٤هـ. ينظر: صفة الصفوة (١/ ٣٤٦).

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي، الكوفي، أبو عبد الله، تابعيّ، ولد سنة ٤٥هـ، كان أعلمهم على الإطلاق، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر، قال أشعث بن إسحاق: «كان يقال: سعيد بن جُبَير جِهْبِذ العلماء»، توفي سنة ٩٥هـ. ينظر: حلية الأولياء (٤/ ٢٧٢).

(٥) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكيّ، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر من أهل مكة، ولد سنة ٢١هـ، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، توفي سنة ١٠٤هـ. ينظر: ميزان الاعتدال، للذهبي (٣/ ٤٣٩).

(٦) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، ولد سنة ٢٥هـ، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، توفي سنة ١٠٥هـ. تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧١).

والحسن البصري[١]، ومحمد بن سيرين[٢]، وعطاء بن أبي رباح[٣]، وابن شهاب الزهري[٤]، وسفيان الثوري[٥]، رحمهم الله ورضي الله عنهم.

سقوط الدولة الأموية:

عوامل عدة ساهمت في سقوط الدولة الأموية، تاركة حضارة إسلامية بارزة، ودعوة إسلامية ممتدة شرقًا وغربًا، فكان من أسباب سقوط الدولة الأموية:

١. ثورات الشيعة المتتالية ضد الدولة، كحركة المختار الثقفي التي كان لها أثر كبير في نفوس الناس، وشحنها بالعداء لبني أمية.

---

(١) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، ولد سنة ٢١هـ، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، قال أيوب السختياني: «لو رأيت الحسن لقلت: إنك لم تجالس فقيهًا قط»، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣).

(٢) هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، ولد سنة ٣٣هـ، تابعي، من أشراف الكتّاب، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، ينسب له كتاب (تعبير الرؤيا)، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٤/ ١٨١).

(٣) هو عطاء بن أبي رباح بن أسلم بن صفوان، تابعيّ، ولد سنة ٢٧هـ، من أجلاء الفقهاء، كان مفتي مكة ومحدثهم، قال الشافعي: «ليس في التابعين أحد أكثر اتباعًا للحديث من عطاء»، توفي سنة ١١٤هـ. ينظر: طبقات ابن سعد (١/ ٣٣٣).

(٤) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شِهَاب الزهري، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتي حديث، ولد سنة ٥٨هـ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: «عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه»، توفي سنة ١٢٤هـ. ينظر: شذرات الذهب (٢/ ٩٩).

(٥) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، تابعي، أمير المؤمنين في الحديث، ولد سنة ٩٧هـ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، له كتاب الجامع الكبير، والصغير، في الحديث، توفي سنة ١٦١هـ. ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٦/ ٣٥٠).

٢. ثورات الخوارج ذات القوة والعنف، والتي أسهمت إسهامًا واضحًا في إضعاف الدولة الأموية.

٣. بغض الموالي خاصة الفرس منهم للدولة الأموية، واشتراكهم في الثورات والفتن ضدها.

٤. ضعف الخلفاء الأمويون المتأخرون وعدم كفاءتهم، ولتناحرهم فيما بينهم على الحكم والسلطة.

٥. ظُهور الدّعوة العباسيّة وانتشار دعوتِهم ومعاركِهم في خُراسان والكوفة[١].

يستفاد من هذه الأسباب: خطر التفرق والتحزب والفتن على الدعوة إلى الله، وبين الدعاة أنفسهم، وأثر ذلك سلبًا على مسيرة الدعوة إلى الله، وأن الدعوة إليه سبحانه يجب أن يتصدى لها الأتقياء الأكفاء الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون، وأن الدولة يجب أن يقودها الحاكم القوي العادل، الذي يخاف الله ويخدم دينه.

(١) ينظر: تاريخ الدولة الأموية، محمد بن الخضري (ص٤٥٦).

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. ما أهم ملامح الدعوة في العهد الأموي؟.
٢. ظهرت فرق مخالفة حادت عن المنهج النبوي وأحدثت فتنًا بين المسلمين، فما أشهر هذه الفرق، وما موقف العلماء والدعاة منها؟.
٣. تحدث عن جهود أشهر العلماء والدعاة في العهد الأموي.

الفصل الخامس

تاريخ الدعوة في العهد العباسي ونماذج من الدعاة فيه (١٣٢-٦٥٦هـ)

وَفِيهِ مَبحَثَان:

* المبحثُ الأولُ: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ في العهدِ العباسي
* المبحثُ الثانِي: نماذِجٌ منَ العلماءِ في العهدِ العباسِي.

مدخل

استمرت الخلافة العباسية في الحكم أكثر من خمسة قرون، توالى على حكمها سبعة وثلاثون من الخلفاء، بدءً من خلافة أبي العباس عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ، ونهاية بمقتل الخليفة المعتصم بالله سنة٦٥٦ هـ.

والمؤرخون يقسمون العصر العباسي إلى قسمين، العصر العباسي الأول، من (١٣٢-٤٤٧هـ) والذي اتسم بالرقي والتقدم العلمي والأدبي، والقوة في مجال الحكم والسياسة، وكان بقيادة المؤسس أبي العباس السفاح، تلاه أبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد، وابنه المأمون، ومن تبعهم في الحكم، ويطلق على هذا العصر عصر الخلفاء العظام.

ثم العصر العباسي الثاني الذي كان عصر تراخ وذهول، وغفلة وتفريط وانصراف عن مصالح الأمة الحقيقية، وتفرق الدولة، ومن ثم سقوطها على يد التتار[١].

إلا أنه من فضل الله تعالى على هذه الأمة، أنَّ خِدمة الدين لم تتوقف، ولم يتطرق الوهن والضعف إلى الدعوة الإسلامية، كما هو الحال على المستوى السياسي، ومن يطالع كتب الطبقات والتراجم يقف على مقدار الحركة العلمية والدعوية والحديثية في بغداد يومئذ، وكيف كان التيار الديني والثقافي قائمًا على قدم وساق، فالمساجد والمدارس مليئة بذوي العلم الذي لا ينقطع، من درس يُقرأ، أو قرآن يتلى، أو حديث يُروى، أو موعظة تُساق، وكان لأئمة الدين شأن يفوق شأن الخلفاء أنفسهم[٢].

وفيما يلي عرض موجز لأهم ملامح الدعوة في هذا العصر، مع ذكر لنماذج من العلماء فيه، وبعض مواقفهم وجهودهم الدعوية.

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٢/ ٢٢-٢٣).

(٢) ينظر: تاريخ الدعوة، جمعة الخولي (٢/ ١٤٩).

المبحث الأول

أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد العباسي

إن العمل لخدمة الإسلام ظل مستمرًا رغم الكثير من الفتن والقلاقل التي ألمت بالأمة الإسلامية، فنشط العمل الدعوي على مستوى الفرد والجماعات، وانطلق الدعاة والمربون يؤدون واجبهم في العهد العباسي، وفيما يأتي بيان ملامح ذلك:

أولًا: الحركة العلمية والثقافية والفكرية:

نهضت الحركة العلمية في هذا العصر نهوضًا ملحوظًا، واندفعت بخطى ثابتة في شتى المجالات، ونشطت في القرن الثاني والثالث الهجري حركة التصنيف في علوم الدين، من حديث وفقه وتفسير وتاريخ وسيرة، ويكفي من مفاخر هذا العصر أن عاش فيه الأئمة الأربعة، ومن أشهر كتب الفقه في هذا العصر، الموطأ للإمام مالك، وكتاب الخراج لأبي يوسف.

فقد شهد العصر العباسي الأول نهضة فكرية عظيمة، وطفرة ثقافية كبيرة في شتى مجالات العلم والمعرفة، نتيجة امتداد رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها واهتمام الخلفاء بالحياة الفكرية.

وقد ميز علماء المسلمين بين نوعين من العلوم:

١ - العلوم النقلية أو الشرعية: وتشمل علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب.

٢- العلوم العقلية: وهي علوم أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.

ولقد ظهر في هذا العصر نوعان من العلماء: الأول منهم من يغلب على ثقافتهم النقل والاستيعاب ويسمون أهل علم، والثاني هم الذين يغلب ثقافتهم الابتداع والاستنباط، ويسمون أهل العقل[١].

وكان بيت الحكمة الذي يُرجح أن الرشيد هو الذي وضع أساسه، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات، من أكبر خزائن الكتب ومورد العلماء في العصر العباسي، وقد ظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ، وكانت تحوي كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها المسلمون[٢].

كما ازدهرت دراسة الفقه ازدهارًا عظيمًا، وكانت له مدرستان: الأولى مدرسة أهل الرأي والقياس في العراق، ومؤسسها أبو حنيفة النعمان، وخلفه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، والثانية: مدرسة أهل الحجاز، ومؤسسها مالك بن أنس، وتسمى مدرسة أهل الحديث، ثم جاء الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي، وجمع بين هاتين المدرستين، أي جمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة، وطريقة العراقيين في الاعتماد على الرأي[٣].

وكان العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يجلسون لتعليم العلم ويبذلونه للناس في أماكن وأوقات متعددة، «فكانوا يجلسون في المساجد، والمنازل، والحوانيت والأربطة، بل وحتى في المقابر، والطرقات، والأماكن العامة إن دعت الحاجة إلى الجلوس فيها، وكانت

(١) ينظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٢/ ٢٥٦).
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٢/ ٢٨٥).
(٣) ينظر: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، عدد من المؤلفين (٣/ ٣٠).

دروسهم وحلقاتهم العلمية تعقد في أوقات متعددة، ابتداءً من صلاة الفجر وانتهاءً بأذان المغرب، بل وكانت تُلقى أحيانًا بعض الدروس في المساء».

ولعل من أبرز أسباب النهضة العلمية والفكرية التي شهدها هذا العصر، رغم ما كنفه من فتن ومشاكل ضرت بالأمة الإسلامية؛ تلك الأخوة في الله والمحبة الصافية بين العلماء، الذين كان هدفهم خدمة الدين الحنيف، بعيدًا عن الأغراض الشخصية واتباع الهوى، وهذا أمر لابد منه بين الدعاة في المجال الدعوي؛ حتى تحقق الدعوة أهدافها المرجوة، فإن العمل تحت دائرة الأخوة في الله، يحقق مصالح عظمى، ما كانت لتتحقق لو وجد التنافر والبغض بدل المحبة والأخوة التي كان عليها العلماء وسلفنا الصالح.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأُلفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحبب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يُثمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان المثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة»[1].

ومن نماذج ذلك ما كان بين العلماء عامة، والأئمة الأربعة خاصة، فرغم اختلافهم في عدد من المسائل الفقهية، إلا أن ذلك لم يؤدّ إلى البغض والخلاف والتنافر، عكس ما يوجد في عصرنا بين بعض الدعاة، الذين أدى بهم خلاف يسير إلى اختلال الموازين وتدني الأخلاق والقيم.

فهذا الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الأسبق من حيث التاريخ.. وقد كان الثناء على علمه وشخصه من رجال كثيرين تخالفت مناحي تفكيرهم واتفقوا جميعًا على تقديره، روى الخطيب عن الإمام الشافعي قوله: «قيل للإمام مالك بن أنس:

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/ ١٥٧).

هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلًا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته»[١]، وروى الخطيب عن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الإمام الشافعي يقول: «الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه»[٢].

وقال الإمام الشافعي عن الإمام مالك: «إذا جاءك الحديث عن مالك فشدَّ به يديك، وقال: إذا جاء الخبر فمالك النجم، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك»[٣].

إنها نماذج مشرقة في تعامل السلف الصالح عامة، والأئمة الأربعة خاصة فيما بينهم، رغم الاختلاف الذي حصل في جملة من المسائل، إلا أن الأخوة في الله جدار لا ينبغي أن يُعتدى عليه، فعبد الأعلى الصدفي المصري- أحد أصحاب الإمام الشافعي- كان يقول: «ما رأيت أحدًا أعقل من الإمام الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى: ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة»[٤].

ثانيًا: الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة:

استمر ظهور بعض الفرق المنحرفة في هذا العهد، ومن هذه الفرق: الخوارج: وقد برزت منها في هذا العصر فرقتان هما: الصفرية[٥] والإباضية[٦]، كما ظهرت المعتزلة، والرافضة.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٩).

(٢) المرجع نفسه (٦/ ٤٠٣).

(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض (١/ ١٤٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٠).

(٥) **الصفرية**: فرقة من الخوارج أصحاب زياد بن الأصفر، وقيل غيره، أقامت دولتها في سجلماسة سنة ١٤٠هـ، ولهم جملة من المعتقدات الباطلة. ينظر: الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، (٧٠).

(٦) **الإباضية**: فرقة من الخوارج، أتباع عبد الله بن إباض التميمي، تميزوا عن الخوارج بكونهم =

وبذل العلماء والدعاة جهدهم في الرد على تلك الفرق الضالة، وتحذير الناس منها، وحث الناس على التمسك بالكتاب والسنة وتحذيرهم من البدعة.

وقد اهتم العلماء في الرد على الرافضة وعلى شبههم، مبينين معتقداتهم ومحذرين منها، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم: «لم أر أحدًا من أصحاب الأهواء أشهد بالزور من الرافضة»(١).

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديدًا في مواجهتم، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر صفاتهم: «الرافضي هو الذي يسب أبا بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا»(٢).

وروي عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن ذكر عنده من يتنقص أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ -حتى بلغ- ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] فقال مالك: «من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أصابته الآية»(٣).

وكان للخوارج وخروجهم عن الدولة العباسية في أكثر من موقع، أثر سلبي كلَّف الدولة أرواحًا وعتادًا، وقد ركز العلماء في الرد عليهم ببيان نصوص الكتاب والسنة التي تؤكد بطلان مقالاتهم واعتقاداتهم، وهي كثيرة في الكتاب والسنة، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوارج قوم سوء، لا أعلم في الأرض قومًا شرًّا منهم، وقال: صح الحديث فيهم عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن عشرة وجوه»(٤).

= لا يسمون إمامهم أمير المؤمنين، وهي أعدل فرق الخوارج، أسست دولتها في تاهرت سنة ١٦٢هـ. ينظر: الملل والنحل، للشهرستاني، (١٣٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٧٤).

(٢) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (١/ ١٨٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٦/ ٣٢٦).

(٤) السنة، أبو بكر أحمد الخلال (١/ ١١٠).

وكان لترجمة كتب الفلاسفة الذين تكلموا في الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله؛ سبب لظهور الفتن التي أصابت الأمة الإسلامية آنذاك، فما لبث أن ظهر علم الكلام، مما أدى إلى تطور مذهب الاعتزال، وأخذ يتجه إلى مناقشة الأمور العقائدية بصورة جدلية، وهذا أدى إلى نفي صفات الله تعالى، أو تأويلها، وظهرت فتنة القول بخلق القرآن وامتحن العلماء فيها، واشتد الصراع بين أهل السنة والجماعة والمعتزلة، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأس من واجهوا هذه الفتنة، فصمد وثبت على الحق، ولاقى في سبيل ذلك كثيرًا من التعذيب، ولو قدر الله عَزَّوَجَلَّ ولم يصمد الإمام أحمد في هذه المحنة لضل خلق كثير، ولربما الأمة كلها[١].

وغير ذلك مما يدل على موقف العلماء في الدعوة إلى الحق والتحذير المجتمع من الفرق الضالة، ولا شك أن في مثل هذه المواقف أثر كبير في هدم البدع وتطهير المجتمع منها.

ثالثًا: العلماء وأثرهم في المجتمع في العهد العباسي:

كان للعلماء والدعاة أثر في الناس وفي المجتمع؛ إذ يجتمعون حولهم في حلق العلم، وهم المرجع في الفتوى والقضاء، حدث أنْ قَدِمَ الرشيد الرِّقة[٢]، فانجفل الناس خلف ابن المبارك، وتجمعوا حوله، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج لها فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم، فقالت: والله هذا هو الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان»[٣].

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١١/ ٢٣٧-٢٦٥).

(٢) **الرَّقّةُ**: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيّام، معدودة في بلاد الجزيرة، لأنّها من جانب الفرات الشرقي. معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٥٩).

(٣) ينظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان (٣/ ٣٣).

وكان الواحد من الخلفاء العباسيين يموت، فلا يتبعه إلا النزر اليسير من الناس، فإذا مات إمام من أئمة العلم والدين، تبع جنازته الجم الغفير، ولهذا لما مات الإمام أحمد بن حنبل، شيعه الألوف المؤلفة، لدرجة أنهم لم يدركوا صلاة العصر إلا في آخر الوقت، وقال الخليفة هارون الرشيد لما توفي ابن المبارك: «مات سيد العلماء»(١).

وهذا لا شك من القبول الذي أكرم الله به من يبلغ الإسلام، ويحفظ الدين، ويدافع لتكون كلمة الله هي العليا، مصداقًا لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»(٢).

وكما نصح علماء هذا العهد الرعية، لم يغفلوا عن الراعي وهو الخليفة، فبذلوا جهدهم في دعوة الخلفاء والولاة إلى الاستقامة على شرع الله والتمسك بالكتاب والسنة، وتذكيرهم باليوم الآخر؛ لإدراكهم أن صلاح الراعي هو صلاح للرعية، من ذلك أن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وعظ الخليفة هارون الرشيد قائلًا: «عليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به، ولن تهلك ما تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك، وعليك بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهداهم اقتده...»(٣).

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١١/ ٤٠٠)

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤/ ١١١) برقم: (٣٢٠٩)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم في صحيحه (٨ / ٤٠) برقم: (٢٦٣٧)، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٩/ ٨٤).

ومنها موعظة الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لأبي جعفر المنصور، حيث قال له: «يا أمير المؤمنين، إن الذي يلين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمرهم، لقرابتكم من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان بكم رؤوفًا رحيمًا مواسيًا بنفسه لهم في ذات يده وعند الناس، فحقيق أن يقوم لهم فيهم بالحق، وأن يكون بالقسط له فيهم قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، لم تغلق عليه دونهم الأبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب، يبتهج بالنعمة عندهم، ويبتئس بما أصابهم من سوء، يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم، فكل له عليك نصيبه من العدل، فكيف إذا اتبعك منهم فئام وراءهم فئام، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه!..»[1].

ووعظ ابن السماك رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخليفة الرشيد، وهو يذكره بالآخرة وأهوالها، وذلك عندما قال الرشيد لابن السماك: عظني، فقال: «يا أمير المؤمنين، إنك تموت وحدك، وتغسل وحدك، وتكفن وحدك، وتقبر وحدك، يا أمير المؤمنين، إنما هو دبيب من سقم، فيؤخذ بالكظم، وتزل القدم، ويقع الفوت والندم، فلا توبة تنال، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال» فجعل الرشيد يبكي[2].

فيلاحظ من هذه النماذج المختارة، وعظ العلماء والدعاة للخلفاء في هذا العصر، ولم تمنعهم هيبة السلطان من تقديم النصيحة ابتداءً، وإبدائها عند طلبها، وأنها مواعظ رقيقة يغلب عليها الترغيب والترهيب، في قالب حسن، وأسلوب

---

(١) المرجع السابق (٦/ ١٣٤).

(٢) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٢/ ٣١٨).

لين، جعلت من وجهت إليه يقبلها ويتأثر بها، ويرق قلبه لسماعها، وتدمع عينه منها.

رابعًا: الفتوحات الإسلامية:

استمر الجهاد في سبيل الله في العصر العباسي، فكانت راية الجهاد فيه عالية، ظهرت فيها قوة المسلمين وتغلبهم على أعدائهم، فهذا الخليفة هارون الرشيد لما نقض ملك الروم (نقفور) العهد الذي كان بينه وبين المسلمين وهدد المسلمين بالغزو؛ غضب الخليفة وأرسل إليه كتابًا كان الجواب ضمنه وهو أن الجواب ما تراه دون أن تسمعه، فتجهز من يومه لغزوهم، ففتح وغنم، حتى اضطر ملك الروم على الموافقة على خراج يؤديه كل سنة(١).

وهذا المأمون لما كتب إليه (توْفيل) ملك الروم كتابًا يسأله الصلح، فإن رضي، وإلا شنَّ عليه الحرب، فكان جواب المأمون: «أما بعد: فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة.. فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه؛ لجعلت جواب كتابك خيلًا تحمل رجالًا من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثكلكم، ويتقربون إلى الله بدمائكم»(٢).

وهذا المعتصم لما بلغه أن امرأة مسلمة أسيرة في أيدي الروم صاحت: «وامعتصماه» فأجابها: «لبيك لبيك» ونهض من ساعته فسار إلى بلاد الروم وفتح

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٨/ ٣٠٨).
(٢) تاريخ الطبري (٨/ ٦٢٩).

عمورية[١] وكانت عين النصرانية، وقتل من أهلها ثلاثين ألفًا، وسبى منهم عددًا[٢].

وفتح المسلمون مدينة قصريانة[٣] سنة ٢٤١هـ، فأصاب المسلمون ما يعجز الوصف عنه، وذل المشركون يومئذ بصقلية ذلًّا عظيما[٤]، كما فتح المسلمون أنطاكية[٥] سنة ٢٩١هـ.

إلا أن الحال لم يستمر كما كان عليه مع توالي الخلفاء، واشتغالهم بالفتن الداخلية، فضعف شأن الجهاد والفتوحات لهذه الأسباب وغيرها، حيث ضعف المسلمون عن الجهاد ومقاتلة النصارى، الأمر الذي جعل الأعداء يطمعون فيها، فبدؤوا يغزونها، وينهكوا حرماتها.

ففي مقارنة بين الدولة الأموية والعباسية يقول د. حسين مؤنس: «إن الدولة العباسية لو تنبهت إلى حقيقة وظيفتها كدولة إسلامية، وهي نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الترك والمغول في

---

(١) **عَمُّورية**: مدينة قديمة بآسيا الصغرى تقع على نهر كبير يصب في الفرات، بينها وبين الخليج مائة وخمسة وسبعون ميلًا، وكانت منزلًا لبعض ملوك الروم. ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد الحِميري (٤١٣).

(٢) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١٠/ ٣١٣).

(٣) **قَصْرُيانِه**: اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقليّة على اسم رجل، يشتمل سورها على زروع وبساتين وعيون ومياه. معجم البلدان (٤/ ٣٦٥).

(٤) ينظر: الكامل في التاريخ (ص٤٩١).

(٥) **أنطاكية**: مدينة من الثغور الشامية معروفة، قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير. معجم البلدان (١/ ٢٦٦).

الإسلام، لأدت للإسلام والحضارة الإنسانية أجَلَّ الخدمات، ولغيّرت صفحات التاريخ.. فهي في الشرق لم تتقدم وتُدخل كل الأتراك والمغول في الإسلام، كما تمكنت الدولة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك في الإسلام وفتحت أبواب الهند لهذا الدين، وفي الغرب قعدت الدولة العباسية عن فتح القسطنطينية، ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصقالبة والخزر والبلغار الأتراك في الإسلام تبعًا لذلك، إذ لم تكن قد بقيت أمام هذه الأجناس العظيمة أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها، وهنا ندرك الفرق الجسيم بين الدولة الأموية والدولة العباسية، فالأولى أوسعت للإسلام مكانًا في معظم أراضي الدولة البيزنطية، وأدخلت أجناس البربر جميعًا في الإسلام، ثم انتزعت شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) من القوط الغربيين، ثم اقتحمت على الفرنجة والبرغنديين واللومبارد بلادهم بالإسلام، وحاولت ثلاث مرات الاستيلاء على القسطنطينية، أما العباسيون فلم يضيفوا -رغم طول عمر دولتهم- إلى عالم الإسلام إلا القليل، ومعظمه في شرقي آسيا الصغرى»[1].

خامسًا: الحسبة في العصر العباسي:

شهدت الحسبة في العصر العباسي تطورًا كبيرًا، في المجالين، النظري والعملي؛ وذلك لشدة الحاجة إليها في تنظيم أمور الناس.

ففي المجال النظري توسعت حركة التأليف في الحسبة؛ رفعةً لشأنها ومؤصلة لمسائلها، ومن بين تلك الكتب العديدة: كتاب أحكام السوق، ليحيى بن عمر الأندلسي، (ت٢٨٩هـ)، وكتاب الاحتساب، للطُّرطوشي، (ت٣٠٤)، والأحكام السلطانية، للماوردي، (ت٤٥٠)، والأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء، (ت٤٥٨)، وغيرها.

(١) ينظر: تاريخ الإسلام، د. سين مؤنس (ص٥١).

وكان للمحتسب وظيفة مهمة في المجتمع، وكلمة مسموعة عند الخليفة، وهيبة في قلوب أصحاب المنكر، واتخذ المحتسب مكانًا خاصًا له، كما اتخذ الجند والأعوان وكل ما يساعده ويشد من أزره من الآلات والموازين والمقاييس[١].

فقد كانت سلطة القضاء موزعة بين القاضي، وبين المحتسب وقاضي المظالم، فوظيفة القاضي فض النزاعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانًا مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم: الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب، وكان القضاء والحسبة يستندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين: فعمل القاضي مبني على التحقق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب، فمبني على الشدة والسرعة في العمل[٢].

لقد شهد العهد العباسي نهضة علمية كبرى في شتى العلوم والمعارف الإسلامية، خاصةً وقد ظهرت المدارس الفقهية المتعددة، كالمذاهب الفقهية الأربعة، والعناية بالدراسات الإسلامية المختلفة، بحكم أن هذا العهد حفل بالكثير من العلماء والفقهاء، مما أثمر عن زيادة في دخول الناس للإسلام، فأسلم ثلث أهل الهند، وأعداد غفيرة من أهل الصين، وغيرهم من الشعوب الأخرى.

(١) ينظر: الحسبة في الإسلام مع تطبيقاتها المعاصرة، د. عبد الرحيم المغذوي (٣٧-٣٨).
(٢) ينظر: الأحكام السلطانية، الماوردي (٣٥٣).

المبحث الثاني

نماذج من العلماء في العهد العباسي

شهد هذا العصر بزوغ عدد العلماء الذين كان لهم دور كبير في النهضة الثقافية العلمية، في شتى الفنون، وخلد التاريخ موروثهم العلمي وإسهاماتهم الدعوية، ومن بينهم:

١- عبد الله أبو جعفر المنصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(٩٥-١٥٨هـ/٧١٤-٧٧٥م):**

في عهد المنصور قويت الدولة وتوطدت أركانها، وكان للدعوة الإسلامية نشاط وحركة؛ فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعنى بالعلم والعلماء، ورحل بنفسه في طلب العلم قبل الخلافة[٢].

وقد شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث، والفقه، والتفسير، فصنف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن إسحاق المغازي، وصنف أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنف هشيم، والليث، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك وأبو يوسف، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة، والتاريخ وأيام الناس[٣].

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثاني خلفاء بني العباس، بويع له بالخلافة بعد أخيه في ذي الحجة، سنة ١٣٦هـ، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة، هو مؤسس مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ابتدأ تأسيسها سنة ١٤٠هـ، وكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا أيامًا، مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٥٨هـ. ينظر: الإنباء في تاريخ الخلفاء، محمد بن علي العمراني (٢٢٢)، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي (١٩٣).

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (١٩٦).

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٧٧٦).

وفرَّغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه للخدمات الاجتماعية، فكان في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات والعزل، والنظر في المصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل منزله، واستراح من بعد ذلك إلى العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ومصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله، فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه(١).

ومن المواقف التي أبرزت معالمه الدعوية، ما ذكره إسماعيل الفهري قال: سمعت المنصور في يوم عرفة على منبر عرفة يقول في خطبته: «أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه، أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلًا، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه، إذ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣] أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم، والإحسان إليكم، ويفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل، فإنه سميع مجيب(٢).

---

(١) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١٣/ ٤٥٩-٤٦٧).
(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (١٩٦).

٢- هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(١٤٩-١٩٣هـ/٧٦٦-٨٠٩م):**

صاحب الفتوحات العظيمة، كان فصيحًا بليغًا أديبًا، كثير العبادة والحجّ والغزو، يحجّ عامًا ويغزو عامًا، وقد يجمع بينهما في عام واحد، ويصلّي في خلافته كلّ يوم مائة ركعة لا يتركها إلاّ لعلّة، ويتصدّق كلّ يوم بألف درهم، ويحبّ العلم وأهله، ويعظّم حرمات الإسلام، بلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: «لئن ظفرت به لأضربنّ عنقه»[٢].

ومن أخباره رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أخذ بزنديق، فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لِمَ تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك، قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها ما فيها حرف نطق به؟ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا؟[٣].

٣- عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤] **(١١٨-١٨١هـ/ ٧٣٦-٧٩٧م):**

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا عناية بالعلم، فرحل في طلبه وهو صغير، فقصد الحرمين، والشام، ومصر والعراق وخراسان، فنهل العلم من منابعه ومن أفواه أهله، حيث

---

(١) هو هارون بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، الملقب بالرشيد، خامس خلفاء بني العباس، بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الهادي في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ، ومدة ولايته للخلافة ثلاث وعشرون سنة، ومات رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٩٣هـ. ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير، (١٤/ ٢٨-٤٧)، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي (٢١٠).

(٢) المصدر السابق (٢١٠).

(٣) المصدر السابق (ص٢١٦).

(٤) هو الإمام عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن الحَافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، ولد سنة ١١٨هـ، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار، حاجًّا ومجاهدًا وتاجرًا، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. =

قال: «حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ، فرويتُ عن ألف شيخ»[١]، فكان عالمًا وإمامًا كثير المطالعة في الكتب، قال نُعيم بن حماد: «كان ابن المبارك يُكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؟!»[٢].

كان ذا أخلاق حميدة، وخصال كريمة، اشتهر بالورع، والزهد والتقى والكرم، فعن الحسن بن عرفة قال: «قال لي ابن المبارك: استعرت قلمًا بأرض الشام، فذهبت على أن أردَّه، فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معي، فرجعت إلى الشام، حتى رددته على صاحبه»[٣]، وقال الحسن بن عيسى مولى ابن المبارك: «اجتمع جماعة مِثل الفضل بن موسى، ومخلد بن الحسين، فقالوا: تعالَوْا نعُد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يَعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه»[٤].

ولم يشغله طلب العلم ونشره عن الجهاد في سبيل الله، قال عَبدة بن سليمان المروزي: «كنا في سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفانِ، خرج رجل من العدو، فدعا إلى البِرَاز، فخرج إليه رجل، فقتله، ثم آخر،

= كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) منصرفًا من غزو الروم سنة ١٨١هـ له كتاب في الجهاد وآخر في الرقائق. ينظر: شذرات الذهب، لابن عماد العكري، (٢/ ٣٦٢).

(١) سير أعلام النبلاء، (٧/ ٣٧٦).

(٢) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١١/ ٣٨٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٥).

(٤) تاريخ دمشق، لابن عساكر، (٣٢/ ٤٢٩).

فقتله، ثم آخر، فقتله، ثم دعا إلى البِرَاز، فخرج إليه رجل، فطارده ساعةً، فطعنه، فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرتُ، فإذا هو عبد الله بن المبارك»[١].

كان ذا اهتمام بأهل العلم وطلبته، يحسن إليهم ويعينهم، ويقضي حوائجهم، قال حبان بن موسى: «عُوتب ابن المبارك فيما يفرق من المال في البلدان دون بلده، فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضلٌ وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه، لحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم، ضاع علمهم، وإن أعنَّاهم، بثُّوا العلم لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أعلم بعد النبوة أفضلَ من بث العلم»[٢].

٤- الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣] (١٥٠-٢٠٤هـ/ ٧٦٧-٨١٩م):

أحد الأئمة الأعلام، وكبار علماء أهل السنة والجماعة، ومن الحفاظ الثقات، فريد عصره وقدوة زمانه، كثير العبادة لربه، كان يصلي نحو ثلث الليل، والثالث الثاني يكتب فيه، والثلث الثالث ينام فيه[٤]، كثير الكرم والصدقة، أسخى الناس بما يجده، ذا خلق حسن، متواضعًا مع كثرة علمه وتنوعه، ومما يدل على ذلك قوله: «ما ناظرت أحدًا فأحببت أن يخطئ، وما في قلبي من علم إلا وددت أنه عند كل أحد ولا ينسب إليَّ»[٥]، جاهد في بيان الحق، ورد الباطل، ومحاربة البدع، ومن

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١١/ ٤٠٠).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨ / ٣٨٧).

(٣) هو الإمام الفقيه، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ، ونشأ يتيما في حجر أمه، فخافت عليه الضيعة، فتحولت به إلى محتده وهو ابن عامين، فنشأ بمكة...ثم حبب إليه الفقه، فساد أهل زمانه. وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عام ٢٠٤هـ. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي (٢/ ٧١).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني (٩/ ١٣٥).

(٥) آداب الشافعي ومناقبه، أبو حاتم الرازي (ص٦٨)، ومناقب الشافعي، للبيهقي (٢/ ١٧٣).

الفرق التي كانت في عصر الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والتي كان له جهود معها: الرافضة، والخوارج، والمعتزلة، حيث كان له معهم صولات وجولات، ولم يكن يدفعه لذلك حظ من حظوظ الدنيا، وإنما يدفعه له الخوف عليهم من غوائل البدع ومتاهات السبل[١].

وتنوعت جهوده الدعوية بين التدريس في مختلف العلوم، فكانت حلقات في أماكن متعددة من بلاد المسلمين، كما طرق التأليف فبرع فيه، فصنف التصانيف النافعة، فكانت له مؤلفات في الأصول والفروع، والفقه وأدلته، بل وفي التفسير والأدب، الشيء الكثير المتميز ببراعته وإحكامه، فكان من أجل كتبه: الرسالة، والأم، والسنن، وديوان شعر، وجماع العلم، واختلاف العديد، وغيرها.

٥- الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] **(١٦٤-٢٤١هـ/ ٧٨١-٨٥٥م):**

إمام أهل السنة، والحافظ القامع للبدعة، الثابت على الحق في زمن الفتن والمحنة، كثير العبادة للعبادة، قال عنه ابنه عبد الله: «كان أبي أصبر الناس على الوحدة لم يره أحد إلا في مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يصلي في كل يوم وليلة ثلاث مائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته، فكان يصلي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة»[٣]، اتصف بالأخلاق الفاضلة، فكان حليمًا متواضعًا، ليِّن الجانب، لا يقول إلا خيرًا، يُحب في الله، ويُبغض في الله، أورد الذهبي

---

(١) ينظر: الشافعي حياته وعصره، آراؤه وفقه، محمد أبو زهرة (ص١٣٠).

(٢) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، أحد الأئمة الأعلام، ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ ونشأ فيها يتيمًا، وقامت أمه على تربيته، وطاف البلاد وطلب العلم وسمع من الكثير، حتى صار إمامًا في الحديث والفقه، وتوفي سنة ٢٤١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١١/ ١٧٧).

(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزي، (١/ ٤٨٤).

في سيره أنه كان يجتمع في مجلسه نحو خمسة آلاف، فيكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت[١].

ومن مؤلفاته القيمة: كتاب المسند، والعلل، والزهد، والإيمان، والسنة، والرد على الجهمية، ومن جهوده في الدعوة إلى الله وتقرير العقيدة الصحيحة، والرد علة الرفق الضالة، أنه قال في الإيمان: «من أفضل خصال الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله»[٢].

٦- الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] **(ت: ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م):**

إمام محدث، وفقيه متقن، كان في غاية الفضل والكمال، لما تَحَلَّى به من كريم الخصال وجميل الصفات، صاحب التصانيف النافعة، عرف مهمته وفقه رسالته، فحمل مشعل العلم فأضاء به سبيل السائرين، فكان من أنبه من حفظ الله بهم سنة سيد المرسلين، وكتب بهم مساعي الزنادقة والمنحرفين، من أهل البدع والضلالات ممن كذبوا على النبي الأمين، بذل جهودًا كبيرة في مجال التصنيف، ويُعد كتابه (الجامع الصحيح) أعظم كتب السنة وأصحها، وموسوعة علمية في كثير من العلوم، من حديث، وفقه، ودعوة، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه، والمقدم على سائر أضرابه وأقرانه»[٤]، وقد

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣١٦).

(٢) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (١/ ٥٧).

(٣) هو أبو عبد الله بن أبي الحسن، محمد بن إسماعيل بن بَرْدِزْبَه، البخاري، من علماء الحديث، ولد سنة ١٩٤هـ، من تصانيفه: الجامع الصحيح، والأدب المفرد، والكنى، والمبسوط، قال عمرو ابن عليّ الفلاس: «حديثٌ لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث»، توفي سنة ٢٥٦هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٤/ ١٨٨).

(٤) البداية والنهاية، لابن كثير (١١/ ٢٥).

أثنى عليه علماء زمانه من شيوخه وأقرانه: فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أخرجت خراسان مثله»[(١)]، فكان له فضله الذي لا ينكر عَلَىَ الحديث وأهله؛ بما بذل من المجهود العلمي العظيم، فإنه أسهم في حركة النهضة الحديثية بسهم وافر، فوضع في الحديث وَعِلَلِهِ وَرِجَالِهِ مؤلفات كثيرة، تقدم فيها بهذه الفنون تقدما كَبِيرًا، وبلغ بها الغاية، وكانت عُمْدَةً لمن جاء بعده، وهي كثيرة وافرة، منها: كتاب العلل، والكنى، والأدب المفرد، وخلق أفعال العباد، والضعفاء، والفوائد.

٧- الحافظ ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] **(٥٠٨-٥٩٧هـ/ ١١١٤-١٢٠١م):**

إمام أهل عصره في الوعظ، صنف في فنون العلم تصانيف حسنة، كان آية الزمان في الوعظ والخَطابة، وقد نفع الله بوعظه وفصاحته الدعوة الإسلامية نفعًا كبيرًا، وأجرى على يديه للمسلمين خيرًا كثيرًا، كان إمامًا في التذكير بلا مدافع، يقول النّظْم الرائق، والنثر الفائق بديهًا، ويُسهِب، ويُعجِب، ويُطرِب، ويُطنِب، لم يأت قبلَه ولا بعدَه مِثلُه، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقْع في النفوس، وحُسن السيرة[(٣)].

فكانت خطبه ومواعظه توقظ القلوب، وتدمع العين، وتخرج من الغواية إلى الرشاد، فتزاحم الناس حوله، حتى كان يقول: «بإصبعيّ هاتين كتبت ألفيْ مجلد،

---

(١) المرجع السابق (١١/ ٢٤).

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ولد سنة ٥٠٨، على الأصح، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، والمدهش، وصيد الخاطر، وتلبيس إبليس، قال الإمام الذهبي: كان رأسًا في التذكير بلا مدافعة، توفي سنة: (٥٩٧هـ). ينظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٧٩)، وشذرات الذهب (١/ ٤٧).

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٥٦).

وتاب على يديّ مائةُ ألفٍ، وأسلم على يديّ عشرون ألفًا»[١].

ويطول المقام إن نحن ذكرنا جهود جميع العلماء والدعاة الذين ولدوا في هذا العصر، وكان لهم دور مهم في الدعوة إلى الله، وتأثير في المجتمع، إلا أننا سنكتفي بذكر تراجم لأشهرهم:

فمنهم: الإمام مسلم[٢]، وأبو داود[٣]، والترمذي[٤]، والإمام النسائي[٥]، وابن ماجه[٦]، وغيرهم من علماء الحديث، جهدهم مبارك في حفظ السنة النبوية،

---

(١) المرجع السابق (١٥/ ٤٥٨).

(٢) هو الإمام الحافظ المجوِّد الحُجَّة الصادق، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ولد سنة ٢٠٦هـ، من تصانيفه: الصحيح، والعلل، والأقران، قال الحافظ أبو علي النيسابوري: «ما تحت أديم السماء أصحُّ من كتاب مسلم في علم الحديث»، توفي سنة٢٦١هـ. ينظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر (١٠/ ١٢٦).

(٣) هو الإمام الحافظ شيخ السنة، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، ولد سنة ٢٠٢هـ. قال موسى بن هارون: « ما رأيت أفضل من أبي داودَ»، من تصانيفه: السنن، والمراسيل، ومسائل الإمام أحمد، توفي سنة ٢٧٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٣).

(٤) هو الإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث، كان يضرب به المثل في الحفظ والضبط، ولد سنة ٢٠٩هـ، قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان التِّرمِذي إمامًا حافظًا، له تصانيفُ حسنةٌ»، ومن تصانيفه: السنن، والعلل، توفي سنة ٢٧٩هـ. ينظر: قوت المغتذي، للسيوطي (١/ ٨)، وتهذيب الكمال، للمزي (٢٦/ ٢٢٠).

(٥) هو الإمام، الحافظ، الثبت، شيخ الإسلام، ناقد الحديث: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ولد سنة٢١٥هـ، قال الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان النَّسَائي أفقهَ مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال»، من تصانيفه: السنن، والطبقات، والمدلسين، توفي سنة٣٠٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٧٩).

(٦) هو الإمام محمد بن يزيد بن ماجَهْ القزويني، ولد سنة ٢٠٩هـ، قال أبو يعلى الخليليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو ثقةٌ كبيرٌ، متفقٌ عليه، محتج به، له معرفةٌ بالحديث وحفظٌ»، اشتهر بكابه السنن، وله مؤلف في التاريخ، والتفسير، توفي سنة٢٧٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٧٧).

وتدوينها، فميزوا صحيحها من سقيمها، والمقبول منها والمردود، تاركين علمًا غزيرًا وذُخرًا في العلم نافعًا.

ومن المقرئين: الإمام حمزة الزيات[١]، وخلف البزار[٢].

ومن المؤرخين: العلامة ابن إسحاق[٣]، وابن هشام[٤]، والواقدي[٥]، وابن سعد[٦].

---

(١) هو حمزة بن حبيب بن عَمَارة بن إسماعيل، الكُوفيُّ التيميُّ الزيَّات، أحد القراء السبعة المشهورين، إمامًا حجَّة، ثقةً ثبتًا، قيِّمًا بكتاب الله تعالى، حافظًا للحديث، ولد سنة ٨٠هـ، قال محمد بن الفضل: «ما أحسب أنَّ اللهَ يدفع البلاء عن أهل الكوفة إلا بحمزة»، توفي سنة ١٥٦هـ. ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري (١/ ٢٦١).

(٢) هو خلف بن هشام البزار، الإمام الحافظ، وأحد القراء السبعة، كان خيرًا فاضلًا، قال الحسين ابن فهم: «ما رأيت أنبل من خلف بن هشام»، ولد سنة ١٥٠هـ، توفي سنة ٢٢٩هـ. ينظر: معرفة القراء الكبار، للذهبي (ص١٢٣).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرخي العرب، ومن حفاظ الحديث، له السيرة النبوية، وكتاب الخلفاء، ولد سنة ٨٠هـ، قال ابن حبان: «لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه أو يوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار»، توفي سنة ١٥١هـ. ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٤٥٠).

(٤) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، مؤرخ، كان عالمًا بالأنساب واللغة وأخبار العرب، له السيرة، والقصائد الحميرية، توفي سنة ٢١٣هـ. ينظر: الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي (١/ ١٥).

(٥) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي، من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث، ولد سنة ١٣٠هـ، توفي سنة ٢٠٧هـ. ينظر: ميزان الاعتدال، للذهبي (٣/ ٦٦٢).

(٦) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبد الله: مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث، ولد سنة ١٦٨هـ، صحب الواقدي وروى عنه، اشتهر بكتاب الكبير: طبقات ابن سعد، توفي سنة ٢٣٠هـ. ينظر: الأعلام (٦/ ١٣٦).

ومن المفسرين: أبو جعفر الطبري[١].

ومن علماء اللغة العربية: الإمام الخليل بن أحمد[٢]، وسيبويه[٣]، والكسائي[٤].

وبهذا القدر من العلماء ازدهرت النهضة العلمية، وتطور العلم، وكثرت التصانيف في جميع الفنون، وكان لهم جهود عظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

سقوط الخلافة العباسية:

أسهمت عدة أسباب في سقوط الخلافة العباسية التي دامت طويلًا، وشهدت فيها الدعوة الإسلامية تأريخًا مشرقًا، وبالطبع فليس من خصائص المسيرة البشرية أن تظل على وتيرة واحدة، وهكذا كان شأن الدولة العباسية التي ظلت يتعاقبها

---

(١) هو محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، مؤرخ ومفسر، من الثقات المؤرخين، ولد سنة ٢٢٤هـ، له: تاريخ الطبري، وجامع البيان، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، توفي سنة ٣١٠هـ. ينظر: لسان الميزان (٥/ ١٠٠).

(٢) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، ولد سنة، ١٠٠هـ، لغوي ومعجمي ومنشئ علم العروض، ذا ذكاءً خارقًا وفطنة كانت مضربًا للمثل في عصره، من مؤلفاته: كتاب العين، والجمل في النحو، توفي سنة ١٧٠هـ. ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، علي القفطي (١/ ٣٧٦).

(٣) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، لزم الخليل بن أحمد ففاقه، ولد سنة١٤٨هـ، له كتاب سيبويه في النحو، توفي سنة١٨٠هـ. ينظر: الأعلام (٥/ ٨١).

(٤) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة، هو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين، له: مشتبهات القرآن وغيره، توفي سنة ١٨٩هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٩٥).

المد والجزر، فطمع فيها الأعداء من الداخل والخارج، وظهرت حركات كثيرة تدعو إلى الانفصال عن الدولة، وتم الاعتماد على قادةٍ من غير العرب وتقليدهم مناصب عليا في الدولة، وتولى الحكم خلفاء قليلي الخبرة والحنكة، ومن ثم الغزو المغولي الذي استغل ضعف الدولة واهتزاز أمنها، كل هذه الأسباب وغيرها أدت إلى سقوط دولة ذات أثر إسلامي، ورصيد حسن مشرق.

إلا أن مسيرة الدعوة ظلت مستمرة، ما كان لها لتتوقف لسقوط دولة أو قيام أخرى؛ وذلك لأن العالمية والختام من خصائصها، قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠].

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. ما أهم ملامح الدعوة في العهد العباسي؟
٢. للعلماء والدعاة تأثير في المجتمع المسلم، فما أهم أسباب ذلك وما مظاهره؟
٣. للأئمة الأربعة جهود عظيمة ومتنوعة في الدعوة إلى الله، وخدمة الإسلام والمسلمين، اذكر أهمها، متحدثًا عن العلاقة التي جمعت بينهما.
٤. تحدث عن جهود أشهر العلماء والدعاة في العهد العباسي.

الفصل السادس

تاريخ الدعوة في العهد المملوكي ونماذج من الدعاة فيه (٦٥٦-٩٢٣هـ)

وَفِيهِ مَبحَثَان:

* المبحثُ الأولُ: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ الإسلاميةِ في العهد المملوكي.
* المبحثُ الثاني: نماذجٌ من العلماءِ في العهدِ المملوكي.

مدخـــل

استقلت عدة دول عن الخلافة العباسية في عصرها الثاني، الذي اتسم بالضعف لأسباب داخلية وخارجية، فكانت سياسة اللامركزية في الحكم والإدارة، بسبب بعد الأقاليم عن بغداد عاصمة الدولة، واستقلال الدويلات عنها أحد أسباب ذلك الضعف، فكان منها ما هو معترف بالخلافة العباسية، ومنها ما انفصل كليًا عنها دون اعتراف بالخليفة العباسي، وكانت هذه الدول موزعة في مناطق جغرافية متعددة، ومنها: الدولة الطاهرية بخراسان، ما بين (٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٣م) والدولة العبيدية (الفاطمية) بمصر والمغرب، ما بين (٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧٢م)، والدولة الزنكية في الشام ومصر، ما بين (٥٢١-٥٧٦هـ/ ١١٢٧-١١٨٠م)، ودولة الموحدين في المغرب والأندلس، ما بين (٥١٥- ٦٧٤هـ/ ١١٢١-١٢٧٥م)، والدولة الأيوبية في مصر والشام واليمن في القرن السادس، ما بين (٥٦٧ - ٦٤٨هـ/ ١١٧٢-١٢٥٠م)، تبعتها الدولة المملوكية التي حكمت كلًا من مصر والشام والحجاز، ما بين (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، وكان لها دور كبير في التاريخ الإسلامي.

والمماليك جمع مملوك، وهو الرقيق الذي يباع ويشترى، والمملوك هو عبد مالكه، ولكنه يختلف عن العبد الذي بمعنى الخادم[1].

---

(١) تعني كلمة مملوك، ما يملك بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام، على عكس لفظ (العبيد) التي تعني العبودية، ويشتري الحكام الرقيق الأبيض من أسواق النخاسة؛ لتكوين فرقة عسكرية خاصة. سلاطين دولة المماليك ورسومهم في مصر، عبد المنعم ماجد (١/ ١١).

والمماليك الذين تنسب إليهم الدولة، هم أولئك الرقيق- الأبيض غالبًا- الذين درج بعض الحكام المسلمين على استحضارهم من أقطار مختلفة وتربيتهم تربية خاصة، تجعل منهم محاربين أشداء، استطاعوا فيما بعد أن يسيطروا على الحكم في مصر، وأحيانًا الشام والحجاز وغيرها، قرابة ثلاثة قرون من الزمان، ما بين (٦٥٨-٩٢٢ هـ/ ١٢٥٩-١٥١٧م)[١]، وقد استمرت دولتهم إلى أن قتل طومان الملقب بالملك الأشرف سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م، وبذلك انقضت دولة المماليك[٢].

وهذا فصل لأهم ملامح الدعوة الإسلامية في هذا العهد، وأبرز العلماء والدعاة فيه.

(١) حسن المحاضرة، السيوطي (٢/ ٣٥-٣٨).

(٢) المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، شفيق جاسر محمود (١٠٧).

المبحث الأول

أهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد المملوكي

يطلق على مرحلة التاريخ الإسلامي في الفترة (٦٥٨ - ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٩ - ١٥١٧ م) مرحلة العهد المملوكي، رغم أن دولة المماليك لم تحكم سوى مصر والشام والحجاز فقط، ويعود ذلك للأسباب الآتية:

* حملت دولة المماليك صفة الخلافة الإسلامية؛ حيث ضمت خلفاء بني العباس وأعادت إليهم الخلافة (اسميًّا فقط) بعد سقوطها.

* انتصار المماليك على المغول والتتار، حيث أوقفوا زحفهم المدمر، وما استطاع أحد غيرهم تحقيق هذا الإنجاز العظيم.

* استطاعت الدولة المملوكية إنهاء الوجود الصليبي من المشرق الإسلامي، وخضعت لهم الحجاز، وهي مهوى أفئدة المسلمين، ومن يخضعها ينظر له بعين التقدير والتعظيم والطاعة والخضوع.

* تمتعت الدولة المملوكية بموقع استراتيجي متوسط بين شرق وغرب العالم الإسلامي، وتصدوا لبدايات الغزو البرتغالي، ثم أكمل المهمة العثمانيون[1].

أولًا: الحالة الدينية والعلمية:

وصل المسلمون إلى درجة كبيرة من الضعف، بسبب التشتت والبعد عن الإسلام، والغزو الصليبي والمغولي، وتردت الأحوال الاقتصادية وانتشر الفقر في

---

(١) ينظر: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧، أحمد معمور العسيري (ص٢٦٠).

البلاد، «لذا يُعد العهد المملوكي مجهولًا بالنسبة إلى كثير من المسلمين، بل أكثر مراحل التاريخ غموضًا؛ وذلك أن المسلمين كانوا قد قطعوا شوطًا بعيدًا عن العهد النبوي والراشدي، اللذين تمثل فيهما الإسلام بصورة كاملة، وابتعد الناس بعد ذلك عن التطبيق بصورة تدريجية، فكثر الاختلاف والصراع، وتجزأت دولهم إلى إمارات متعددة، بلغت الطموحات الشخصية مداها، والأطماع الفردية أقصاها، ونلاحظ أنه في كل وقت كان يظهر فيه الصدق بل شيء منه، كانت تتوحد بعض عناصر الأمة، وتستطيع أن تؤدي دورًا، بل إن النصر ليقترب بمقدار ما تقترب فيه من الإخلاص للأخذ بتعاليم الإسلام وتطبيق منهجه، ويتأخر النصر بمقدار ما نتفرق ونختلف ونبتعد عن الإسلام»[1].

فحمَّلت هذه المرحلة التاريخية العلماء في مصر والشام المسؤولية كاملًا بعد سقوط بغداد وضياع الأندلس، فشمروا عن سواعد الجد والاجتهاد، فأحيوا العلوم ودونوا الكتب، وصنفوا الموسوعات، وعوَّضوا كثيرًا مما فُقد، وأصبحت بلاد الشام خاصة من أعظم مراكز القوى العلمية في العالم الإسلامي حينذاك، فنشطت الحركة العلمية، وقام العلماء بمهمتهم خير قيام، وكانت الروح الدينية لدى المماليك والشعب عامة مرتفعة، يتضح ذلك من النشاط الديني الغزير في ذلك الوقت، فقد كانت من أغنى فترات التأليف الإسلامي، «حيث وجد المسلمون أنفسهم أنهم وعقيدتهم الهدف من هذا الغزو لا شيء سواه، وربما كان تدوين الكتب الدينية وانصراف الناس نحوها نتيجة العزلة التي عاشوها والتقوقع الذي

(١) ينظر: العهد المملوكي، محمود شاكر (ص١١).

اعتادوا عليه، فانبرى أهل العلم إلى التدوين باستثناء أوقات الجهاد، وربما كانت هذه المرحلة أغنى أوقات التدوين»[١].

فامتاز هذا العصر بكثرة العلماء في العالم الإسلامي عامة، وفي مصر والشام خاصة، شاركوا في النهضة العلمية في هذا العصر، وقد بادر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتصنيف كتاب خاص بتراجم علماء القرن الثامن وسماه: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وجاء في خمسة مجلدات، ذات قيمة وشهرة واسعة، ففي هذه ظهر مشاهير العلماء أمثال: الإمام يحيى النووي، والعز بن عبد السلام، الملقب بسلطان العلماء، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وابن حجر العسقلاني، والحافظ ابن كثير، وابن قدامة، وغيرهم، ساعدهم في ذلك كثرة المنشآت الدينية التي ظهرت في تلك المرحلة، من مساجد ومدارس وأربطة وحلقات العلم، تقوم على تدريس العلوم الدينية، وتقديم الخدمات لطلبة العلم.

ولاشك أن المؤسسات العلمية التي أنشأها المماليك نهضت بمستوى العلم وتقدمه في عهدهم، كالمدرسة الظاهرية[٢]، وأبرزت نخبة من ألمع العلماء في مختلف مجالات الثقافة والعلوم، فبرز جماعة من أفضل علماء المسلمين في التاريخ الإسلامي، شجعهم على ذلك تشجيع المماليك للعلم وترحيبهم بالعلماء؛ لذا فقد أَكثَرَ المماليك من بناء المدارس والجوامع ومساكن طلاب العلم وغيرهم لتكون قبلة للعلماء وطلاب العلم، ينهلون منها العلم في شتى ميادين المعرفة.

فتميز هذا العصر بكثرة المدارس التي أنشأها السلاطين، ابتداءً من عهد

(١) المرجع السابق (ص١٦).

(٢) نسبة إلى الملك الظاهر بيبرس، أمر ببنائها سنة ٦٦٠هـ، وانتهت عمارتها سنة ٦٦٢هـ، وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم، وبني بجانبها مكتبًا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وأجرى لهم الجرايات والكسوة. ينظر: الخطط، للمقريزي (٤/ ٢٢٥).

السلطان بيبرس فصاعدًا، مدفوعين إلى ذلك بعدة عوامل منها: التقوى، والزلفى، واستخدامها في محاربة المذهب الشيعي، ومنها اتخاذ المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم في أيديهم، ودعم مركزهم في أعين الشعب، وقد ألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجِع إليها المدرسون والطلاب في البحث والاستقصاء، فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفُتيا والتدريس؛ أجاز له شيخه ذلك وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك.

وكان هذا العصر يعج بالبدع والخرافات والعادات الباطلة، التي تأصلت في نفوس الناس حتى أصبحت أمرًا مُسلَّمًا، وكأنها جزء من العقيدة والإسلام، إضافة إلى انتشار كثير من الطرق الصوفية التي تبنت الغلو والتطرف مما يتنافى مع مبادئ الإسلام وتعاليمه، فظهر إلى جانب هذه السمات ثلة من العلماء والدعاة المخلصين، والفقهاء المجددين كمن أسلفنا ذكرهم، فقادوا الحركات الإصلاحية دينيًا واجتماعيًا وفكريًا، يدعون للعودة إلى الإسلام الصافي، والالتزام بالقرآن والسنة، والتخلي عن البدع والخرافات.

ثانيًا: الدفاع العسكري عند الدولة الإسلامية:

كان للمماليك دور بارز في إحياء الجهاد في سبيل الله من خلال التصدي لأهم المخاطر التي تعرضت لها الدولة الإسلامية، وترتكز هذه التحديات فيما يأتي:

١- الغزو المغولي للعالم الإسلامي:

استطاع المماليك إيقاف الزحف المغولي الوحشي من خلال معركة عين جالوت[1] العظيمة عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩م، ومعركة عين جالوت هي معركة دُحر

(١) **عَينُ الجالوت**: هي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة. معجم البلدان (٤/ ١٧٧).

التتار فيها، واستعاد المسلمون ما غصبه التتار من بلادهم، وقد شارك الملك المظفر قطز[١] في المعركة بنفسه، فلما زُلزل المسلمون في بداية المعركة أخذ سلاحه وصاح: واسلاماه!، فقُتل أكثر التتار، منهم قائدهم (كتبغا)، وأُسر من فر منهم، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الموقعة: «واتفق وقوع هذا كله في العشر الأخير من رمضان، فما مضت سوى ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت ولله الحمد، وذلك أن الملك المظفر قطز صاحب الديار المصرية لما بلغه أن التتار قد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا غزة، وقد عزموا على الدخول إلى الديار المصرية، ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق وراءهم، ودخل دمشق في أبهة عظيمة، وفرح الناس به فرحًا شديدًا ودعوا له دعاء كثيرًا...»[٢].

وفي نهاية المعركة ذكَّر الملك قطز المظفر المسلمين بأن النصر من عند الله، وأنه لا يجب أن يُطغيهم هذا النصر، بل واجبهم شكر الله والعمل الجليل لنصرة الإسلام[٣]، فكان هذا نصرًا عظيمًا للإسلام والمسلمين؛ لما لمعركة عين جالوت من دور مهم في حماية العالم الإسلامي من مكائد التتار وشرورهم.

وما كان هذا الإنجاز التاريخي ليتم لولا مشيئة الله أولًا، ثم بالتعاون والتكامل بين أمراء وعلماء الدولة المملوكية، فبعد أن عظمت الأراجيف بتحرك التّتار نحو

---

(١) هو السلطان الملك المظفّر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزّى الثالث من ملوك الترك بالديار المصريّة، ونهض لقتال «التتار» وكانوا بعد تخريب بغداد قد وصلوا إلى دمشق، وهددوا مصر، فجمع الأموال والرجال، وخرج من مصر، فلقي جيشًا منهم في «عين جالوت» بفلسطين، فكسره (سنة ٦٥٨) وطارد فلوله إلى «بيسان» فظفر بهم، وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسكره «بيبرس» ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش، فتناولوه بسيوفهم فقتلوه، سنة ٦٥٨هـ. ودفن بالقصير. ثم نقل إلى القاهرة. الأعلام، للزركلي (٥/ ٢٠١).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (١٧/ ٣٩٩-٤٠٤).

(٣) ينظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي (١/ ٥١٧).

البلاد الشاميّة وقطعهم الفرات وهجمهم بالغارات على البلاد الحلبيّة؛ جمع الملك المظفر قطز القضاة والفقهاء والأعيان؛ لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التّتار، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، فحضروا في دار السّلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، والقاضي بدر الدين السّنجاري[١] قاضي الديار المصرية وغيرهما من العلماء، فأفاضوا في الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السّلام، وخلاصة ما قال: إنّه إذا طرق العدوّ بلاد الإسلام، وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألّا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم والآلات النفيسة، ويقتصر كلّ الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامّة، وأمّا أخذ الأموال من العامّة مع بقايا في أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، وانفضّ المجلس على ذلك[٢].

فحرَّك قلوبهم، فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك، فتسابقوا إلى البذل والجود، وكثُرت الأموال، فأعدُّوا العُدة، وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان، واهتزَّت البلدة بالهتاف والتكبير، حتى لكأن كل مصري قائد مظفَّر، وحتى صار كل مصري يشتهي الوصول إلى المعركة[٣].

فما أعظمها من وقفة عالم فذ وناصح أمين، أهاب بالجميع أن يموتوا ذَودًا عن دينهم، وأهاب بالمماليك أن يتنازلوا عن امتيازاتهم، وبالشعب أن يندفع إلى الجهاد بالدم والمال.

---

(١) هو بدر الدّين يوسف السّنجاري الشّافعي، أبو المحاسن، قاضي القضاة، كان صدرًا معظّمًا وجوادًا ممدّحًا، ولي قضاء بعلبك وغيرها، توفي سنة ٦٦٣هـ. ينظر: شذرات الذهب، لابن العماد (٧/ ٥٤٤).

(٢) ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن يوسف الحنفي (٧/ ٧٣).

(٣) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي (٢/ ٨٥).

٢- الغزو الصليبي لبلاد المسلمين:

وفي عهدها أيضًا دُحِر من تبقى من الصليبين في الشام، فبدأ الظاهر بيبرس[١] حملته الشاملة على الصليبين عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وكانت له عدة فتوحات عظيمة؛ منها أنه فتح قيسارية[٢] وحيفا[٣] ثم صفد[٤] ويافا[٥] ثم أنطاكية[٦] التي كانت سندًا قويًّا للحملات الصليبية[٧]، حتى تم تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام في عهد الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون[٨]؛ حيث كانت بعض أملاك للصليبيين

---

(١) هو بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر، ولد سنة ٦٢٥هـ)، صاحب الفتوحات والأخبار والآثار تولى (بيبرس) سلطنة مصر والشام (سنة ٦٥٨ هـ وتلقب بالملك (القاهر، أبي الفتوحات) ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك (الظاهر) . وكان شجاعا، يباشر الحروب بنفسه. وله الوقائع الهائلة مع التتار والإفرنج (الصليبيين) وله الفتوحات العظيمة، توفي سنة ٦٧٦هـ. ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن يوسف الحنفي، (٧/ ٩٤).

(٢) **قَيْسارِيّةُ**: بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديمًا من أعيان أمهات المدن واسعة الرّقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل وأما الآن فليست كذلك. معجم البلدان (٤/ ٤٢١).

(٣) **حَيْفَا**، غير ممدود: حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا. معجم البلدان (٣/ ٤١٢).

(٤) **صَفَدُ**: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. معجم البلدان (٣/ ٤١٢).

(٥) **يافا**: بالفاء، والقصر: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكّا في الإقليم الثالث. معجم البلدان، (٤/ ٤٢٦).

(٦) **أَنْطَاكِيَة**: بتخفيف الياء: مدينة من الثغور الشامية معروفة من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير. معجم ما استعجم، أبو عبيد البكري (١/ ٢٠٠).

(٧) تاريخ المماليك، سهيل طقوش (١٢١-١٢٦).

(٨) هو خليل بن قلاوون الصالحيّ، الملك الأشرف صلاح الدين ابن السلطان الملك المنصور. من ملوك مصر، ولد سنة ٦٦٦هـ، ولي بعد وفاة أبيه (سنة ٦٨٩هـ) واستفتح الملك بالجهاد فقصد =

في الشام لا تزال قائمةً، منها على سبيل المثال عكة[١] التي اتجه إليها وضرب عليها الحصار، واستطاع فتحها عام ٦٩٠هـ، وكان هذا بمنزلة الضربة القاضية التي نزلت بالصليبيين في بلاد الشام، إذ لم تقم لهم بعد ذلك قائمة[٢].

وفي أواخر عهدهم وقفوا أمام التقدم الصليبي البرتغالي، «فكانت مهمتهم تتمثل في الدفاع عن بلاد المسلمين ضد الغزو الصليبي الجديد، الذي تمثل في البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنبي بلاد العرب، وقاموا بحرب صليبية جديدة، حملت مجازًا اسم الاستعمار حتى عرفت به، أو هكذا أطلق الأوربيون هذا الاسم بمعنى الإعمار حتى صار علمًا، هذه المهمة الجديدة رفعت المماليك مرة ثانية في نظر المسلمين في كل جهة من جهة العالم..»[٣].

وهكذا استطاعت الدولة المملوكية بقيادة خلفائها والتعاون مع العلماء بنصحهم وتوجيهاتهم؛ القضاء على الصليبيين ودفعهم عن الشرق الإسلامي، ثم هزيمة التتار الذي عاث في الأرض فسادًا، وانتصارات وفتوحات أخرى تحققت في عهد هذه الدولة.

= البلاد الشامية وقاتل الإفرنج، فاستردّ منهم عكة وصورا وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبيسان وجميع الساحل، وتوغل في الداخل. وكان شجاعًا مهيبًا عالي الهمة جوادًا، له آثار عمرانية، وللشعراء أماديح فيه. قتله بعض المماليك غيلة بمصر، سنة ٦٩٣هـ. الأعلام (٢/ ٣٢١).

(١) عَكّةُ: اسم بلد على ساحل بحر الشام، حصينة كبيرة الجامع فيه غابة زيتون يقوم بسرجه وزيادة، وهي من أحسن بلاد الساحل في أيامنا هذه وأعمرها. معجم البلدان (٤/ ١٤٣).

(٢) تاريخ المماليك، سهيل طقوش (٢٠٧).

(٣) العهد المملوكي، محمود شاكر (٦).

ثالثًا: الحسبة في العهد المملوكي:

كانت مهمة المحتسب النظر فيما يتعلق بالجنايات والنظام العام، وكان عليه الفصل فيها على وجه السرعة، وقد عُهِدَ إليه بالإشراف على نظام الأسواق، وكان له نواب يطوفون فيها ويفتشون أماكنها، ويشرفون على السَّقَّائين للتأكد من نظافتهم، وتغطيتهم القرب، ولبسهم السراويل، كما كان على المحتسب ونوابه الحيلولة دون بروز الحوانيت (الدكاكين) حتى لا تعوق نظام المرور بالشوارع، وكذلك عليهم الإشراف على نظافة الشوارع والأزقة، والحكم بهدم المباني المتداعية للسقوط وإزالة أنقاضها، وكذلك الكشف على صحة الموازين والمكاييل، التي كانت لها دار خاصة تُعرف باسم: «دار العيار»، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم؛ ليتأكد بنفسه من ضبط عيارها، فإن وجد بها خللًا صادرها وألزم صاحبها بإصلاحها أو شراء غيرها، وقد ارتقى نظام الحسبة وشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

وقد كانت المجالات التي يتم فيها الاحتساب متنوعة، فمحتسب يشرف على أهل الذمة، ويأخذهم بالقيود الشرعية، وآخرون في مجال مراقبة الآداب العامة والظهور بمظهر لائق في المجتمع، والمنع من المنكرات العامة، كشرب الخمر، واللباس الضيق، ومنع النساء من الظهور بالمظهر غير اللائق، « وبالجملة فإن سيرة الحسبة في زمن دولة المماليك كان سيرًا حسنًا، وأن بعض محتسبي هذه الفترة قد تمتعوا بسمعة طيبة»[2].

(١) ينظر: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، عدد من المؤلفين (٥/ ١٠٣).

(٢) الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، د سهام مصطفى أبو زيد (٩٢).

وبهذا يتضح ملامح الدعوة في العهد المملوكي، وحال المسلمين، ونهضتهم العلمية والفكرية وأثر العلماء والدعاة في ذلك، وواقع الحسبة وعناية الخلفاء والعلماء بها.

المبحث الثاني

نماذج من العلماء في العهد المملوكي

جملة من العلماء الأخيار قُدِّر لهم العيش في عصر الدولة المملوكية، كان لهم عظيم الأثر، وبالغ الجُهد في إصلاح المجتمع، مخلِّفين علمًا وافرًا نافعًا، نفع الله به الإسلام، ومنهم:

١- ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(٥٤١-٦٢٠هـ/١١٤٦-١٢٢٣م):**

ومن هذه الثلة المباركة، العلامة ابن قدامة القدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي يعد من العلماء المجتهدين، ومن أبرز علماء الحنابلة، صاحب التصانيف الواسعة القيمة، كان واسع الثقافة مطلعًا، أفتى وناظر في فنون عدة، قال عنه ابن تيمية: «ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفق»[٢]، وقال الذهبي: «كان من بحور العلم، وأذكياء العالم»[٣].

وكان موفقًا في اتباع منهج السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فسار على منهجهم وأمر باتباعهم، ودافع عن اعتقاد أهل السنة والجماعة، اتضح هذا من خلال مؤلفاته في العقيدة، التي منها: لمعة الاعتقاد، الذي قرر فيه وأثبت مجمل اعتقاد السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الأسماء والصفات والإيمان والنبوة، معضدًا ذلك بأدلة من الكتاب والسنة.

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقيّ الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين، فقيه، من أكابر الحنابلة، ولد سنة ٥٤١هـ، له تصانيف، منها: المغني، روضة الناظر، والعمدة، والكافي، وغيرها، بلغت الخميس كتابًا، في الفقه، والزهد والرقائق، لقبه الذهبي وابن رجب بشيخ الإسلام، توفي بدمشق سنة ٦٢٠هـ. ينظر: شذرات الذهب (٧/ ١٥٧)، وسير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٩).

(٢) شذرات الذهب (٧/ ١٥٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٩).

وكما أمر باتباع السنة، شدد في الإنكار على البدعة في الدين وحذر منها ومن أهلها، حتى لو كان المتتبع لها من أصحابه أو غيرهم، ولا يرضى البدعة لأحد، وفي ذلك يقول: «فإننا لَا نسوغ لأحد مُخَالفَة السنه كَائِنا من كَان، وَإِن كَانَ من أَصْحَابنَا فَنحْن عَلَيْهِ أَشد إنكارًا من غَيره»[(١)].

٢- العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] **(٥٧٧-٦٦٠هـ/ ١١٨١-١٢٦٢م):**

سلطان العلماء وإمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، له مواقف حكيمة كثيرة في دعوته إلى الله تعالى، فقد أزال بإنكاره الحكيم كثيرًا من المنكرات، وباشر تبطيل بعضها بنفسه، ومن ذلك: إبطاله كثيرًا من البدع المنتشرة: كصلاة الرغائب، وصلاة ليلة النصف من شعبان، وبدعة دق المنبر بالسيف، من أعظم مواقفه الحكيمة التي تجلت حكمته فيها في دعوته إلى الله تعالى، موقفه مع سلطان الديار المصرية: أيوب بن الكامل، ت(٦٤٧)، فقد دخل سلطان العلماء مرةً على هذا السلطان في يوم عيد، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه، وقد خرج على قومه في زينته، وأخذت الأمراء تُقبِّل الأرض بين يديه، والعز بن عبد السلام يرى هذا الموكب العظيم، فالتفت رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى السلطان، وناداه: «يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟! فقال: هل

---

(١) تحريم النظر في كتب الكلام، ابن قدامة المقدسي (٥٩).

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام، بن أبي القاسم، الشافعي، ولد سنة ٥٧٧هـ، أو ٥٧٨هـ، له مصنفات منها: التفسير الكبير، والإلمام في أدلة الاحكام، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، جمع علومًا كثيرةً، وأفاد الطلبة، وولي خطابة دمشق، ثم سافر إلى مصر ودرّس بها وخطب، وحكم، وأعز الله به الإسلام والمسلمين، فلقبه ابن دقيق العيد بسلطان العلماء، وسيرته مملوءةً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للملوك والسلاطين، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، (ينظر: طبقات الشافعية، لابن السبكي (٨/ ٢٠٩).

جرى هذا؟ فقال العز: نعم، الخانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، فقال السلطان أيوب: يا سيدي! أنا ما عملته هذا في زمان أبي، فقال العز: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، فرسم السلطان بإبطال تلك الخانة ومنع بيع الخمور. ورجع العز منتصرًا مسرورًا لتغيير هذا المنكر، وقال له بعض تلاميذه: يا سيدي كيف الحال؟ فقال العز بن عبد السلام: «يا بني، رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه»[(١)]، ولما مرت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه: اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني[(٢)].

وله مواقف أخرى تبين حرصه وجهوده في الدعوة إلى الله من خلال تغيير المنكر، وإقامة الحق، والنصح للمدعوين، بمختلف أصنافهم، حتى كان الخلفاء يهابونه؛ لصرامته في الدين.

٣- الإمام يحيى النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)] (٦٣١-٦٧٦هـ/ ١٢٣٤-١٢٧٧م):

أحد أعلام الحديث الشريف والفقه والتفسير، والعِبادة والزهد والوَرَع، والرِّجال واللغة، ومن العُلَماء العزَّاب، الذين آثَرُوا العلم على الزواج، وهو صاحِب الكلمات النُّورانيَّة الأخَّاذة والقلم السيَّال؛ فهو إمامُ سنَّة، وقامِع بدعة،

(١) ينظر: طبقات الشافعية، لابن السبكي (٨/ ٢١٢)

(٢) المرجع السابق (٨/ ٢١٥)

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعيّ، أبو زكريا، محيي الدين، علامة بالفقه والحديث، من كتبه: تهذيب الأسماء واللغات، ومنهاج الطالبين، =

فكم من أُلُوفِ الآلاف من المسلمين تعلَّموا السُّنَّة منه عبْر العصور، من مؤلَّفاته: «رياض الصالحين، والتبيان، والمجموع».

كان كثيرَ العِبادة من الصلاة والصوم والذِّكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإفادة والتعليم والتأليف، يقول الحق وإن كان مرًا، اتسمت حياته بالجد في طلب العلم، وسعة علمه وثقافته، وكثرة تآليفه، خدم المذهب الشافعي خدمة جليلة، "فكان حافظًا لمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء، ووفاقهم، وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه، وما هُجر، سالكًا في كلِّها ذكر طريقة السلف»[(١)]، كما برع في الحديث وفقهه، فامتاز بين أقرانه بأنه فقيه الأمة.

٤- شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] **(٦٦١-٧٢٨هـ/١٢٦٣-١٣٢٨م):**

ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فترة فقد فيها المسلمون أو كادوا يفقدون معالم الحق وطريق الرشد، بحيث كان المجتمع الإسلامي قد وصل إلى صورة من الانحلال الاجتماعي والتفتت المذهبي، قد اضطربت فيه السياسة والحكم، وظهرت فيه انحرافات في العادات والتقاليد والسلوك والحياة، واشتدت فيه غربة الإسلام،

= والمنهاج في شرح صحيح مسلم، توفي سنة ٦٧٦هـ. ينظر: شذرات الذهب (١/ ٥٥)، وتحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين، لابن العطار (ص٣٩).

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين، لابن العطار (ص٦٥).

(٢) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين بن تيمية: الإمام، ولد في حران سنة ٦٦١هـ، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين. آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان وأفتى ودرّس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففي الدرر منها: مجموع الفتاوى، ورفع الملام، ومنهاج السنة، وغيرهما، توفي سنة ٧٢٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٨٨).

وتفرقت كلمة المسلمين، وظهرت الفرق المخالفة لما كان عليه السلف الصالح، وخيّم الجمود الفكري والتقليد الأعمى، فأثر في الجو العلمي، وظهرت فرق عدة، داخل المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، فاحتاج الوضع إلى داعية حصيف ينهض بعبء الإصلاح للواقع المرير الذي تمر به الأمة الإسلامية، فقام بحركة دعوية وعلمية بعث من خلالها الحياة في روح الإسلام وأهله، وأيقظ حياة كادت معالمها المشرقة أن تختفي.

وإن نشأته في بيت علم وصلاح وتربيته التربية الصالحة، ساعده في القيام بنصرة الدين الحنيف، «فقد قام شيخ الإسلام بنصرة دين الله تعالى، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين، ومحاربة الخوف والجزع الذي ملأ تلك النفوس، وإعادة بناء ما تهدم أو كاد يتهدم من بناء فكري أو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي للأمة الإسلامية، وقد بذل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك»[1].

وإن أُسس المنهج الذي قامت عليه حركة الإصلاح التي تزعمها شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانت قائمة على منهج متين، مستمد من الكتاب والسنة، مقتفيًا في ذلك سنن الأنبياء والدعاة في الإصلاح، فكانت أسسه تتمثل في الحث على التمسك بالكتاب والسنة قولًا وفعلًا، وحرصه على وحدة الأمة واجتماع الكلمة، وتحذيره من كل ما ينقض ذلك، ومراعاته لفقه الأولويات والتدرج في الدعوة، كما اتسم منهجه الدعوي الإصلاحي بالشمولية، فغطى جوانب الحياة المختلفة، وتطبيقه لشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، معدًا ذلك من أسس صلاح

(١) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي (٢١٩).

العباد الذي به صارت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس[١]، وقبل هذا كله كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متصفًا بالصفات التي لابد من توفرها في الداعية الناجح، كالإخلاص، والتقوى، والعلم، والخلق الحسن، واتباع القول بالعمل، والرفق واللين.

وله مواقف كثيرة في الدعوة إلى الله والدفاع عن الإسلام والمسلمين، ساهمت في إصلاح المجتمع، معتمدًا على أساليب دعوية عدة، منها: عقد المناظرات ضد خصوم الدعوة، وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الانتصار لمذهب السلف والدفاع عنه بالحجج النقليّة والعقليّة، وقد عقدت له مناظرات في مصر والشام، كان معظمها يحوم حول هذه القضية»[٢].

ترك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إرثًا علميًّا عزيرًا، تمثل في مؤلفاته القيمة والتي منها: مجموع الفتاوى، والاستقامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهاج السنة، والنبوات، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

تعرض رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمحن عديدة، فما تكاد تنتهي عاصفة إحدى المحن حتى تبدأ محنة جديدة، حتى لقي ربه وهو في سجن القلعة بدمشق، تعامل معها بموقف إيجابي، فتحولت بفضل الله وعونه له إلى مواقف إيجابية كان فيها الخير للإسلام والمسلمين والعزة لعقيدة أهل السنة والجماعة، فالذين يتعرضون لمثل هذه الابتلاءات والمحن كثيرون، والرجال الأشداء ذوو الإيمان الصادق هم الذين لا يضعفون أمامها، وثباتهم وعدم ضعفهم يعتبر نصرًا لهم، إضافة إلى ما أبداه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من رضًا بقضاء الله وقدره، ودوره التربوي والعملي داخل السجن.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٦).

(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد القحطاني (٣١٣).

٥- ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(٦٩١-٧٥٠هـ/١٢٩٢-١٣٤٩م):**

إمام عالم، وشخصية مؤثرة، كان حسن الخلق محبوبًا عند الناس، وعالمًا مرجعًا في العلم، ورجل صالح في العبادة، قال عنه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد، وبالجملة كان قليل النظر في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الفاضلة، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه»[٢]، أُغري بحب الكتب، فجمع منها عددًا عظيمًا، وكتب بخطه الحسن شيئًا كثيرًا، وألّف تصانيف كثيرة منها: إعلام الموقعين، وأحكام أهل الذمة، ومفتاح دار السعادة، وزاد المعاد، وروضة المحبين، والجواب الكافي، والداء والدواء، وغيرها، واسع العلم عارفا بالخلاف ومذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيمية، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه.

اشتغل بالتدريس والخطابة وعكف على التأليف، فحصل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلًا، سوى ما اصطفوه لأنفسهم منها.

وكان منهجه الدعوي يتسم بالصدق والإخلاص في القول والعمل، فكان قوالًا للحق، ذا صلابة في الدين، وصدع بالحق، فلم يكن يحابي أحدًا فيما يعتقد

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين، ولد سنة ٦٩١هـ، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، توفي سنة ٧٥٠هـ. ينظر: الدرر الكامنة (٥/ ١٣٧).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (١٤/ ٢٧٠).

أنه الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفه إياه: «... صادعًا بالحق لا يحابي فيه أحدًا»[١].

وكانت دعوته الإصلاحية مبنية على أن الإصلاح الحقيقي للمسلمين، إنما يتم بتوحيد آرائهم في الشرع، ونبذ الخلافات المذهبية، ومحاربة التلاعب بأحكام الدين، والعودة إلى مذهب السلف في العقائد، والدعوة إلى تحرر فكري يتفهم روح الدين حق الفهم، ثم إنه كان حنبلي المذهب، ولكن من غير تعصب، مع ميل شديد إلى التجديد بالرجوع إلى النصوص القرآنية والنبوية، ومحاربة البدع، والدعوة إلى جمع كلمة المسلمين، والرد على الفرق الضالة[٢].

٦- الحافظ إسماعيل بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] **(٧٠١-٧٧٤هـ/١٣٠٢-١٣٧٢م):**

أحد حفاظ الدين وكتاب الله العظيم، بمؤلفاته الواسعة في أكثر من فن، في التفسير، والتاريخ، والفقه، وعلوم الحديث، تصدى للتدريس، في فن الإقراء، والحديث، وتصدى للفتوى وبيان الحكم الشرعي، وألف التآليف النافعة، كان حريصًا على التزام السنة، والدعوة إلى اتباع السلف، يحارب البدع ويدعو إلى تركها[٤]، من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، المنتصرين لقضايا الدين، يُبين حكم الشرع في الأحداث، قوالًا للحق ملتزمًا به[٥].

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، الإمام الشوكاني (٢/ ١٤٤).

(٢) ينظر: أعلام الفقهاء والمحدثين، الإمام الحافظ شمس الدين بن قيم الجوزية، د. كامل عويضة (٩-١٢).

(٣) هو الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الدمشقي أبو الفداء، حافظ مؤرخ فقيه، ولد سنة ٧٠١هـ، أحد تلاميذ ابن تيمية، أفتى ودرس وانتفع الناس بتصانيفه لاسيما في التفسير، تناقل الناس تصانيفه النافعة ومنها: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، توفي سنة ٧٧٤هـ. البدر الطالع، للشوكاني (١/ ١٥٣).

(٤) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١٤/ ٢٣٥).

(٥) ينظر: ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه، د. محمد الزحيلي (ص١٢٣).

٧- أحمد بن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(٧٧٣-٨٥٢هـ/١٣٧١-١٤٤٨م):**

من العلماء الكبار الذين برزوا في العهد المملوكي، وكان لهم نفع كبير على المجتمع؛ النابغة في الحديث وفي سائر الفنون، حفظ القرآن الكريم وله تسع سنين.

اشتغل بالتصنيف فأكثر منه جدًا، فكان من تصانيفه النافعة: فتح الباري شرح صحيح البخاري، وتهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب، ولسان الميزان، والإصابة في تمييز الصحابة، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر وشرحها.

ولمكانته العلمية أثنى عليه العلماء قديما وحديثًا، ويكفي من ذلك ما قاله عنه الإمام السخاوي: «فأما ثناء الأئمة عليه، فاعلم أنَّ حَصرَ ذلك لا يُستطاع، وهو في مجموعه كلمةُ إجماع»، ثم نقل الكثير من المديح والثناء عليه من مجموع العلماء والطلبة[٢].

وقد شغل الكثير من الوظائف المهمة في الإدارة المملوكية، فتولى القضاء، بعد أن كان لا يؤثر على الاشتغال بالعلم والتأليف شيئًا، وما زال يقوم به حينًا ويتركه حينا آخر؛ وذلك لكثرة التعصب والأهواء، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا رتبة بالأحكام، وخبرةٍ في ولايته القضاء.

---

(١) هو شيخ الإسلام، علَم الأعلام، أمير المؤمنين في الحديث، حافظ العصر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد، الكناني الشافعي المصري، المعروف بابن حجر العسقلاني، ولد سنة ٧٧٣هـ، أخذ العلم عن أئمة كبار، توفي سنة ٨٥٢هـ. ينظر: شذرات الذهب (٩/ ٣٥٩).

(٢) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، شمس الدين السخاوي (٢٦٣).

كما تولى الخطابة في عدة مساجد من أكبر مساجد القاهرة، كالجامع الأزهر، وتميزت خطبه بالسهولة والتأثير، «فكان لخطبه صدع في القلوب، ويزداد وهو على المنبر مِنَ المهابة والنُّور والخَفَرِ ما لا أستطيع وصفه، بحيث كنتُ إذا نظرتُ إليه وهو على المنبر، يغلبنُي البكاء»[١].

وكان ذا منهج فريد في الإصلاح والتغيير، وإسناد المهمة إلى أهلها، ومن ذلك أنَّه إذا رأى مع شخص وظيفةً لا يستحقُّها؛ اجتهد في استنزاله عنها، ويباشرها قليلًا، ثم يرغبُ عنها لمن يستحقها، ممَّن يكون فقيرًا، إمَّا بالقدر الذي دفعه، أو أقل[٢].

كما عني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتدريس واشتغل به، وقد درَّس في أشهر المدارس في عهده، فعقد فيها مجالس الفقه والحديث، والتفسير، والإملاء والإفتاء.

وغيرهم من العلماء الذين زخر العصر المملوكي بهم، وكان لهم أثر كبير في النهضة العلمية والفكرية، كالإمام الذهبي[٣]، والحافظ المقدسي[٤]،

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، شمس الدين السخاوي (٦١٧).

(٢) المرجع السابق (٦١٨).

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله، حافظ، مؤرخ، علامة محقق، تركمانيّ الأصل، ولد سنة ٦٧٣هـ، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها: دول الإسلام، والعبر في خبر من غبر، وطبقات القراء، توفي بدمشق سنة ٧٤٨هـ. الدرر الكامنة، لابن حجر (٥/ ٦٦).

(٤) هو عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقيّ الحنبلي، أبو محمد، تَقِيّ الدين، ولد سنة ٥٤١هـ، حافظ للحديث، من العلماء برجاله، له: عمدة الأحكام، والنصيحة في الأدعية الصحيحة، وأشراط الساعة، وغيرها، توفي سنة ٦٠٠هـ. تذكرة الحفاظ، للذهبي، (٤/ ١١١).

والمزي[١]، وابن جماعة[٢]، وابن الحاجب[٣].

نهاية الدولة المملوكية:

أسباب داخلية وخارجية كانت السبب في تدهور العصر المملوكي ومن ثم سقوطه، فمن العوامل الداخلية:

تراجع زعامة المماليك في العالم الإسلامي، بعد الانتصارات التاريخية ضد التتار والصليبيين، تبع هذا التميز العجز عن مواجهة الصليبيين، وفساد في النظام الإداري والعسكري والإقطاعي بسبب كثرة الضرائب، فتدهور الوضع الاقتصادي الذي كان قويًّا في بداية العصر المملوكي.

كذلك من الأسباب الداخلية: الانحلال الاجتماعي بعد أن كان عصرًا في قمة الرقي والآداب، ثم إن انعزال المماليك عن المجتمع وتكوينهم مجتمعًا مغلقًا خاصًّا بهم، دون اختلاط بالرعية؛ أوجد فجوة بين الحكام والمحكومين.

---

(١) هو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، محدث الديار الشامية في عصره، ولد سنة ٦٥٤هـ، مهر في اللغة، ثم في الحديث ومعرفة رجاله، وصنف كتبا منها: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، وتحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، توفي سنة ٧٤٢هـ. فهرس الفهارس، للكتاني (١/ ١٥٤).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعيّ، بدر الدين، أبو عبد الله: قاض، من العلماء بالحديث وسائر علوم الدين، ولد سنة ٦٣٩هـ، له: المنهل الرويّ في الحديث النبوي، وتذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، توفي سنة ٧٣٣هـ. فهرس الفهارس (١/ ٣٠٦).

(٣) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية، ولد سنة ٥٧٠هـ، من تصانيفه: الكافية، والشافية، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل، توفي سنة ٦٤٦هـ. وفيات الأعيان، لابن خلكان (٣/ ٢٤٨).

أما العوامل الخارجية: فتختصر في تكرار الغارة من قبل الصليبين على المسلمين للانتقام من هزيمتهم السابقة، والطمع في الدولة المملوكية بعد ضعفها، فقد وجهت البرتغال ضربة قاصمة إلى قلب التجارة المملوكية مع الهند، والقضاء على مصدر ثراء الدولة المملوكية، الداعم لقوتها العسكرية، وقد نجحوا في ذلك، مما نجم عنه تدهور أوضاع الدولة الاقتصادية.

ثم جاءت الضربة الثانية من قبل العثمانيين للدولة المملوكية؛ فقد أنهى السلطان سليم الأول العثماني دور المماليك الفاعل في معركة مرج دابق، قضى على دولتهم، وورث ممتلكاتهم وألقابهم، ليصبح حامي الإسلام والمسلمين[1].

وفي هذه الأسباب دروس وعبرة للعلماء والدعاة، وقائدي سفينة الدعوة إلى الله، وأن النصر والقوة يكمنان في الاتحاد والاتفاق، لا في الاختلاف والتضاد، فلو أن كلًا من المملوكيين والعثمانيين أبقوا على تحالفهم الذي بسببه غُلب التتار والصليبيون في بادئ الأمر؛ لما وصل الأمر إلى ما وصل إليه من تناحر وإهراق للدماء وترويع للآمنين.

(١) ينظر: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام.، محمد سهيل طقوش (٥٥٥-٥٦٩).

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. ما أهم ملامح الدعوة في العهد المملوكي؟
٢. لدولة المماليك جهود عظيمة في الدفاع عن الإسلام، أبرز مظاهر ذلك بإسهاب.
٣. تحدث عن أثر العلماء والدعاة في عهد الدولة المملوكية ومظاهر جهودهم في الدعوة إلى الله.

الفصل السابع

تاريخ الدعوة في العهد العثماني ونماذج من الدعاة فيه (٦٩٨-١٣٤٣هـ)

وَفِيهِ مَبحَثَان:

* المبحثُ الأولُ: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ الإسلاميةِ في العهد العثماني.
* المبحثُ الثاني: نماذجٌ من العلماءِ في العهدِ العثماني.

مدخـــل

يطلق على المرحلة التاريخية (٦٩٨-١٣٤٣هـ/ ١٢٩٩-١٩٢٤م)، بالعهد العثماني[١]، وتنتسب إلى عثمان بن أرطغرل[٢] المؤسس، الذي تولى قيادة قبيلته التركية بعد وفاة أبيه، وذلك تحت حكم سلطان الدولة السلجوقية[٣] والتي ضعفت فاستأثر بجميع الأراضي المقطعة له، ثم أخذ في توسيع دائرة أملاكه، وبذلك ابتدأت الدولة العثمانية[٤]، واستمرت لأكثر من ستة قرون، إلى أن كانت نهايتها على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، وكان آخر سلاطينها عبد المجيد بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد كانت في بداية أمرها دويلة ضعيفة الشأن، حتى أصبحت الدولة الأولى في العالم باسم الإسلام، فقد بدأت بإمارة ثغر، ثم تحولت إلى سلطنة، ثم إلى خلافة وسلطنة.

---

(١) تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (٢/ ١٥٣).

(٢) هو عثمان بن سليمان شاه التركماني المعروف بعثمان الأول يرجع نسبه إلى التركمان من طائفة التتار، ولد عام ٦٥٦هـ، وهو العام الذي سقطت فيه بغداد في أيدي التتار، كان شجاعًا غيورًا على الدين، محسنًا للفقراء والمساكين، توفّي سنة خمس وَعشْرين وَسَبْعمائة وَكَانَت مدَّته سِتًّا وَعشْرين سنة. ينظر: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين المكي (٤/ ٧١-٧٢).

(٣) إحدى الدويلات التي ظهرت في العصر العباسي، تنسب إلى جدهم دقاق، تأسست على يد العائلة العسكرية الحاكمة لقبائل الغز التركية، بقيادة السلجوق بن دقاق، واتخذت مدينة جند قاعدة لها، كانت على المذهب السني، انهارت بعد معارك عدة سنة ٥٩٠هـ/ ١١٨٦م. ينظر: موجز في تاريخ دويلات المشرق العربي، أحمد عدوان (ص١٧٧).

(٤) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد (ص١١٦-١١٧).

ولم يكن الحكم العثماني قد شمل الأمصار الإسلامية كلها، لكنه ضم أكثرها، وكانت الخلافة محط أنظار المسلمين ولو كانوا خارج حدودها؛ بصفتها مركز الخلافة، وبصفة حاكمها خليفة المسلمين كافة.

وفيما يأتي عرض موجز لأهم ملامح الدعوة الإسلامية في العهد العثماني، مع ذكر لنماذج من العلماء والدعاة فيه.

المبحث الأول

أهم ملامح الدعوة الإسلامي العهد العثماني

تابعت الدولة العثمانية مسيرة الدعوة الإسلامية، وشهدت كغيرها من الدول التي سبقتها نهضة قوية في بداية أمرها، حيث كانت تعتني بالشريعة وتحقيق العدل بين الناس وإصلاح المجتمع، فقد بين مؤسسها الأمير عثمان بن أرطغرل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصيته لابنه (أورخان) دستور الدولة ومنهجها، وأن حماية الدين ونشره بالجهاد في سبيل الله، وتقدير العلم والعلماء، والاحتكام لشرع الله، أهم مبادئها، فقال: « يا بني ! إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلًا، يا بني ! أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة، يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جَلَّ جَلَالُهُ، يا بني! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل، يا بني! اعلم أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم؛ أمانة في عنقك، سيسألك الله عَزَّوَجَلَّ عنها.. واعلم يا بني! وصيتي لكم ولأبنائي وأصدقائي، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، اخدموا الإسلام دائمًا، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله»[1].

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية، إيناس البهجي (ص٤٣).

وبهذا المنهج الذي قامت عليه الدولة العثمانية، وبتطبيقها لفريضة الجهاد؛ استطاعت الدولة ضم العديد من المناطق إلى حوزة المسلمين، ومن أشهرها: شبه جزيرة المورة، وبلاد ألبانيا إلى حدود البندقية الواقعة في إيطاليا، ومقدونيا، وصوفيا، وسالونيك، وجميع القسم الشمالي من اليونان، وأغلب بلاد البلقان، كما فتحت بلجراد، وجزيرة رودس[1].

وخلال مسيرة الدولة العثمانية الطويلة، وما اكتنف هذه المدة من مشكلات وصراعات داخلية وخارجية، شهد تاريخ الدعوة مسارات متعددة، ومرت عليه حقب متنوعة، نورد أهم ملامح ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الحالة الدينية والعلمية والفكرية:

يمكن تقسيم الحالة الدينية والعلمية والفكرية في العهد العثماني إلى قسمين أو حالتين:

حالة قوة مرت بها الدولة العثمانية خاصة في بداياتها، ومن مظاهرها:

١. نشر الإسلام وتوسيع رقعته:

حيث حمل الأتراك الإسلام وعملوا على نشره في كل مكان استطاعوا إليه سبيلًا، حتى كوَّنوا إمبراطورية إسلامية من أقوى الإمبراطوريات، امتدت من بودابست عاصمة المجر إلى الجزيرة العربية، ومن السودان حتى شمال إفريقيا، واستمر حكمهم أكثر من ستة قرون، استطاعوا خلالها أن يصلوا بالإسلام إلى عمق أوروبا، كما فتحوا القسطنطينية.

---

(١) ينظر: التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، محمود شاكر (٨/ ٩٧-١٤٧).

٢. العناية بالعلم والعلماء:

وذلك بتجميع النابغين من جميع القرى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فنٍّ وعلم، وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة حضاريًا وعسكريًا حتى باتت الدولة الأولى في العالم.

ووصية محمد الفاتح لابنه خير شاهد على هذا، إذ يقول فيها: «وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال، حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك...»[١].

كما انتشر العلم في كافة أنحاء السلطنة العثمانية وقد عرفت بعض المدارس باسم الكتب الأساس التي تدرسها من ذلك: «حاشية التجريد»، و«المفتاح»، و«التلويح»؛ أي إنها أخذت أسماء الكتب الأساسية التي كانت تدرس فيها[٢].

٣. الدفاع عن مقدسات المسلمين:

فقد وقف السلطان عبد الحميد وقفة تاريخية أمام المطامع اليهودية في أرض فلسطين، وذلك لما عرضوا عليه تقديم ١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهبًا في مقابل تسهيل إقامة اليهود في فلسطين، رفض قائلًا: «إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا فضلًا عن ١٥٠ مليون ليرة إنجليزية ذهبًا، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الأمة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، فلهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضًا»[٣].

(١) تاريخ الدولة العثمانية، د. إيناس البهجي (ص٢٠٩).

(٢) ينظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب (ص٣١٩-٣٢٠).

(٣) صراعنا مع اليهود في ضوء السياسة الشرعية، د. محمد عثمان شبير (ص٢١).

ومع كل ما تقدم فإن الدولة العثمانية مرت بحالة ضعف شديد أدت إلى إنهيارها وتفككها ومن أبرز مظاهر حالة الضعف التي مرت بها الدولة العثمانية:

١. ضعف العناية بالعقيدة الصحيحة:

صلاح المعتقد فيه سعادة المجتمع وفلاح أفراده، فيوم أن كانت الدولة العثمانية محققة للتوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشامل، وتحارب الشرك؛ كانت في ذروة التمكين والعزة والنصر، أما في العصور المتأخرة فقد تغير الحال، فأصبحت الدولة غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، وحدث انحراف رهيب في توحيد الألوهية، فانتشرت عبادة القبور والأضرحة، وبناء المساجد والقباب عليها وكسوتها، وانتشر ذلك في كثير من بقاع العالم الإسلامي، فأصبحت تلك المشاهد والأضرحة محلًا للاستغاثة والاستعانة بأصحابها، وانتشرت عقائد شركية، كالذبح لغير الله، والنذر للأضرحة، والاستشفاء وطلب البراء منها والاعتصام بها، ودخل إلى التصوف تقديس وتمجيد الأحياء منهم والأموات، ونُسبت إليهم الكرامات وخوارق العادات، فانتشر الجهل، واتسعت دائرة التخلف[١].

٢. انتشار الفساد:

نخر الضعف في جسم الدولة العثمانية في مراحلها المتأخرة فانتشر الفساد وعمت الرشوة والسرقة في المجتمع ودخل الانحراف قصور الأمراء والوزراء، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

---

(١) ينظر: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، د. توفيق الطويل (١٥٠-١٥٤).

(٢) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص١٥٦).

٣. ضعف العناية باللغة العربية:

أغفلت الدولة العثمانية الاهتمام باللغة العربية مما ساهم في ضعف فهم الإسلام من مصادره، فالقرآن عربي، ورسول الإسلام عربي، ولا يمكن فقه هذا الدين من مصدريه القرآن والسنة إلا بالوقوف على هذين المصدرين والاستقاء من ينابيعها وعطائها، فكان على العثمانيين وقد تسلموا قيادة العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، أن يحكموا لغة القرآن، ويتصلوا اتصالًا مباشرًا بمصادر الإسلام الأولى، إلا أنهم ظلوا على لغتهم، وتعصبوا لها في نهاية المطاف، ولم يعطوا الفرصة للغة القرآن أن تأخذ مجالها على مستوى القيادة والحكم، فوقعت الفجوة بينهم وبين مصادر الإسلام وسائر الأمة؛ وازداد ذلك على مر الأيام حتى تقهقرت حضارة الإسلام إلى الوراء[١].

٤. ظهور الاتجاهات الفكرية المنحرفة:

شهد أواخر العهد العثماني نشوء العديد من الاتجاهات والأفكار والأحزاب السيئة التي أثرت في مجريات حياة المجتمع الإسلامي، وأعاقت مسيرة الدعوة الإسلامية، فكان من أشهر تلك الاتجاهات والفرق: جمعية الاتحاد والترقي[٢]، والماسونية، والقومية.

---

(١) ينظر: التاريخ الإسلامي، (العهد العثماني)، محمود شاكر (ص٢٠٩).

(٢) هي جمعية تركية نشأت في أوروبا عام ١٣١٦هـ-١٨٩٨م مناوئة للخلافة العثمانية تحت ستار التجديد والتحديث، وتكونت في البدء تحت اسم جمعية تركيا الفتاة، وانضم لها يهود من الدّونمة الذين ساهموا في الانقلاب على الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع الجهني (١/ ٣٢٥).

٥. العداء للدعوة الإصلاحية في الجزيرة العربية:

قامت في الجزيرة العربية خلال فترة العهد العثماني دعوة إصلاحية عظيمة، تدعوا إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وتحكيم أحكام الشريعة في مختلف مجالات الحياة، وقد واجهت الدولة العثمانية هذه الصحوة المباركة وهي التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقيام الدولة السعودية الأولى، بالمعارضة بمختلف الوسائل، واصفة أهلها بالخوارج ومريدي الفتن، ومن ثم تجريد الجيوش لمحاربتها في عقر دارها وإسقاطها عام ١٢٣٣هـ[١].

وهكذا يكون للقارئ فكرة موجزة عن حالة الدعوة إلى الله في العهد العثماني، وأنها كغيرها من الدول التي سبقتها، تبدأ قوية، متقدمة في جميع المجالات، ثم سرعان ما يدخلها الضعف إما لأسباب داخلية أو خارجية، يكون لها تأثير على ساحة العلم والعلماء وتاريخ الدعوة.

ثانيًا: الفتوحات الإسلامية:

اعتنى العثمانيون بالفتوحات الإسلامية من خلال ثلاثة محاور هي على النحو التالي:

١. توسعة رقعة الدولة الإسلامية:

حيث توالت الفتوحات ووصلت إلى مالم تصل إليه من قبل، وتُوِّجت بفتح القسطنطينية في زمن محمد الفاتح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م، ثم في عهد

(١) الدولة السعودية الأولى، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (ص٣٥٣).

(٢) هو السلطان محمد الثاني بن مراد خان، سابع سلاطين آل عثمان يلقب بالفاتح لفتحه القسطنطينية، تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده سنة: ٨٥٥هـ، وكانت مدة ولايته إحدى وثلاثين سنة، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ٨٨٦هـ. ينظر: الضوء اللامع (١٠/ ٤٧).

السلطان سليمان بن سليم القانوني اتسعت الفتوحات وبلغت الدولة أقصى قوتها، وكان من بين الفتوحات؛ فتح المجر، في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م[١].

٢. الوقوف في وجه الصليبين:

تصدت الدولة العثمانية بحزم في وجه الصليبيين، وامتدت ساحة القتال بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر، وعدن، وعمان، والخليج العربي، بل إن كل جهة كان يفتحها البرتغاليون يُسرع العثمانيون للوقوف في وجههم، وربما كان للعثمانيين دور كبير في إنهاء النفوذ البرتغالي من بلاد المسلمين، وقد يكون قد فاق بقية أدوارهم في مقارعة الصليبيين[٢].

٣. الوقوف في وجه الأطماع الصفوية:

كانت الدولة الصفوية في إيران خنجرا في خاصرة أهل السنة وقد شنت الغارات على الدولة العثمانية متحدين مع البرتغاليين الصليبيين وهذه الأسباب ساهمت في وقوع معركة شهيرة باسم جالديران، سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، بين الدولتين العثمانية والصفوية، وقد انتصر العثمانيون، وانكسر جيش الصفويين[٣].

ثالثًا: العناية بالمساجد:

أولى العثمانيون عنايتهم بالمسجد بناءً وإصلاحًا؛ فاهتموا بالمسجد النبوي كغيرهم من الخلفاء فكان السلطان سليمان القانوني[٤] أول من عمل إصلاحات في

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد (ص١٩٩)؛ تاريخ الدعوة، الخولي (٢/ ١٥٣-١٥٤).
(٢) ينظر: التاريخ الإسلامي، (العهد العثماني)، محمود شاكر (ص٢٧-٢٨).
(٣) ينظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل أحمد ياغي (ص٢٤٦).
(٤) هو السلطان سليمان القانوني بن سليم الأول، مجاهد قل نظيره في تاريخ الإسلام، فتح البلاد وعمرها، ونشر العدل، وسن القوانين العثمانية العليا، أحد أشهر السلاطين العثمانيين، =

المسجد النبوي الشريف من العثمانيين، فقام بعمل بعض الترميمات والإصلاحات وذلك عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، وكذلك عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، كما قام عدد من السلاطين العثمانيين بإجراء عدة إصلاحات للمسجد النبوي، وفي عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، قام السلطان عبد المجيد[١] الأول بعمارة لكامل المسجد النبوي، والتي تعتبر العمارة الرئيسة في عهد العثمانيين، واستمرت حتى عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م، فكان العمال يهدمون جزءًا ثم يبنونه، حتى لا تتعطل الصلاة في المسجد، وهكذا إلى أن تناولت العمارة للمسجد كله عدا المقصورة وما فيها، والمنبر الشريف، والجدار الغربي، والمحراب النبوي، والمحراب العثماني، والمحراب السليماني، والمنارة الرئيسة، فأبقوها على حالها؛ لإتقانها وحسن صنعها.

رابعًا: العناية بالأوقاف الإسلامية:

اعتنى العهد العثماني بالوقف في مختلف مجالات الحياة، الدينية والتعليمية والاجتماعية، حيث اتسعت مساحة الأوقاف كثيرًا، فأوقفت الأوقاف على المدارس، والمساجد، والخدمات البلدية، والمستشفيات، وما إلى ذلك، كما كان للحرمين الشريفين منها نصيب كبير، ومن أجل تنظيم الأوقاف وضبط مصارفها، أقيمت إدارات خاصة بها، استمر العمل بها في معظم البلاد الإسلامية[٢].

= وحكم لفترة ٤٦ عامًا منذ عام ١٥٢٠، زادت مساحة الدولة العثمانية بأكثر من الضعف خلال فترة حكمه، حيث فتح شمال أفريقيا، وفي أوروبا قضى على دولة المجر وفتح فيينا وبلجراد، اشتهر بالفطنة والذكاء، توفي سنة ١٥٦٦م. ينظر: الدولة العثمانية، محمود شاكر (ص٢٠٠).

(١) هو السلطان عبد المجيد الأول بن محمود الثاني، الخليفة الحادي والثلاثون، ولد سنة ١٢٣٧هـ، تولى السلطة وهو ابن ١٦ سنة، كان شديد الذكاء، واقعيًّا ورحيمًا، أحب الإصلاح وأدخل التنظيمات الحديثة، ترقت في أيامه العلوم والمعارف، توفي سنة ١٢٧٧هـ. ينظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون (ص١٩٨).

(٢) ينظر: عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم، عبد الوهاب أبو سليمان (ص٢).

الخلاصة أن ما سبق يعد أهم ملامح الدعوة الإسلامية إبان العهد العثماني، ففي فترة قيام الدولة على منهج الإسلام والدعوة إليه ورفع رايته في الأرض، وتطبيق مبادئ الشرع في واقع الحياة، كانت فترة قوة وإزدهار.

وعندما بدأت تلك العوامل تذبل تحولت القوة إلى ضعف وبدأت الثغرات تتسع، فاستغلها الأعداء للدخول لهدم وإسقاط ما بناه المسلمون، مما يدل على أن معاناة المسلمين هي نتائج لسلوكهم السلبي، وأن العبرة ليس في قوة أعدائنا، بل في بعدنا عن صراط الله المستقيم، ومنهج النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المبحث الثاني

نماذج من العلماء في العهد العثماني

شهدت الدولة العثمانية قيام عدد من العلماء والدعاة المصلحين في عدد من البلدان الإسلامية، بجهود علمية وفكرية، ساهمت في توعية المسلمين وتثقيفهم، إلى جانب جهود بعض سلاطين الدولة، ومنهم:

١- محمد الفاتح رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٣٣-٨٨٦هـ/١٤٢٩-١٤٨١م):

كان لمحمد الفاتح دور دعوي جليل؛ من أجلِّه فتح القسطنطينية التي بشر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتحها؛ ففي حديث عَبْد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما نحن حول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكتب، إذ سئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي المدينتين تفتح أولا: قُسْطَنْطِينِيَّةُ[١] أَوْ رُومِيّة؟[٢] فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا، يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ**»[٣].

لذا فقد حاول الخلفاء منذ عهد معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أن ينالوا شرف هذا الفتح، حتى ولي محمد الفاتح السلطة العثمانية سنة ٨٥٥هـ فتطلع إلى فتح القسطنطينية، وجاهد لذلك واتخذ الأسباب حتى توج حياته بفتحها سنة ٨٥٧هـ.

---

(١) **قُسْطَنْطِينِيّة**: ويقال قُسْطَنْطِينَة، بإسقاط ياء النسبة، كان اسمها بزنطية، فلما دخل إليها قسطنطين الأكبر عمرها وبنى عليها سورا وسماها باسمه، معجم البلدان، الحموي: (٤/ ٣٤٧)، فلما فتحت سنة ٨٥٧هـ، سميت إسلامبول أي مدينة الإسلام. تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد (ص١٦٤).

(٢) **رومية**: هي روما، المدينة التي بها رئاسة الروم وعلمهم، وبها يسكن البابا الذي يطيعه الروم كلهم، واسمها رومانس بالروميّة، فعرّب هذا الاسم فسمّي من كان بها روميًّا. معجم البلدان، الحموي (٣/ ١٠٠). وهي عاصمة إيطاليا اليوم.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ١٣٩٩) برقم: (٦٧٥٥)، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني رحمه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٣)، رقم: (٤).

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ محبًّا للعلم والعلماء ومشجعًا على نشر العلوم، ولقد ساهمت تربية العلماء في تنشئته على حب الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وإن مما يلخص معالمه الدعوية؛ تلك الوصية التي تركها لابنه، يقول فيها: «ها أنا ذا أموت، ولكني غير آسف، لأني تارك خلفًا مثلك، كن عادلًا صالحًا رحيمًا، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها، وسع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك»[1].

(١) السلطان محمد الفتاح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، د. عبد السلام عبد العزيز فهمي (ص١٧١-١٧٢).

٢- محيي الدّين مُحَمَّد بن حَمْزَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] المتوفى سنة (٩٣٨هـ - ١٥٣١م):

كان من علماء هذا العصر، اشتغل بالعلم والطلب، فدرَّس وأفتى ووعظ، واشتهرت فضائله، مكث ثمان سنين مشتغلًا بالتفسير والحديث والرد على الملاحدة والروافض والصوفية، وقد حثَّ السلطان سليم خان على الجهاد وألف له كتابًا في أحوال الغزو وفضائله، وذهب معه في بعض حروبه فكان يعظ الجند ويذكرهم ثواب الجهاد، كما كان يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فانصلح بسببه كثير من الناس، وأسلم بين يديه كثير من الكفار، وكانت نفقته من تجارته وأكثر أوقاته مصروفة إلى مصالح الخلق من الوعظ والتدريس والإفتاء[٢].

٣- السلطان سليمان القانوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٠٠-٩٧٤هـ /١٤٩٥-١٥٦٦م):

يعتبره بعض المؤرخين من أعظم الملوك الذين عرفتهم البشرية، حيث شمل ملكه مساحات شاسعة في القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا، فتح البلاد وعمرها، ونشر العدل، وسن القوانين العثمانية العليا (سبب تسميته بـ«القانوني»)، وقام بترميم القدس، وأصلح من حال مكة والمدينة، وعمَّر الطرق، وأنشأ المدارس، تقلد منصب الخلافة وهو في السادسة والعشرين من عمره، فظن الأعداء أنه لقمة سائغة، وطمعوا في أرض الخلافة الإسلامية، إلا أنه خيَّب أملهم، فباغتهم بهجوم مضاد، ففتح مدينة «بلغراد» المنيعة، كان يستفتح رسائله بالآية الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠]؛ تيمنًا بنبي الله سليمان الذي بُعِث في بلاد الشام[٣].

---

(١) هو محيي الدّين مُحَمَّد بن عمر بن حَمْزَة، تفقه في العلم وبرع فيه، فكَانَ عَالمًا ربانيًّا دَاعيًا إلى الْهدى والإصلاح دَائِمًا أمات بدعًا كَثِيرَة وَأَحْيَا سننًا كَثِيرَة. الشقائق النعمانية، أحمد زاده (ص٢٤٨).

(٢) ينظر: الشقائق النعمانية، مرجع سابق (ص٢٤٨).

(٣) ينظر: تاريخ الدولة العثمانية، محمد بك وآخرون (ص١٩٨).

٤- أبو السعود أفندي العمادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] (٨٩٨ - ٩٨٢هـ/ ١٤٩٣-١٥٧٤م):

كان عالمًا عاملًا، شديد التحري في فتاويه حسن الكتابة عليها، وافر الأنصاف دينًا خيرًا سالم الفطنة جيد القريحة، لطيف العبارة، حلو النادرة»[٢]، عُين في عدة مدارس لتعليم اللغة العربية وعلوم الدين، ثم ترقى في التدريس والمناصب، حتى ولي الإفتاء الأعظم، وألف المؤلفات الحافلة منها التفسير المشهور المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.

٥- حاجي خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] (١٠١٧-١٠٦٧هـ/١٦٠٨-١٦٥٦م:

من المؤرخين والجغرافيين، تولى أعمالًا كتابية في الجيش العثماني، وكان رئيس كتبة أسرار السلطان مراد الرابع ووزير المالية في أيام سلطنته، وانقطع في السنوات الأخيرة من حياته إلى التدريس، ومن كتبه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) مجلدان، وهو أنفع وأجمع ما كتب في موضوعه بالعربية، وألف كتبًا بالتركية والفارسية، وترجم بعضها إلى العربية.

ومما يدل على عنايته بالعلم وحبه للكتب؛ أنه ورث مالًا عن أحد أقاربه، استعان به على العلم والتعلم، حيث قال: «مات رجل تاجر من أقاربي ورثت منه مالًا

---

(١) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المُفْتي والمُفسِّر، ولد في إحدى ضواحي القسطنطينية في بيت علم وفضل، تلقى العلوم على يد نخبة من علماء عصره، ومنهم والده، حتى اشتهر أمره، وذاع صيته لعلمه وفضله، اشتغل بالتدريس، وتولى قضاء القسطنطينية وغيرها من المدن، وتولى بعد ذلك الإفتاء ومكث فيه ثلاثين سنة، وقام بأمره خير قيام. الأعلام، للزركلي (٧/ ٥٩).

(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، لمحمد الغزي (٣/ ٣٢).

(٣) هو مصطفى بن عبد الله، الشهير بالحاج خليفة، مؤرخ بحاثة، تركي الأصل، مستعرب. مولده سنة ١٠١٧هـ، بالقسطنطينية، توفي سنة ١٠٦٧هـ، من كتبه غير كشف الظنون: تقويم التواريخ، وميزان الحق وغيرها. ينظر: الأعلام (٧/ ٢٣٦).

كثيرًا، فاستعنت بذلك المال على إصلاح حالي والانقطاع لطلب العلم والتصنيف، فأنفقت جانبًا عظيمًا من تلك الثروة التي وصلت إلي في اقتناء الكتب»[١].

٦- مُصْطَفى صَبْري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] (١٢٨٦ - ١٣٧٣ هـ /١٨٦٩ - ١٩٥٤م):

كان عالمًا من علماء الدولة العثمانية في آخرها، والدولة مقبلة على الانهيار ودعاة التغريب في أوج قوتهم، عُيِّن مدرسًا في جامع محمد الفاتح، باسطنبول، وهو في الثانية والعشرين من عمره، وشد ذكائه وقوة حفظه وعمق تحصيله انتباه مشايخه، تولى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية، وشغل رئيس مجلة «بيان الحق»، ثم أصبح عضوًا في دار الحكمة الإسلامية.

قضى ثلث قرن في حياة الكفاح، ومدافعًا عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها، معانيًا في سبيل ذلك ألوان الشدائد والمصائب، فوقف وقفة رجل عالم لمن أرادوا تشويه التاريخ الإسلامي، كما تصدى لحملة واسعة شنها دعاة الفكر الغربي عندما نادوا بخروج المرأة وسفورها، فعانى معاناة شديدة، حتى أُجبر على مغادرة البلد، فهاجر إلى اليونان، وقام بنشاط الدعوة هناك، ومن كتبه: (موقف البشر تحت سلطان القدر)، و(النكير على منكري النعمة في الدين والخلافة والأمة) و(مسألة ترجمة القرآن، و(القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون)، و(موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)، وله مؤلفات بالتركية طبع بعضها[٣].

---

(١) معجم المطبوعات، يوسف بن إليان سركيس (٢/ ٧٣٢).

(٢) هو مصطفى صبري، من علماء الحنفية، فقيه باحث، تركي الأصل والمولد والمنشأ، ولد في (توقات) سنة ١٢٨٦هـ، وتعلم بقيصرية (في الأناضول)، حفظ القرآن ورحل لطلب العلم، توفي سنة ١٣٧٣هـ. ينظر: الأعلام، للزركلي (٧/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب (٢٠١-٢٠٤)، والأعلام، للزركلي، (٧/ ٢٣٦).

ومن العلماء الذين كان لهم أثر في النهضة العلمية في هذه الفترة: العلامة: مُلّا خُسْرُو[١]، وابن كَمَال باشا[٢].

وغيرهم من العلماء الذين عاشوا في الدولة العثمانية، وكان لهم دور بارز في التعليم والتثقيف، ذكر منهم صاحب كتاب الشقائق النعمانية أكثر من خمسمائة عالم في نصف قرن فقط، «وإن القسم الأكبر من تلك الشخصيات التي احتواها هذا الكتاب، كان قد خلف مؤلفات كثيرة في مجال العلوم الإسلامية»[٣].

سقوط الدولة العثمانية:

بدأت الإمبراطورية العثمانية بالانهيار منذ القرن الثامن عشر، وانتهت بهزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى، ولما استولى كمال أتاتورك على الحكم فيها، أخذ يقضي على الإسلام فيها شكلًا وموضوعًا، وأسقط من دستورها أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة، بل وعادى الإسلام واللغة العربية، واعترف بالوجود اليهودي في فلسطين سنة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م[٤].

---

(١) هو محمد بن فرامُرز بن علي، المعروف بملا خسرو، عالم بفقه الحنفية والأصول، رومي الأصل، تبحر في علوم المعقول والمنقول، وتولى التدريس في زمان السلطان محمد بن مراد، وولي قضاء القسطنطينية، وتوفي بها، قال ابن العماد: صار مفتيا بالتخت السلطاني، وعظم أمره، وعمر عدة مساجد بقسطنطينية، من كتبه: درر الحكام في شرح غرر الأحكام، وحاشية على التلويح، توفي سنة ٨٨٥هـ. الأعلام، للزركلي (٦/ ٣٢٨).

(٢) هو أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين، قاض من العلماء بالحديث ورجاله، تركي الأصل، مستعرب، قال التاجي: قلما يوجد فن من الفنون وليس لابن كمال باشا مصنف، تولى القضاء والإفتاء، له تصانيف كثيرة، منها: طبقات الفقهاء، وطبقات المجتهدين، وتغيير التنقيح، توفي سنة ٩٤٠هـ. الكواكب السائرة (٢/ ١٠٨).

(٣) العثمانيون في الحضارة والتاريخ، محمد حرب (ص٣١٨).

(٤) ينظر: تاريخ الدعوة، د. جمعة الخولي (ص١٧٩).

وكان التخطيط الصليبي والصهيوني لضرب الإسلام والمسلمين، أحد أهم أسباب سقوط الخلافة العثمانية، حيث قُصدت الدولة ونظام الخلافة، فظهرت القوميات المتنوعة التي ساعدت على الانهيار، رغم حرص السلطان عبد الحميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على بث روح الحياة من جديد، إلا أن الأخطاء السابقة الكبيرة والمتراكمة، هبطت بالأمة إلى القاع، وهذا ما سهل على الغرب شن هجمات صليبية حاقدة، أدت إلى تجزئة العالم الإسلامي، ونهب ثرواته، مع بث الفكر الغربي في المجتمع المسلم، ومحاولة تنصيره المسلمين مع الكيد للإسلام والمسلمين، وتشويه التاريخ الإسلامي، كل هذا ساهم في إعاقة مسيرة الدعوة الإسلامية وأثَّر فيها، ومع ذلك فالأمة الإسلامية قد تغفو إلا أنها لا تموت، وما إن تضعف في فترة إلا وتنهض مرة أخرى بعزائم الدعاة الصادقين والمخلصين، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. ما أهم ملامح الدعوة في العهد العثماني؟
٢. بين كيف قاوم العهد العثماني المد الصليبي البرتغالي والصفوي؟
٣. تحدث عن العلماء وجهودهم في الدعوة إلى الله في العهد العثماني.

الفصل الثامن

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية
(١١٥٧-١٢٣٣هـ/ ١٧٤٤- ١٨١٨م)

وَفِيهِ مَبحَثَان:

- المبحثُ الأولُ: أهمُّ ملامحُ دعوةِ الشيخِ محمدُ بن عبد الوهابِ وانتشارهَا في العالمِ الإسلاَمي.
- المبحثُ الثاني: نماذجٌ منَ العلماءِ زمنَ الدعوةِ الإصلاحيةِ.

مدخـــل

تُعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م) حجر الأساس في قيام الدولة السعودية الأولى، في قصة كفاح من أجل نشر الإسلام وعقيدته الصافية، فكان ذلك تحولًا كبيرًا في حياة الجزيرة العربية عامة، بل إنَّ أثرها وصل إلى أطراف متعددة من العالم العربي والإسلامي.

وقد جاءت هذه الدعوة المباركة في وقت اشتدت فيه غربة الإسلام، وانطمست فيه كثير من معالم الرسالة، لا سيما وسط الجزيرة العربية وما جاورها، فشاء الله أن يكون محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو المجدد وقائد الحركة الإصلاحية.

وقد نبعت هذه الدعوة المباركة في عهد الدولة السعودية الأولى التي دامت في الفترة ما بين (١١٥٧-١٢٣٣هـ/ ١٧٤٤-١٨١٨م)، بدءًا من اللقاء الذي جمع بين الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عندما قدم الدرعية، وكان الإمام محمد بن سعود قد تولى الحكم في الدرعية عام ١١٣٩هـ، فاتفق الاثنان على نصرة الدين؛ الشيخ بعلمه، والإمام بسلطته، فكان هذا اللقاء بداية الدولة السعودية الأولى، وبداية مرحلة توحيد البلاد.

وقد تميزت هذه الدعوة المباركة بعدة مزايا كتب لها النجاح، لعل أهمها: تقديم التوحيد والشهادتين على غيرها من مفردات الدين ومسائلهو تمسكها بمنهج أهل السنة والجماعة، والدعوة إلى الإسلام كما كان عليه أول ظهوره، من صفاء ونقاء ووضوح، بعيدًا عن أدران الشرك.

وفيما يأتي عرض موجز لأهم ملامح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، وعرض لنماذج من العلماء في عصره.

المبحث الأول

أهم ملامح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانتشارها في العالم الإسلامي

ظهر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] في القرن الثاني عشر الهجري بنجد، فدعا إلى توحيد الله بالعمل والعبادة، وإفراده بالقصد والإرادة، فجدَّد ما اندرس من أصول الملة وقواعد الدين، ودعا إلى مذهب السلف الصالح والأئمة السابقين، ويمكن إبراز أهم ملامح الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة في النقاط الآتية:

أولًا: حال الجزيرة العربية والعالم الإسلامي قبل دعوة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كانت نجد حتى القرن الثاني عشر الهجري تعبيرًا تاريخيًّا أو جغرافيًّا فقط، وأما الواقع فما شيء يذكر بوحدتها أو وجودها، وإنما كانت مجموعة كبيرة من الإمارات والمشيخات، تنفرد كل وحدة منها بسلطانها وتعتز باسمها، ولا ترى شيئًا فوقه، وقد تتحالف أحيانًا لقتال الآخرين واستباحة ديارهم وأموالهم، متى فرغت من قتال عدوها عادت تتقاتل فيما بينها[٢]، وضَعُف سلطان الدين؛ لتفشي الجهل،

---

(١) هو العلامة محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي النجدي الحنبلي، ولد في العيينة سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م، ونشأ بها، وحفظ القرآن قبل العاشرة من عمره، ودرس على والده، ثم حج وأخذ عن بعض علماء الحرم الشريف، ثم زار المدينة، وأخذ عن بعض علمائها، ثم رجع إلى نجد وقصد البصرة، وأخذ عن بعض علمائها، ثم رجع إلى الأحساء وأخذ عن بعض علمائها، ثم رجع إلى نجد، ودعا إلى التوحيد الخالص فنفع الله به العباد، وأنقذهم به من الشرك. له مؤلفات عدة منها: كتاب التوحيد، والأصول الثلاثة، والكبائر، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعيينة سنة ١٢٠٦هـ. (ينظر: تاريخ نجد، حسين بن غنام (ص٨١)، وعلماء نجد خلال ستة قرون، عبد الله آل بسام (١/ ١٢٥).

(٢) ينظر: تاريخ البلاد العربية السعودية، منير العجلاني (ص٣٥).

وظهور الشرك الأكبر والأصغر حيث الاستغاثة بالأولياء والصالحين، أحيائهم وأمواتهم، في النوازل والحوادث، والاستعانة بهم في قضاء الحاجات، وتفريج الشدائد والكربات، كما عُبدت الأحجار والأشجار والغيران، وانتشر السحرة والكهنة والعرافون، وسؤالهم وتصديقهم[١].

ولما رأى الشيخ الإمام هذا الشرك وظهوره في الناس وعدم وجود منكر لذلك وقائم بالدعوة إلى الله في ذلك؛ شمَّر عن ساعد الجد وصبر على الدعوة، فجدَّ في التعليم والتوجيه والإرشاد وفي مكاتبة العلماء؛ رجاء أن يقوموا معه في نصرة دين الله، وتنقيته من الشرك و الخرافة.

ثانيًا: إعلان الدعوة ومراحلها:

من المواقف الجليلة التي أثَّرت في محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأثيرًا كبيرًا، وكانت سببًا مباشرًا لمقاومته لكلِّ مظاهر الشرك والبدع في الجزيرة، وهو في سن الطلب، ذلك الموقف الذي شاهده عند قبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففي أحد الأيام كان الشيخ واقفًا عند الحجرة النبويَّة، فإذا به يرى أناسًا يدعون ويستغيثون بقبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينذاك رآه الشيخ محمد حياة السِّندي[٢] فأقبل عليه، وسأله قائلاً:

---

(١) ينظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، للشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر (١/ ١٩).

(٢) هو الشيخ العلامة المحدث محمد حياة السندي، المدني، مولده في السند، وإقامته ووفاته في المدينة المنورة، صاحب الحاشية المشهورة على صحيح الإمام البخاري، كان ورعًا متجردًا منعزلًا عن الخلق إلا في وقت قراءة الدروس مثابرًا على أداء الجماعات في الصف الأول من المسجد النبوي وله تصانيف كثيرة منها: شرح الترغيب والترهيب للمنذري، ومقدمة في العقائد - خ) توفي سنة ١١٦٥هـ. ينظر ترجمته في: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل الحسيني (٤/ ٣٤).

ما تقول في هؤلاء؟ فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٩][(١)].

ولما تلقى العلم، وتسلح بسلاح الفقه، وتهيأ لأمر الدعوة، بدأت أولى مراحل الدعوة في حريملاء[(٢)]؛ حيث بدأ بعشيرته الأقربين، ثم دعوة قومه، فبين لهم حقيقة التوحيد الخالص لله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ لا يُدعى إلاَّ الله وحده لا شريك له، ولا يُذبح ولا يُنذر إلَّا له[(٣)].

مكث الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حريملاء عدة سنوات يدعو الناس في ثبات وصبر، وقد أنتج فيها كتابه الشهير (التوحيد)، ثم قرَّر أن ينتقل إلى العيينة؛ حينما أيقن أن بقاءه في حريملاء لم يَعُدْ يُجدي نفعًا، لبحث عن أرض صالحة للدعوة، وكان ذلك في بدايات عام (١١٥٧هـ).

فانتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسقط رأسه العيينة[(٤)]؛ حيث كان حاكمها وقتئذٍ عثمان بن حمد بن معمر[(٥)]، وقد تلقَّى ابن معمر الإمام بكل إجلال وإكرام، ثم ما لبث الشيخ أن شرح له حقيقة دعوته القائمة على الكتاب والسنة المطهرة، وأن غايته

(١) ينظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر (١/ ٣٦).

(٢) **حريملاء**: بلدة من بلدان الشعيب، تقع شمال الرياض، وهي بلدة زراعية فيها نخل كثير، قال البكري: بفتح أوّله، وإسكان ثانيه، وفتح الميم واللام، ممدود. معجم ما استعجم، عبد الله البكري (٢/ ٤٤٤).

(٣) ينظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، للشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر (١/ ٣٨).

(٤) قال الهمذاني في كتابه: صفة جزيرة العرب (ص١٤١): ثم تمضي بفرع العرض (والعيين) وهي بني عامر، وعن يسارها ثنية الأحيسي.

(٥) هو عثمان بن حمد بن معمّر النجدي: رئيس «العيينة» من بلاد نجد، في بدء أيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قصده الشيخ، وكان مما قال له: «أرجو إن قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجدًا وأعرابها» وناصره في مواطن عدة، وقاتل معه أعداءه، توفي سنة ١١٦٣هـ. الأعلام (٤/ ٢٠٤).

من هذه الدعوة تعليم الناس أصول دينهم على التوحيد، ونبذ الشرك والقضاء على مظاهره، فقبل عثمان بن معمر أن يكون أحد رجالات الدعوة.

وبدأ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أخذ مجموعة من الإجراءات العملية في سبيل نشر الدعوة؛ إذ قطع الأشجار التي عظَّمَها الناس، والقباب التي كانت مقصدًا للعامة يستشفعون بها، ويلجؤون إليها، وأقام الحدود، وأمر بإحياء صلاة الجماعة[١].

عمل خصوم الدعوة على إخراج الإمام من العُيينة قسرًا، فتوجَّه إلى الدرعية، التي كانت تحت حكم الأمير محمد بن سعود[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١١٥٧هـ، فأيده ونصر دعوته، وبايعه على الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، والتمسُّك بسُنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الشريعة بين الناس، حتى حقق الله على يديه خيرًا عظيمًا، وهدى بسببه بشرًا كثيرًا، وصارت دعوته ومنهجه نبراسًا للدعاة، وقوةً لهم.

ثالثًا: منهجه ووسائله في الدعوة إلى الله:

يرتكز الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوته الإصلاحية في العناصر الآتية[٣]:

١. العمل على تحقيق التوحيد وبيان فضله ومحاربة البدع والانحرافات في الدين،

---

(١) ينظر: الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، عبد العزيز بن باز (ص٢٤).

(٢) هو محمد بن سعود بن محمّد بن مقرن بن مرخان، من بني مانع، أول من لقب بالإمامة من آل سعود، كان مقامه بالدرعية، وولي الإمارة بعد وفاة أبيه بسنتين - أو بأربع سنين - سنة ١١٣٩ هـ وحسنت سيرته وقويت شوكته، تعاهد مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أن يكون ابن سعود حارسًا للدين وناصرًا للسنّة، وكان شجاعًا حازمًا. توفي بالدرعية سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م. ينظر: الأعلام (٦/ ١٣٨).

(٣) ينظر: محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبد الله الصالح العثيمين (ص٦٣).

ودعوة الناس إلى تطهير الاعتقاد، ويظهر هذا جليًّا في كتبه التي ألفها في باب التوحيد: ككتاب التوحيد، وكتاب كشف الشبهات، ثم كتاب: الأصول الثلاثة، وكذلك رسالة: القواعد الأربع، وأصول الإيمان، وغيرهما من المؤلفات التي تُبرز اهتمامه بالتوحيد، إلى جانب تطبيق ذلك قولًا وعملًا.

٢. تعظيم الكتاب العزيز، والسنة النبوية الشريفة، والاعتماد عليهما في أخذ الأحكام الشرعية، والتأكيد على المحافظة على فرائض الدين، وتعليم المسلم ما لا تتم هذه الفرائض إلا به.

٣. نشر الدعوة للإسلام في صورته النقية البسيطة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفي، أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أعظِّمهم مثل: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي أَوْصى بها أوّلَ أمته وآخرَهم، وأرجو أني لا أرد الحق إذا أتاني، بل أشهد الله وملائكته وجميع خلقه إن أتانا منكم كلمة من الحق؛ لأقبلها على الرأس والعين»[1].

٤. تكوين المجتمع المسلم، وبناء الفرد منه بناءً صحيحًا سليمًا في مختلف جوانب شخصيته، كالعناية بتأكيد الرابطة بين شؤون الدين وأمور الدنيا معًا، ونشر العلوم الإسلامية والعربية، وتوسيع آثارها في الحياة، وتجلية المفاهيم الإنسانية مما أحاط بها من غموض أو نقص أو تحريف، وإقامة قيادة سياسية تؤمن بالإصلاح، وتعمل على تحقيقه، والحكم بما أنزل الله.

٥. إحياء مبدأي الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنشيط الحسبة، وتنمية مبدأ الولاء لله، ولرسوله، وللمؤمنين.

---

(١) الرسائل الشخصية، للإمام محمد بن عبد الوهاب (الرسالة ٣٥: ص٢٥٢).

٦. السمع والطاعة لولي الأمر: ومما يدل على ذلك قوله: «وأرى الجهاد ماضيًا مع كل إمام برًّا كان أو فاجرًا.. وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين، برهم وفاجرهم، ما لم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس، ورضوا به، وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة؛ وجبت طاعته، وحرم الخروج عليه»[١].

كما اعتمد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في دعوته الإصلاحية على وسائل وأساليب عدة، ومن أهمها:**

١- الرحلات العلمية والدعوية: قام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدة رحلات داخل الجزيرة العربية وخارجها، ففي عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م، خرج إلى مكة حاجًّا وساعيًا إلى طلب العلم ولقاء العلماء، ثم رحل إلى العراق وأخذ عن ثلة من العلماء في البصرة، ثم عاد ونزل بالأحساء يتلقى المزيد من العلم، ثم انتقل إلى العيينة عام ١١٥٧هـ[٢]، فلما تكوَّن التكوين العلمي الكافي؛ أخذ يدعو إلى التوحيد، ويحذر الناس من البدع، ويحارب الشرك والضلال.

٢- الحكمة والموعظة الحسنة والرفق واللين: تتجلى حكمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عنايته بجانب التوحيد وتطبيقه، والبدء بالأقربين، وبحثه عن دعم قوة الدعوة بالسلطان، وحكمته البالغة في أسلوبه الدعوي وخطابه الدعوي، مراعيًا في ذلك رفقه بالمدعوين، حيث قال: «فينبغي للداعي إلى الله أن يدعو، ويجادل بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقد أمر الله رسوليه موسى وهارون أن يقولا لفرعون قولًا ليّنًا لعله يتذكر أو يخشى»[٣].

(١) الرسائل الشخصية، للإمام محمد بن عبد الوهاب (الرسالة ١: ص١١).
(٢) ينظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام (ص١٦٢-١٦٥).
(٣) الرسائل الشخصية، للإمام محمد بن عبد الوهاب (الرسالة ٣٧: ص٢٥١).

٣- الرسائل: لم يغفل الشيخ تبليغ التوحيد بالقلم والرسائل، بل اعتنى بذلك كثيرًا، فكاتب العلماء والرؤساء والبلدان والقبائل المختلفة، كما كتب إلى علماء الشام، ومصر، والعراق، والهند، واليمن، وغير ذلك من البلدان، ولم يزل يكاتب الناس ويقيم عليهم الحجج، ويذكِّرهم ما وقع فيه أكثر الخلق من الشرك.

٤- الجهاد: جهاد اللسان ببيان الحق والدعوة إلى الدين الحنيف، والجهاد بالسيف لمن عادى العقيدة الصحيحة بعد أن تبين له الحق، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة بعث بها إلى أحد أنصار الدعوة: «وذلك أني لا أعرف شيئًا يُتَقرب به إلى الله، أفضل من لزوم طريقة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حال الغربة، فإن انضاف إلى ذلك الجهاد عليها للكفار والمنافقين؛ كان ذلك تمام الإيمان».

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لقد أمضى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حياته كلها آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وكان يحث على ذلك ويحض عليه ويأمر أتباعه بالحرص عليه وتنفيذه، فنجده يقول في رسالة موجهة إلى بعض الأهالي موضحًا لهم فيها شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

٦- القدوة الحسنة: فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مثلًا يُحتَذَى في العلم والعمل، مستقيمًا في دينه وخلقه وفكره، ولا يخفى ما لاستقامة الداعي وعمله بما يدعو إليه تطبيقًا وعملًا من أهمية وتأثير في الداعي.

---

(١) الرسائل الشخصية (الرسالة ٤٤: ص٢٩٦).

رابعًا: آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيما يلي أهم نتائج وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الداخل:

١- قضت هذه الدعوة المباركة قضاءً تامًّا على ما كان شائعًا في نجد من الخرافات، وما كان شائعًا من تعظيم القبور والنذر لها، والاعتقاد في بعض الأشجار، وأحيت معالم الشريعة بعد اندثارها، ولم يقتصر هذا على نجد، بل طهَّر الله كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات[١].

٢- استطاعت الدعوة الإصلاحية من إقامة مجتمع إسلامي متكامل، يؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، ويقيم شعائر الإسلام الظاهرة، كالمحافظة على صلاة الجماعة والجمع والأعياد، ونشر العدل، وتحكيم شرع الله، وتطبيق أحكام الإسلام، وإقامة الحدود، مما هيأ الأمن والاستقرار في البلاد، كما أحيت نظام الحسبة، وعينت في كل بلد تحت حكم الدولة محتسبين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر[٢].

٣- تمكنت من توحيد معظم أجزاء الجزيرة العربية[٣].

٤- نبهت هذه الدعوة المباركة الأمة من رقدتها، فكان أثرها واضحًا في النهضة العلمية والأدبية، فقد وجهت الأنظار إلى البحث ومناقشة الآراء، وقرع

---

(١) حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، سليمان بن عبد الرحمن الحقيل (ص١٩٣).

(٢) الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب «حياته ودعوته»، عبد الله بن يوسف الشبل (ص٦١٢-٦٢٠).

(٣) حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، سليمان بن عبد الرحمن الحقيل (ص١٩٤).

الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، إذ أحدث انتشار مبادئ الدعوة وتطبيقها ردود فعل هائلة في الجزيرة العربية وخارجها، فأنصارها يشرحون حقيقتها، ويوضحون مبادئها، ويكشفون شبهات المعارضين، ويدافعون عن الدعوة بالحجة والدليل، وخصومها يحاولون تحطيمها، ودحض حجج دعاتها، فاقتضى ذلك عقد مجالس للجدل والمناظرة والمناقشة، وجدّ كلا الفريقين في البحث والتحصيل العلمي؛ مما نتج عنه قيام يقظة فكرية إسلامية، ونشاط علمي كان المسلمون في أشد الحاجة إليهما»[١].

أما عن أهم نتائج وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الخارج:

فقد عمَّت الدعوة آثارها المباركة بلاد نجد، ثم امتدت إلى الحجاز، ثم سائر بلاد الجزيرة العربية، بل تجاوزت تلك البلاد، فكان لها أتباع وأنصار في مختلف الأمصار، كالشام، والعراق، وبلاد المغرب، والهند، والكثير من الأقطار، ولقد أفاض الباحثون في الحديث عن أثر دعوة الشيخ على بلاد المسلمين وعلمائهم، وأثرها على الدعوات والحركات الإصلاحية، وألفت من أجل ذلك الرسائل والمصنفات في بيان آثارها وأصدائها[٢].

ولما كانت دعوته تهدف إلى تحقيق هذه الأغراض النبيلة؛ أعلى الله منارها، وأذل أعداءها، وأيَّد جيوشها وأنصارها، واطمأنت بها القلوب.

---

(١) المرجع السابق (ص١٩٦).

(٢) ينظر على سبيل المثال: عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي، د. صالح العبود، وانتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية، د. محمد جمعة، والإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في الدعوة، د. محمد السكاكر.

خامسًا: موقف المعاندين لدعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما اشتهر الشيخ بالدعوة إلى الله وظهر أثرها الطيب؛ ظهر جماعة من حساده، ومن مخالفيه، وصار أعداؤه وخصومه يعادونه باسم العلم والدين والسياسة، واتُّهم بتهم باطلة، فطورًا يقولون: إنه من الخوارج، وتارة يقولون: يخرق الإجماع، ويدعي الاجتهاد المطلق، وطائفة أخرى قلَّدت واعتمدت على غيرها، وطائفة أخرى خافت على مراكزها، فعادته سياسة، وتسترت باسم الإسلام والدين، واعتمدت على أقوال المخرفين والمضللين(١).

والشيخ رحمة الله عليه مستمر في الدعوة يرشد الناس إلى الحق ويحذرهم من مخالفته، وقد تحدّث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الهجمة قائلًا في عبارة مؤثرة: «فلمَّا أظهرت تصديق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جاء به سبّوني غاية المسبة، وزعموا أنّي أكفر أهل الإسلام، وأستحل أموالهم»(٢)، وقال أيضًا: «فجعلوا قدحهم وعداوتهم فيما آمر به من التوحيد وأنهى عنه من الشرك، ولبّسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه أكثر الناس، وكبرت الفتنة وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله»(٣).

إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، فحقق الله النصرة لدينه، وكتب للدعوة الإصلاحية الانتشار والقبول، وصدق الله القائل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

---

(١) ينظر: الإمام محمد بن عبد الوهاب: دعوته وسيرته للعلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ص٣٧-٣٩).

(٢) الرسائل الشخصية (الرسالة ٣: ص٢٦).

(٣) المرجع السابق (الرسالة ٥: ص٣٦-٣٧).

المبحث الثاني

نماذج من العلماء زمن الدعوة الإصلاحية

كان لعدد من العلماء والدعاة أثر في نجاح الدعوة الإصلاحية؛ فقاموا بواجب النصح والبلاغ، ومنهم:

١- عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(١١٦٥-١٢٣٣هـ/١١٥٢- ١٨١٨م):**

الإمام العلامة الثقة الثبت، التقي الورع المجاهد المحتسب، الذي خلف والده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مؤازرة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، وخلفه في بث العلم والقيام بدعوة التوحيد ونشرها، والدفاع عنها بالقلم واللسان، والحجة والبيان، عالم نجد بعد أبيه ومفتيها، له الفتاوى السديدة والأجوبة العديدة، والردود العظيمة، ضُربت إليه أكباد الإبل من سائر بلدان نجد، وتوالت عليه الأسئلة من جميع قرى نجد ومدنها، نشأ في كنف والده نشأة دينية صالحة، وتفقه في المذاهب الإسلامية، فكان عالمًا بارزًا في علم التفسير والعقائد وأصول الدين، عارفًا بالحديث ومعانيه، وبالفقه وأصوله وعلم النحو واللغة.

كرَّس جهده وأوقف حياته على تحصيل العلم وتعليمه ونشره تدريسًا وتأليفًا، فأخذ عنه العلم خلق كثير من فطاحلة علماء نجد وجهابذتهم، وكان إلى جانب قيامه بتعليم العلم وبثه ونشر مذهب السلف ودعوة التوحيد والإسلام، مرجع قضاة المملكة السعودية، تولى وأجاد في إزالة ما أُلصق بالدعوة السلفية من الشبه الكاذبة،

---

(١) هو العلامة عبد الله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ولد في الدرعية ونشأ وتوفي بها، وله جهود عظيمة في الدعوة، تنوعات بين التدريس والتأليف. ينظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بسام (١/ ١٦٩).

وبيان استنادها للكتاب والسنة، وقد ألف مؤلفات كثيرة، منها: جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية، ومختصر السيرة النبوية، والكلمات النافعة في المكفرات والواقعة[١].

٢- عبد العزيز بن عبد الله الحصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] (ت:١٢٣٧هـ/١٨٢١م):

أحد العلماء المعاصرين للمجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اشتغل بالعلم، ثم تفقه وقرأ على شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فأقام مدة سنين يقرأ عليه، وكان يكرمه ويعظمه، ونصبه قاضيًا وأرسله سنة ١١٨٥هـ إلى والي مكة آنذاك الشريف أحمد بن سعيد، لمناظرة علماء مكة، فاجتمع بعدد من العلماء، وتفاوضوا في جملة من مسائل وقعت المناظرة فيها.

وكان مع ما اتصف به من الإخلاص للدين، زاهدًا ليس للدنيا عنده قدر ولا يركن إليها ولا يتعاطاها، أمضى عمره وقطع وقته في نسخ الكتب النافعة، وطلب العلم وبذله، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحب طالب العلم محبة عظيمة، كأنه ولده، بالتودد إليه وتعليمه وإدخال السرور عليه، والقيام بما ينوبه من بيت المال وكانت كلمته مسموعة وقوله نافذًا عند الرؤساء ومن دونهم، وكان عنده حلقة كبيرة للتدريس، وكان مجلسه في التدريس للفقه من وقت طلوع الشمس إلى ارتفاع النهار

---

(١) ينظر: الدعوة الإصلاحية وأعلامها، عبد الله بن محمد المطوع (ص٢١٢).

(٢) هو الشيخ العالم الورع التقي الزاهد عبد العزيز بن عبد الله الحصين الناصري التميمي النجدي الحنبلي. ولد سنة ١١٥٤هـ، في بلدة الوقف من قرى الوشم وقرأ القرآن حتى ختمه، ثم الفقه، وجلس للتدريس، وله جهود في ذلك، أخذ عنه جملة من العلماء، له رسالة في الدرر السنية في موضوع معنى العبادة، توفي سنة ١٢٣٧هـ. ينظر: عنوان المجد (١/ ٤٦٤)، ومشاهير علماء نجد وغيرهم (١٥٧).

لطلبة العلم، وله مجالس في التدريس غير ذلك للعامة وقت الظهر والعصر وبين العشائين[١].

٣- حمد بن ناصر بن معمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] (ت ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م):

أحد علماء الدعوة الإصلاحية، ومن دعاة التوحيد، أخذ عنه العلم خلق كثير من أهل الدرعية وغيرهم من أهل نجد، بعثه الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ليناظر علماء الحرم الشريف في شيء من أمور الدين، سنة ١٢١١هـ، فظهر عليهم الشيخ حمد بن ناصر بن معمر بالحجة، فسلموا له وأذعنوا، وبين ما أشكل عليهم من مسائل في رسالة علمية بعنوان: «الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب»[٣].

وغيرهم من أعلام الدعوة الإصلاحية المباركة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ممن ساروا على نهجها، وساهموا في تثبيتها في نفوس الناس؛ لإيمانهم بأنها متبعة لكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمثال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[٤]، والشيخ

---

(١) مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف (ص١٦١-١٦٥).

(٢) هو العالم العلامة المحقق الشيخ حمد بن ناصر بن عثمان معمر النجدي التميمي من آل معمر أهل العيينة، فقيه حنبلي نجدي، ولد في العيينة ونشأ بها، ثم انتقل إلى الدرعية، وبها قرأ، وتصدر للتدريس، له مجموعة رسائل مطبوعة، توفي سنة ١٢٥٥هـ-١٨٣٩م. الأعلام (٢/ ٢٧٣).

(٣) مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص١٥٧-١٥٩).

(٤) هو الشيخ سليمان بن عبد الله بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ولد بالدرعية سنة ١٢٠٠هـ، كان نادرة في العلم والحفظ والذكاء، له المعرفة المتناهية بالحديث، عالم بالتفسير وفقه والأصول والنحو، حسن الخط، عني بالتدريس ثم عين قاضيًا على مكة، أخذ عنه العلم خلق كثير من أهل نجد وغيرهم، من مؤلفاته: تسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، توفي شهيدًا سنة ١٢٣٣هـ. مشاهير علماء نجد وغيرهم (١/ ٣٠).

عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب[١]، والشيخ حمد بن عتيق[٢]، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين[٣]، وغيرهم.

وبعد: فهذه نبذة مختصرة عن أهم ملامح الدعوة الإصلاحية التي أصلح الله بها حال كثير من الخلق في جانب التوحيد خاصة، ونفع الله بها أهل نجد وغيرهم، ولازال نفعها وآثارها بين الناس.

(١) ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدرعية سنة ١١٩٣ هـ، عُني بالعلم تعلما وتعليما، ونشأ في كنف جده محمد بن عبد الوهاب بعد وفاة والده، عينه الإمام سعود بن عبد العزيز قاضيًا في الدرعية ثم في مكة، وكان يقوم بعمل عظيم في التدريس والإرشاد في مجتمعه، من أبرز مؤلفاته: فتح المجيد، وقرة عيون الموحدين، توفي سنة ١٢٨٥ هـ. الدعوة الإصلاحية وأعلامها (ص٢١٥).

(٢) هو العلامة المحقق الشيخ حمد بن علي بن محمد بن عتيق بن راشد، ولد في بلدة الزلفي بنجد سنة ١٢٢٧ هـ، كان حريصا مجتهدا، مهر في علم الفقه والعقائد وأصول الدين والتوحيد، ولاه الإمام فيصل القضاء من مؤلفاته: إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد، توفي في الأفلاج سنة ١٣٠١هـ. الدعوة الإصلاحية وأعلامها (ص٢٢٠).

(٣) هو عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين: فقيه الديار النجدية في عصره. ولد في سنة ١١٩٤هـ، ورحل إلى الشام، ولي قضاء الطائف، ثم قضاء عنيزة وبلدان القصيم سنة ١٢٤٨ هـ له مجموعة رسائل وفتاوى، ومختصر بدائع الفوائد، والانتصار للحنابلة، توفي سنة ١٢٨٢ هـ. الأعلام، للزركلي (٤/ ٩٧).

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. تحدث عن دور الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التغيير والإصلاح؟
٢. ما أهم آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الداخل والخارج؟
٣. ما موقف الناس تُجاه دعوة الشيخ محمد بن الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟
٤. مرت دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمراحل، تحدث عنها بإيجاز.
٥. قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على منهج فريد، كُتب لدعوته الإصلاحية النجاح، فما سمات هذا المنهج؟ وما أبرز الوسائل التي اعتمد عليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟
٦. تحدث عن جهود أبرز العلماء والدعاة في زمن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفصل التاسع

تاريخ الدعوة في العصر الحاضر
(المملكة العربية السعودية أنموذجاً)

فتح الرياض سنة (١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م)
وتوحيد المملكة (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)

وَفِيهِ مَبحَثَان:

- المبحثُ الأولُ: أهمُّ ملامحِ الدعوةِ الإسلاميةِ في المملكة العربية السعودية
- المبحثُ الثاني: نماذجٌ من العلماءِ في العصرِ الحاضرِ في المملكةِ العربيةِ السعودية.

مدخـــل

انتشرت الدعوة الإسلامية المعاصرة في كافة أرجاء العالم، في آسيا وأفريقيا بل وحتى في أوروبا، والأمريكيتين، تجد انتشارًا للإسلام في تلكم الأقليات، ولذا سيركز الحديث في هذا الفصل على الدعوة الإسلامية في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، وتحديدًا المملكة العربية السعودية.

وقد بدأ تأسيس المملكة العربية السعودية بدخول الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرياض عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، ثم تلاه توحيد أجزاء الجزيرة العربية، وإعلان الدولة السعودية عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ومنذ ذلك العام وحتى عام ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م، حكم المملكة سبعة ملوك وهم: الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]، الملك خالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]، .....

---

(١) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، ولد عام ١٢٩٣هـ، وتوفي عام ١٣٧٣هـ، ملك المملكة العربية السعودية الأول، ومنشئها، وأحد رجالات الدهر، من أهم أعماله: تأسيس المملكة العربية، واعتماد نظام الحكم فيها على الكتاب والسنة، وتحكيم الشريعة الإسلامية، ينظر: الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، خير الدين الزركلي (ص٩).

(٢) هو سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ولد عام ١٣١٩هـ، وتوفي عام ١٣٨٨هـ، ثاني ملوك المملكة العربية السعودية، حكمها بعد أبيه المؤسس لمدة ١١ عامًا، (١٣٧٣-١٣٨٤هـ)، ومن أهم أعماله الإسلامية: إنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ينظر: الكتاب الوثائقي عن الجامعة الإسلامية، د. أحمد عطية وآخرون (ص٨٣).

(٣) هو فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ولد عام ١٣٢٤هـ، وتوفي عام ١٣٩٥هـ، ثالث ملوك المملكة العربية السعودية، من أهم أعماله: دعوته للتضامن الإسلامي. ينظر: تاريخ ملوك آل سعود، سعود بن هذلول (١/ ٣٥٢).

(٤) هو خالد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ولد عام ١٣٣١هـ، وتوفي عام ١٤٠٢هـ، رابع ملوك السعودية، تولى الحكم بعد أخيه فيصل، وحكم لمدة ٧ سنوات، ومن أهم أعماله: =

الملك فهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، الملك عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، الملك سلمان حَفِظَهُ ٱللَّهُ[٣].

= عنايته بالقرآن والسنة ودفاعه عنهما، واهتمامه بالمجال الإغاثي في الداخل والخارج. ينظر: جهود الملك خالد بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خدمة الإسلام، د. أحمد يوسف الدريويش (ص١٣).

(١) هو فهد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ولد عام ١٣٤٠هـ، وتوفي عام ١٤٢٦هـ، خامس ملوك السعودية، وحكمها بعد أخيه الملك خالد لمدة ٢٤ عامًا، ومن أهم أعماله: توسعة الحرمين الشريفين، وإنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، كما اهتم بالقضية الفلسطينية، وبالمشكلة اللبنانية، وقضية البوسنة والهرسك، وكسوفا. ينظر: تتمة الأعلام، محمد خير رمضان يوسف (٧/ ١١).

(٢) هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ولد عام ١٣٤٣هـ، وتوفي عام ١٤٣٦هـ، سادس ملوك السعودية، تولى الحكم بعد أخيه فهد، وحكم لمدة ١٠ سنوات، ومن أهم أعماله: عنايته بالبعثات الدراسية للخارج، وتوسعة المسجد الحرام، والمشاعر المقدسة، واهتمامه بالأقليات والقضايا الإسلامية. ينظر: جهود الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود في الدعوة إلى الله حتى عام ١٤١٩هـ، الأميرة ملكة بنت سعود آل جربا (ص٥٠).

(٣) هو سلمان بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ولد عام ١٣٥٤هـ، وهو سابع ملوك المملكة العربية السعودية، تولى مقاليد الحكم بعد أخيه عبد الله عام ١٤٣٦هـ، ومن أهم أعماله: العناية بالحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، وإنشاء مجمع الملك للحديث النبوي الشريف.

المبحث الأول

أهم ملامح الدعوة الإسلامية في المملكة العربية السعودية

اتخذت المملكة العربية السعودية الإسلام دستورًا لها، فحكمت بالقرآن والسنة، وجعلت رايتها كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ونظرًا لمكانتها الدينية ووجود الحرمين الشريفين بها، قامت بجهود مباركة في خدمة الدين والدعوة إلى الله في مشارق الأرض ومغاربها، وفيما يلي نبذة مختصرة عن أهم معالم الدعوة الإسلامية في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الدعوة الإسلامية:

أولًا: الجهود الدعوية داخل المملكة العربية السعودية:

١- العناية بالحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة:

اعتنت المملكة العربية السعودية أيما عناية بالمساجد، ومن صور ذلك: الاهتمام بشؤون الحرمين الشريفين وتوسعتهما، فقد أعلن المؤسس الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مشروع توسعة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة[(١)]، وبوشر العمل في التوسعة قبل وفاته، وأشرف الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ على إكمالها[(٢)].

كما أنشأ الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إدارة الإشراف الديني بالمسجد الحرام؛ للعناية بالحرمين الشريفين وخدمتهما ورعايتهما، كما شهد المسجد الحرام والمسجد النبوي توسعة كبيرة في عهد الملك فهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مزودة بالتكييف لأداء الصلاة بطمأنينة

(١) الحرمان الشريفان التوسعة والخدمات خلال مائة عام، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي (ص٥٩).

(٢) ينظر: تاريخ الدولة السعودية، (عهد سعود بن عبد العزيز، أمين سعد (٣/ ٤٢-٤٥).

وراحة[١]، كما أمر الملك عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتوسعة الحرمين الشريفين توسعة هائلة؛ وبذل الجهود الكبيرة والأموال الطائلة في سبيل تحقيق هذا الأمر؛ كما اعتنت المملكة بالمشاعر المقدسة، تجهيزًا وإصلاحًا وتوسعة؛ كجسر المطاف، وقطار المشاعر، والخيام المقاومة للحريق في منى، وتوسعة طرق المشاعر بين منى وعرفات ومزدلفة ومكة.

ولما للكعبة المشرفة من حرمة في الدين، وكونها قبلة المسلمين؛ أولتها المملكة العربية السعودية عناية واهتمامًا، من حيث ترميمها، وكسوتها بالحرير؛ إجلالًا لبيت الله الحرام، ففي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م، أصدر الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرًا ملكيًا بتشييد مصنع أم القرى لصناعة الكسوة الشريفة، وفي عام ١٩٧٧م، أنشأت المملكة مصنعًا جديدًا تم تزويده بأحدث المعدات لإنتاج كسوة الكعبة المشرفة، لا زال مستمرًّا إلى الآن، ويتم تغيير الكسوة سنويًّا في موسم الحج يوم عرفات، فيما يتم غسلها مرتين سنويًّا، في شهري شعبان وذي الحجة[٢].

٢- عمارة المساجد وصيانتها:

لم يقتصر اهتمام المملكة بالحرمين الشريفين بل شمل كذلك الاهتمام بالمساجد التي لها ارتباط بالحج والعمرة أو لها صبغة تاريخية فقامت بتجديد عمارتها وإصلاحها، ومن تلك المساجد: مسجد قباء ومسجد سيد الشهداء ومسجد ميقات ذي الحليفة بالمدينة، وكذلك مساجد مواقيت الحج والعمرة، ومسجد نمرة بعرفات، والخيف

(١) ينظر: جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله تعالى في الخارج من خلال الجامعة الإسلامية، د. عبد الله صالح العبود (ص٢٠٦).

(٢) ينظر: الكعبة المشرفة تاريخ وأحكام، عبد الله بن سعيد الزهراني (ص٥٧).

بمنى وغيرها، وقد بلغ مجموع المساجد والجوامع في المملكة العربية السعودية حسب الهيئة العام للإحصاء لعام ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، ٩٨,٩٩٢ ألف مسجد وجامع[١].

٣- إنشاء وزارات تُعنى بالدعوة إلى الله:

اعتنت المملكة العربية السعودية عناية كبيرة بإنشاء المؤسسات الدعوية؛ لاستمرار الدعوة إلى الله ومن تلك المؤسسات:

- وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد:

أنشئت هذه الوزارة لخدمة الدعوة إلى الله، وكل ما يتعلق بالشؤون الإسلامية في تاريخ ٢٠/ ١/ ١٤١٤هـ، حيث نص القرار الكريم في إنشائها بأنها: (مؤسسة دعوية تقوم بنشر الدعوة الإسلامية للناس جميعًا داخل المملكة وخارجها؛ ليتسنى لهم فهم الإسلام فهمًا صحيحًا على ضوء الكتاب والسنة)[٢].

وتهدف هذه الوزارة إلى حماية العقيدة الإسلامية ونشر التوحيد، والدعوة إلى الله تعالى في الداخل والخارج، وإدارة شؤون المساجد في المدن والقرى والبوادي وسد احتياجاتها، وعقد المؤتمرات والمحاضرات وإقامة الندوات واللقاءات.

- الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تعد شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الركائز المهمة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ وذلك لما يقوم عليها من خير عظيم، وصد لشرور كثيرة فيما يتعلق بالفرد والمجتمع، وقد أمر المؤسس الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإنشائها عام

(١) الهيئة العامة للإحصاء، *https://www.stats.gov.sa/*، تاريخ الزيارة، ١٧/ ٩/ ١٤٤١هـ.
(٢) ينظر: الأنشطة الدعوية في المملكة العربية السعودية، د. صالح السدلان (ص١٣٣).

١٣٤٤هـ، واستمر الجهاز في عمله ودعم ولاة الأمر له حتى وقتنا الحاضر، وتقوم الرئاسة بأعمال جليلة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة التوحيد ومحاربة مظاهر الشرك، من السحر، والشعوذة، والمحافظة الصلاة وعلى القيم والأخلاق الإسلامية والاجتماعية.

- الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء:

هي مؤسسة دعوية تقوم بواجب الدعوة الإسلامية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها؛ لبيان أحكام العقيدة والشريعة الإسلامية، ولتمكين الناس من فهم الإسلام فهمًا صحيحًا على ضوء الكتاب والسنة، أنشئت هذه الرئاسة في عام ١٣٧٤هـ برئاسة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتقوم الرئاسة بأعمال جديدة في خدمة الدعوة والإسلام، وهي تتنوع ما بين الإفتاء، وإعداد البحوث العلمية، ونشر الكتب وتوزيعها داخل المملكة وخارجها[1].

٤- طباعة المصحف الشريف وتوزيعه (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف):

يعتبر هذا المجمع من أروع مظاهر عناية المملكة بالقرآن الكريم، فقد أصدر الملك فهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمر بإنشائه، في محرم سنة ١٤٠٣هـ، وافتتح فعليًا سنة ١٤٠٥هـ، ليكون أكبر مطبعة في العالم تقوم على خدمة القرآن الكريم ومقره بالمدينة المنورة، فعم نفعه ملايين المسلمين في مختلف بقاع الأرض، فيبلغ متوسط إنتاجه السنوي (١٠٠٠٠٠٠٠) عشرة ملايين نسخة سنويًّا.

---

(١) جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله في الخارج من خلال الجامعة الإسلامية، د.عبدالله العبود (ص١١٧).

وقد عني المجمع بتسجيل القرآن الكريم صوتيًّا بروايات مختلفة، إضافة إلى ترجمة القرآن الكريم إلى العديد من لغات العالم، عمَّ نفع ذلك خلقًا كثيرًا[١].

٥- نشر السنة النبوية: (مجمع الملك سلمان لطباعة السنة النبوية):

بادرت المملكة العربية السعودية إلى تطبيق السنة والعمل على نشرها، ومن ذلك: إنشاء مجمع الملك سلمان لطباعة السنة النبوية، ومقره المدينة المنورة، وتم الإعلان عنه في ٢٧ محرم ١٤٣٩هـ، ويهدف إلى العناية بالسنة النبوية الصحيحة، كونها المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، وطباعتها ونشرها في جميع أصقاع الأرض.

٦- تعليم طلاب المنح والعناية بهم:

ومن مظاهر اهتمام المملكة العربية السعودية بالدعوة إلى الله؛ العناية باستقدام الطلاب من مختلف بقاع العلم، وتدريسهم العلم النافع؛ وتثقيفهم، وتأهيلهم التأهيل الشرعي على المنهج الوسطي المعتدل؛ ليكونوا دعاة إلى الله يبلغون دين الله في بلدانهم، إيمانًا من المملكة حرسها الله بأن بناء الرجال وصناعة العقول مهمة عظيمة، بل هي من أعظم مجالات الاستثمار في الحياة.

وتعتني عدد من الجامعات السعودية بطلاب المنح، وعلى رأسها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والتي خصصت منذ تأسيسها نسبة ٨٥٪ لطلاب المنح، فكانت ولا زالت مخرجاتها الشرعية والدعوية قوية، من حيث طلابها الدوليين،

(١) ينظر: جهود المملكة العربية السعودية في تسجيل القرآن الكريم ودوره في الدعوة إلى الله، د. حمود بن جابر الحارثي، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ، فاس، المغرب (ص٣٣٦).

وتعدد جنسياتهم، وتشعب مناطقهم ودولهم، إضافة إلى ما تتمتع به من سلامة المنهج ووسطيته وأصالته، والسمعة الطيبة، والتأثير على الساحة الإسلامية الدعوية، بالإضافة إلى نظام المنحة الكاملة الذي توفر بموجبه السكن، والإعاشة والرعاية الطبية، وتذاكر السفر السنوية لطلابها[1].

وقد أصدرت المملكة قرارًا يقضي بإتاحة استقطاب طلاب المنح الدوليين لجميع الجامعات السعودية بنسبة لا تزيد عن ٥٪ من أعداد طلاب كل جامعة، وبذلك ازداد عدد الطلاب الدوليين في الجامعات السعودية.

٨- الاهتمام بالإعلام الدعوي:

لما للإعلام من دور بارز في الدعوة إلى الله، فقد تم الاهتمام بتوظيف الإعلام في نشر الإسلام، من خلال المنابر الإعلامية الدعوية ومن ذلك ما يأتي:

- إذاعة القرآن الكريم:

تعتبر إذاعة القرآن الكريم بمثابة جامعة إسلامية مفتوحة للعالم أجمع، مهمتها الدعوة إلى الله، ونشر الوعي الإسلامي الصحيح، بدأ بثها الفعلي عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، بأمر من الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتهدف الإذاعة إلى بث القرآن الكريم، وتفسير آياته وتعليم قراءته، بتغطية تشمل جميع البلدان الإسلامية، وكثيرًا من أنحاء العالم في القارات المختلفة، ويقوم بإعداد برامج الإذاعة نخبة من كبار العلماء والمشايخ وأساتذة الجامعات، والمثقفين من الإعلاميين وغيرهم، ومن

(١) جهود الجامعة الإسلامية في مجال إعداد الكفاءات الدعوية ورعايتهم، سلطان بن عمر الحصين (ص١٧).

أشهر برامج الإذاعة: دروس من القرآن الكريم، والقراءات الرمضانية، والفتاوى الشرعية[١].

- إذاعة نداء الإسلام:

تم إنشاء إذاعة نداء الإسلام التي بدأ بثها عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، وكانت تسمى إذاعة صوت الإسلام، وتهدف إلى التعريف بالإسلام ومبادئه، وإلى محاربة التيارات والأفكار التي تسعى إلى تشويه صورة الإسلام[٢].

- قناة القرآن الكريم:

أُنشئت بأمر الملك عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبدأ بثها الفعلي في فاتح محرم سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، تبث قراءة القرآن الكريم، مع نقل مباشر ومستمر للصلوات الخمس من المسجد الحرام، وفي خارج وقت الصلوات الخمس تنقل صور حية للمسجد الحرام والطواف، وقد لاقت هذه القناة وهذا النقل استحسان ورضا المسلمين داخل المملكة وخارجها؛ لأن قراءة القرآن الكريم وما يصحبها من نقل حي لأجواء المسجد الحرام يساعد على الخشوع والطمأنينة.

- قناة السنة النبوية:

أُنشئت مع قناة القرآن الكريم في تاريخ واحد، تنقل البث الحي من المسجد النبوي الشريف، يتخللها نقل للصلوات الخمس، ونقل للتراويح في رمضان، وما يحف ذلك من أجواء إيمانية تترك أثرًا دعويًّا وتربويًّا بالغًا في نفوس المشاهدين حول العالم.

(١) جهود المملكة السعودية في تسجيل القرآن الكريم ودوره في الدعوة إلى الله، د. حمود الحارثي (ص٣٤٨-٣٥٠).

(٢) موقع نداء الإسلام: *https://neda.sr.sa/*، تاريخ الزيارة: ٩/ ٩/ ١٤٤١هـ.

ثانيًا: العمل الإسلامي في الخارج:

إيمانًا من المملكة العربية السعودية حرسها الله بأهمية نشر الدين الحنيف في مختلف بقاع العالم، وأن تَعُم الهداية ويصل النور المبين إلى أكبر عدد من المدعوين؛ قامت بعدة أعمال تحقق هذا الهدف النبيل، ومن ذلك:

١- إنشاء المساجد وإقامة المراكز والمدارس الإسلامية:

سعت المملكة العربية السعودية إلى بناء المساجد خارج في العالم، لتكون منارات للدعوة إلى الله وإلى دين الإسلام، ومن أبرز تلك المساجد على سبيل المثال: بناء جامع أم الحصن بالبحرين، وبناء ثلاثة مساجد في الصين، وبناء ٥٠ مسجدًا في باكستان، وبناء مسجد الملك فيصل في تشاد، ومثله بغينيا، وفي القارة الأوروبية بنت مسجد لندن المركزي في بريطانيا، ومسجد في مدريد، وعدة مساجد في فرنسا، إضافة إلى عدة مساجد منشرة في أمريكا الشمالية والجنوبية[١].

كما سعت إلى بناء مراكز إسلامية؛ لربط الأقليات الإسلامية بدينهم، وبذَلت وسعها في تكوين بيئات إسلامية ثقافية، فلا تكاد تجد مدينة كبيرة في أوروبا أو الولايات المتحدة أو غيرها؛ إلا وجدت هناك مركزًا ثقافيًّا إسلاميًّا، يسهم في دعوة المسلمين وغير المسلمين، ومن تلك المراكز التي أسهمت المملكة في إنشائها: المركز الإسلامي الثقافي في بروكسل، والمركز الإسلامي في جنيف، والمركز الإسلامي في مدريد، والمركز الإسلامي الثقافي في لندن، والمركز الإسلامي في روما[٢].

---

(١) من جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله، وزارة الشؤون الإسلامية (ص٢٤٩-٢٥٣).

(٢) المرجع السابق (ص٢٥٨-٢٦٠).

٢- إنشاء ودعم الكراسي العلمية وطباعة الكتب:

أولت المملكة عنايتها بإنشاء الكراسي العلمية، وقامت بدعمها، إلى جانب عنايتها بالكتب والمكتبات؛ ومن تلكم الكراسي: كرسي الملك فهد للدراسات الإسلامية بجامعة لندن، وكرسي الملك فهد للدراسات الإسلامية بجامعة هارفارد، وكرسي الملك عبدالعزيز بجامعة كاليفورنيا[1].

ولأهمية الكتاب في نشر الدعوة الإسلامية وعقيدة التوحيد الصحيحة؛ قامت المملكة بطباعة نفائس الكتب المتخصصة بالعقيدة وغيرها، وتوزيعها على طلبة العلم في داخل المملكة وخارجها، ومن تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر: فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، لعبدالرحمن بن حسن، والتوحيد وإثبات صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، لابن القيم، ومجموعة رسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل، والمغني والشرح الكبير لابن قدامه.

٣- كفالة الدعاة والمدرسين:

اعتنت وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد في المملكة بالدعم المادي والعلمي للدعاة إلى الله في الخارج من خلال تأهليهم التأهيل الشرعي، ومساندتهم لأداء عملهم الدعوي في بلدانهم.

ثالثًا: دعم المنظمات والقضايا الإسلامية:

إيمانًا من المملكة العربية السعودية بأهمية رابطة الدين والأخوة، وبضرورة الوقوف بجانب كل ما يخدم الإسلام ويدعم المسلمين؛ أولت عنايها بعدد من المنظمات، ودعمت ودافعت عن عدد من القضايا الإسلامية، ومن ذلك:

---

(١) جهود خادم الحرمين الشريفين الملك فهد في دعم الأقليات المسلمة، وزارة الشؤون الإسلامية (ص١٠٠).

١- رابطة العالم الإسلامي:

أنشئت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، وهدفها تبليغ دعوة الإسلام وشرح مبادئه وتعاليمه، ودفع الشبهات عن الإسلام والتصدي للأفكار والتيارات المنحرفة، ونشر التعليم الإسلامي من خلال تأسيس المدارس والمعاهد والمراكز الإسلامية وتشجيع الدعاة، والاعتناء بقضايا الأقليات المسلمة(١).

٢- منظمة التعاون الإسلامي:

أُنشئت المنظمة في عام ١٣٩٠هـ وكان للمملكة العربية السعودية دور كبير في إنشائها ودعمها، وتعزيزها وترسيخ أسسها، وتسعى المنظمة إلى تعزيز التضامن الإسلامي بين الدول الأعضاء، وتضم عددًا من المنظمات منها: صندوق التضامن الإسلامي، صندوق القدس، مجمع الفقه الإسلامي، الجامعة الإسلامية في النيجر، وفي أوغندا، وفي ماليزيا، وفي باكستان، والكلية الإسلامية بالولايات المتحدة، وغير ذلك(٢).

٣- مجمع الفقه الإسلامي:

جاء تأسيس مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي تنفيذًا لقرار صادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الثالث الذي انعقد في مكة المكرمة عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ومن أهدافه: تحقيق الوحدة الإسلامية نظريًّا وعمليًّا عن طريق السلوك

(١) من جهود المملكة في الدعوة إلى الله، وزارة الشؤون الإسلامية (ص٢٣٤-٢٣٥).
(٢) المرجع السابق (ص٢٤٥).

الإنساني، ودراسة مشكلات الحياة المعاصرة، ومن أهم أنشطة المجمع: دراسة موضوعات في مجال الفتوى، والاقتصاد والمصارف[١].

٤- البنك الإسلامي للتنمية:

وهي مؤسسة مالية دولية، لدعم وتنمية التقدم الاقتصادي والاجتماعي لدول الأعضاء، أنشئت تطبيقًا لبيان صادر عن مؤتمر وزراء مالية الدول الإسلامية، الذي عقد في جدة، في شهر ذي القعدة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، وانعقد الاجتماع الافتتاحي لمجلس المحافظين في مدينة الرياض، في شهر رجب ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م[٢]، ويهدف البنك الإسلامي للتنمية إلى دعم التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي لشعوب الدول الأعضاء والمجتمعات الإسلامية في الدول غير الأعضاء، والاستثمار في الأوقاف وتمويلها، وَفقًا لمبادئ الشريعة الإسلامية، والمنح الدراسية للطلاب[٣].

٥- تبني قضايا الأقليات الإسلامية والأعمال الإغاثية:

اهتمت المملكة بقضايا المسلمين سواء على المستوى السياسي أو الإغاثي أو الثقافي، فكانت داعمة ومساندة ومعاضدة في الشدة والرخاء، في السراء والضراء، في العسر واليسر، ومن ذلك:

القضية الفلسطينية؛ فقد وقفت المملكة ولا زالت مع القضية الفلسطينية منذ بداية الاحتلال الصهيوني للقدس الشريف وفلسطين، فبذلت جهودًا كبيرة

---

(١) ينظر: مجمع الفقه الإسلامي الدولي وإسهاماته في الاقتصاد الدولي والبنوك الإسلامية، د. عبد السلام داود العبادي (ص٥٠٦-٥٠٧).

(٢) موقع البنك الإسلامي للتنمية: *https://www.isdb.org/ar*، تاريخ الزيارة: ٢/ ٩/ ١٤٤١هـ.

(٣) جهود البنك الإسلامي للتنمية في التمويل الدولي دراسة تطبيقية، د. عادل عبد الفضيل بليق (ص١٥).

على المستوى السياسي والدبلوماسي والإغاثي والعسكري، وكذلك قضية البوسنة والهرسك؛ حيث بذلت المملكة جهودًا عظيمة في التصدي للإبادة التي تعرض لها المسلمون في البوسنة والهرسك، فوقفت المملكة بثقلها العالمي والإسلامي تجاه هذا العدوان، وقد ترأس الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله الهيئة العليا لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة والهرسك[1]، كما اهتمت المملكة بقضية التضامن الإسلامي منذ نشأتها، فدعت إلى عقد المؤتمرات لمناقشات قضايا العالم الإسلامي.

(١) من جهود المملكة في الدعوة إلى الله، وزارة الشؤون الإسلامية (ص٢٧٠).

المبحث الثاني

نماذج من العلماء في العصر الحاضر في المملكة العربية السعودية

١ ـ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(ت: ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م):**

رابع أحفاد المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان المفتي الأول للمملكة العربية السعودية، عوَّضه الله عن بصره الذي فقده صغيرًا؛ البصيرة النافذة، والحافظة النادرة، شاع نبوغُه واشتُهر فضلُه، فعكف على التدريس والإفتاء والإمامة والخطابة، فالتفَّ حوله الطلبة، وكانت دروسه في مختلِف الفنون، تولى القضاء فترة، واستمر في نشر العلم وتعليمه، وصار المرجعَ الأولَ في العلم والإفتاء والقضاء، قام سماحتُه بتأسيس معهد الرياض العلمي، ليكونَ أول معهد شرعي في نجد بمناهجَ قوية تؤسِّس طالب العلم الجيد، ثم تلته معاهد متعددة في المملكة، وفي سنة ١٣٧٩هـ أُنشئ المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي، فكان رئيسًا له، وفي سنة ١٣٨١هـ أُسِّست الجامعةُ الإسلامية في المدينة المنورة، فكان رئيسًا لها[٢].

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامًا مصلحًا، ورجل دعوة، تخرج على يده أفواج من العلماء، كثيرون منهم شغلوا منصب القضاء والتدريس والدعوة إلى الله، كالعلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة ١٣١١هـ، ونشأ في كنف والده العالم، ووالدته الصالحة، وأسرته العلمية، وأصابه مرض في عينيه وهو في حدود السادسةَ عشرة لمدة سنة تقريبًا، فقد على أثره البصرَ، كان مرجعًا في العلم والفتوى، من مؤلفاته: مجموع الفتاوى، وشرح كشف الشبهات، توفي سنة ١٣٨٩هـ، وكان عمره ٧٨ سنة. ينظر: الأعلام (٥/ ٣٠٦).

(٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن آل الشيخ (ص١٦٩-١٨٢)، وعلماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب (٢/ ١٤٧).

٢. محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(١٣٢٥-١٣٩٣هـ/١٩٠٧-١٩٧٣م):**

عالم ومحقق ومفسر، له العديد من الكتب، طلب العلم في سن مبكرة، فحفظ القرآن ودرس الفقه المالكي، ثم رحل إلى الحج، وآثر البقاء في المملكة العربية السعودية، فدرس على شيوخها وتتلمذ على كثير من علمائها، تولى التدريس في المعاهد العلمية والكليات الشرعية في الرياض والمدينة، وكان ضمن هيئة كبار العلماء السعودية وعضوًا في رابطة العالم الإسلامي، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قويًّا صلبًا لينًا، سهلًا في الرجوع إلى ما ظهر إليه منه، امتد نشاطه خارج المملكة؛ إذ كانت الجامعة الإسلامية فتحت للبلاد نوافذ تطل منها على العالم الإسلامي كله، فكانت فكرة إرسال بعثات إلى الأقطار الإسلامية وخاصة إفريقيا، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأس بعثة الجامعة إلى عشر دول أفريقية بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكان لهذه البعثة في تلك البلاد أعظم الأثر، وقد ترك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة كتب أبرزها تفسيره المشهور أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الذي وصل فيه إلى سورة المجادلة، وأتمه فيما بعد تلميذه الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويُعد تفسير الشنقيطي متميزًا في بابه، حيث أودعه علومًا نافعة ومسائل محققَّة، وله: آداب البحث والمناظرة، ومذكرة الأصول على روضة الناظر، وغيرها.

---

(١) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ولد في بلاد شنقيط (موريتانيا الآن)، توفي بمكة، ترجم له تلميذه الشيخ عطية سالم في أضواء البيان (٩/ ٤٦٩).

٣. الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(ت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م):**

هو العلامة المجدد لمعالم السنة، درَّس ونشر العلم، وألف الكتب النافعة، وتولى القضاء، وعمل نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٨١هـ، وكان من أهم جهوده فيها: استقدام كبار العلماء للجامعة من داخل المملكة وخارجها، واستقدم طلبة العلم من جميع أنحاء العالم.

عُين رئيسًا لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ورئيسًا للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وعضوًا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ورئيسًا للمجلس الأعلى للمساجد، وعضوًا في الهيئة العليا للدعوة الإسلامية.

«كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ نافعًا للنّاس في علمِه، وفي نُصحِه، وأمرِه بالمعروف ونهيِه عن المنكر، والدّعوةِ إلى الخير، ومُساعدة النّاس بماله وبجاهه، كلُّ ذلك من أوجه عموم نفعه، فهو داعيةٌ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، في محاضراته وكلماته وكتاباته، ومن عموم نفعه كثرةُ فتاويه، وكانت مجالسُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ معمورةً بالعلم والنُّصح والنّفع وإفادة النّاس والإحسان إليهم، وكان حريصًا على مساعدة المحتاجين، وتعمير المساجد، في داخل المملكة وخارجها، وكان يرتادُ منزلَه الفقراءُ والمحتاجُون..»[٢].

---

(١) هو العلامة عبد العزيز بن عبدا لله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن باز، ولد سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م، تلقى العلم وهو صغير على عدد من المشايخ، له مجموع الفتاوى، والدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، والتحذير من البدع، توفي عام ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م. ينظر: ترجمة الشيخ لنفسه في مقدمة مجموع الفتاوى، بإشراف: محمد الشويعر (ص٩).

(٢) الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ نموذج من الرعيل الأول، عبد المحسن العباد (ص١٤-١٩).

٤. الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(ت: ١٤٢١هـ/٢٠٠١م):**

إمام عالم، وشيخ فاضل، كانت دعوته إلى الله شغله الشاغل، ونشر العلم همه الأول، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد من العمل بالعلم، لأن ثمرة العلم العمل؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه صار من أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة، فإذا لم يعمل بعلمه؛ أورث الفشل في العلم، وعدم البركة، ونسيان العلم»[٢].

بدأ بالتدريس في معهد عُنيزة عام ١٣٧٤هـ، واشتغل بالخطابة والإمامة والتدريس في المسجد الجامع الكبير بعنيزة وأخذ العلمَ عنه طلبةٌ كثيرون في معهد عُنيزة العلمي، وفي كليَّة الشريعة وأصول الدِّين بالقصيم، وكذلك في الحرمين الشريفين، ومن خلال المحاضرات في مختلف المساجد والجامعات، كما كان يُلقي المحاضرات عن طريق الهاتف إلى أوربا وأمريكا وغيرها، وعني كذلك بتوعية الحُجَّاج في مواسم الحج بالفتاوى، وإلقاء الدروس والمحاضرات، كما عنى بالفتاوى على ما يَرِدُ إليه من أسئلة من داخل المملكة وخارجها، سواء بالمراسلة أو المقابلة أو عن طريق الهاتف، وله مشاركات أعلامية كثيرة ومفيدة في الإذاعة خاصة إذاعة القرآن الكريم، من خلال برنامج «نور على الدرب»، وبرنامج «سؤال على الهاتف»، كما خلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إرثًا علميًّا واسعًا نافعًا[٣].

(١) هو الشيخ العالم محمد بن صالح بن محمد بن سليمان آل عثيمين من بني تميم، ولد في عنيزة سنة ١٣٤٧هـ. تلقى العلم صغيرًا على عدة مشايخ وعلماء، كالعلامة عبد الرحمن السعدي، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، له عدة مؤلفات بلغ مجموعها: ١١٥ مؤلف بين كتاب صغير ومجلدات كبيرة، ومنها: مجموع الفتاوى، وشرح رياض الصالحين، والقواعد المثلى، وزاد الداعية إلى الله، توفي سنة ١٤٢١هـ. ينظر: الدر الثمين في ترجمة فقيه الأمة ابن عثيمين، عصام المري (ص١٧)، وابن عثيمين، الإمام الزاهد، د. ناصر مسفر الزهراني (ص٢٧).

(٢) كتاب العلم، محمد بن صالح العثيمين (ص١٤١).

(٣) ينظر: محاضرة العلامة عبد المحسن العباد بعنوان: الشيخ محمد بن عثيمين من العلماء الربانيين (ص١٠).

٥. الشيخ بكر عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] **(ت: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م):**

عالم رباني، ومصنف مبدع، قال عنه العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ متعجبًا: «من أين يأتي الشيخ بكر بهذه الأساليب والتراكيب؟»[٢]، عمل بالجامعة الإسلامية، ثم عين قاضيًا بالمدينة المنورة، ومدرسًا في المسجد النبوي الشريف، وعين إمامًا وخطيبًا فيه، كما عُين عضوًا في لجنة الفتوى، وهيئة كبار العلماء، ثم ممثلًا للمملكة في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، واختير رئيسًا للمجمع، وعين عضوًا في المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي، وكانت له أثناء ذلك مشاركة في عدد من اللجان والمؤتمرات داخل المملكة وخارجها، ودرَّس في المعهد العالي للقضاء وفي الدراسات العليا في كلية الشريعة بالرياض، لازم العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نحو عشر سنين، ولديه نحو عشرين إجازة من علماء الحرمين والمغرب والشام والهند وإفريقيا وغيرها، وقد جمعها في ثبت مستقل.

جهوده عظيمة في الدعوة إلى الله والدفاع عن مسائل الدين وقضاياه، شملت جانب الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، وبيان منهج السلف الصالح، والتحذير من التيارات الفكرية المعاصرة، والدعوة إلى الوسطية ونبذ الغلو، والحث على الاجتماع، والتحذير من الخلاف، والعناية بالأسرة المسلمة وصيانتها، ودعوتها إلى الفضيلة،

---

(١) هو العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد، ولد سنة ١٣٦٥هـ، من علماء البلد الحرام، درَس في الكتَّاب أولًا، ثم تنقل في باقي مراحل التعليم، له مجموعة مؤلفات زادت على الستين، كثير منها عالجت قضايا معاصرة في الفكر والنوازل، وتميزت بأسلوب عال، منها: حراسة الفضيلة، والبوصلة، والتأمين، الحدود والتعزيرات، وطبقات النسابين، وحلية طالب العلم، توفي سنة ١٤٢٩هـ. ينظر: أئمة الحرمين، د. عبد الله الغامدي (١٠٦-١١١).

(٢) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز، محمد إبراهيم الحمد (ص٢٦٣).

وتحذيرها من التبرج والسفور، والرد على دعاوى المساواة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من تدمير للأخلاق ودعوة للتبرج، كما جاء مبسطًا في كتابه القيم: (حراسة الفضيلة)، كما له جهود مشكورة في العناية بتوجيه الدعاة وطلب العلم، معتمدًا على دعوته على الكتابة والتأليف، والإفتاء والتدريس والخطابة والقضاء، وعلى الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال والحوار، وما اتصف به من أخلاق حسنة، وقد ترك منهجه الدعوي أثرًا حسنًا على مجتمعه، وعلى طلابه، وعلى الأمة عامة[1].

٦. الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] (ت ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م):

عالم فاضل، وإمام دعوة شامخ، بدأ حياته العلمية بالتدريس، ونظرًا لعمقه العلمي وتخصصه الدقيق؛ عمل مستشارًا في وزارة المالية، ثم عين وزيرًا وعضوًا في مجلس الوزراء، كما أسند إليه الإشراف على صندوق التنمية العقاري، وعضوًا في عدد من المجالس واللجان الحكومية، منها: مجلس الخدمة المدنية، ومجلس الجامعة الإسلامية بالمدينة.

ثم طلب التفرغ؛ لجوار الحرمين الشريفين، وممارسة عمله المحبَّب، وهو العمل الخيري، والدعوة إلى الإسلام، وتبليغ دين الله في الآفاق، فكانت هذه

---

(١) تراجع هذه الجهود في: جهود الشيخ العلامة بكر أبو زيد في الدعوة إلى الله تعالى، عمر بن عامر الخرماني، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، عام: ١٤٣١هـ.

(٢) هو صالح بن عبد الرحمن بن عبد العزيز الحصين، من أسرة يقال لها آل ماجد، ولد في مدينة شقراء سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ونشأ نشأة صلاح وديانة، فقد كان والده من القائمين بالدعوة في شقراء، تنقل بين المدن للدراسة وطلب العلم، داخل المملكة وخارجها، واشتهر بجدته وحسن ذكائه، من آثاره العلمية: مذهب شرح العقيدة الطحاوية، والتسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، توفي سنة ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، عن عمر ٨٣ عامًا. ينظر: جهود الشيخ صالح ابن عبد الرحمن الحصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلى الله، سلطان بن عمر الحصين (ص٢٧- ٣٠).

المرحلة مرحلة مثمرة، وحافلة بالعمل للإسلام في شتى الميادين، وفي أماكن كثيرة في الأرض، فقد بدأ الشيخ يجوب العالم يتفقد الدعوة الإسلامية، ويزور المراكز الإسلامية، ومؤسسات الدعوة والعمل الخيري، ويلتقي بعلماء البلد، ويناقش معهم هموم الدعوة، ويقدم المشورة والنصح والدعم، ثم عين رئيسًا عامًا لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ثم اختير رئيسًا للجنة العليا لمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، ثم عين في هيئة كبار العلماء[١].

لقد عاش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حياة الدعوة إلى الله، وحمل همها منذ نعومة أظافره، فشارك في شتى مجالاتها، ومارس العمل الخيري بفكره ولسانه وماله، واعتنى بالعلم وأهله، وأولى عناية فائقة بأمور الحج، وقدم خدمة جليلة للحرمين الشريفين، واهتم بقضايا المسلمين في العالم، وله جهود عظيمة في العمل الخيري، والدفاع عن العاملين فيه، وعنايته بالوقف الإسلامي، وكان ذا منهجية سنية وسلفية في الدعوة إلى الله والدفاع عن الدعاة[٢].

٧. عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] (١٣٢٣- ١٤١٥هـ/ ١٩٠٤ ١٩٩٤م):

عضو هيئة كبار العلماء في السعودية، وأحد نواة النهضة العلمية في المملكة، وهو أحد العلماء الذين عرفوا بالجد والاجتهاد والإخلاص، وهو ذو علم واسع،

---

(١) ينظر: جهود الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلى الله، سلطان الحصين (ص٤٩-٥٤).

(٢) المرجع نفسه (ص١٧٩-٢٣١).

(٣) هو العلامة عبد الرزاق عفيفي بن عطية العفيفي، ولد سنة ١٣٢٣هـ، من مؤلفاته: الإحكام في أصول الأحكام، وتفسير الجلالين: مقرر التفسير بالمعاهد العلمية، وتوفي سنة ١٤١٥ هـ. علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٧٥).

درَّس في المعهد العلمي في الرياض، وفي معهد عُنيزة العلمي، وأدار المعهد العالي للقضاء في الرياض، ووضع مناهجه والتدريس فيه، ونُقل في عام ١٣٩١ه إلى الإدارة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة، وعين فيها نائبًا لرئيسها آنذاك الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونشط في الإفتاء، وفي المحاضرات العامة، وصار مرجعًا لطلاب العلم، فكان نشاطه الدعوي مثار إعجاب، ولشخصيته حب وتقدير، ومن تلامذته: الشيخ عبد الله بن جبرين، والشيخ عبد الله بن غديان، والشيخ صالح الحصين، وغيرهم كثير.

وغيرهم من علماء الدولة السعودية الذين كان لهم دور كبير في الدعوة إلى الله في الداخل والخارج، أمثال الشيخ عبد الله بن حميد[١]، والشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي[٢].

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حميد، ولد في الرياض سنة ١٣٢٩هـ، كفَّ بصره في طفولته، ولم يمنعه هذا من طلب العلم وتحصيله، فكان من مشايخه: العلامة محمد بن إبراهيم، وسعد بن عتيق، يقول عنه الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لوكنت جاعلًا الإمارة والقضاء في رجل واحد، لكان ذلك الشيخ عبد الله بن حميد»، عُين قاضيًا في عدة مدن، وعينه الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رئيسًا للإشراف الديني على شؤون الحرمين، وعينه الملك خالد رئيسًا لمجلس القضاء الأعلى، ثم رئيسًا لهيئة كبار العلماء، وغيرها من الأعمال الدعوية والشرعية، توفي بالطائف سنة ١٤٠٢هـ. الدعوة الإصلاحية وأعلامها، عبد الله بن محمد المطوع (ص٢٢٨).

(٢) هو الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي، ولد في عنيزة سنة ١٣١٥هـ، اشتغل في التجارة ثم مال إلى طلب العلم ورحل إلى طلبه داخل البلد وخارجه، فكان من مشايخه: العلامة محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد العزيز بن بشر، كان مجودًا للقرآن، آمرا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، حتى صارت له هيبة، وأوذي في الله لكنه صبر وصابر، قصد جهة الجنوب من المملكة فبث فيهم العقيدة الصحيحة، وحارب الجهل، وفتح عندهم المدارس، ولذا يعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العلماء البارزين في تاريخ الدعوة الإسلامية في القرن الرابع عشر، توفي سنة ١٣٨٩هـ. علماء نجد خلال ثمانية قرون (٤/ ٣٩٨).

والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل عبد اللطيف[١]، والشيخ حافظ الحكمي[٢]، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الغديان[٣]، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين[٤]، رحمهم الله جميعًا.

وخلاصة القول فإن تاريخ الدعوة الإسلامية خلال مسيرته الطويلة عبر العهود الإسلامية، شهد الكثير من الإنجازات المتنوعة، إلى جانب عدد من

---

(١) هو الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف الباهلي، ولد سنة ١٣٢٣هـ، تولى إمامة جامع شقراء خمسين سنة، وكذا القضاء فيها لخمس عشرة سنة، كان مشهورًا بالصلاح والتقوى، انتدبه الملك عبد العزيز للوعظ والإرشاد بمكة وضواحيها، ولما أنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة قام بالتدريس فيها، وقام بتخرج أحاديث بداية المجتهد، توفي سنة ١٤١٦هـ. علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٥٥٥).

(٢) هو الشيخ الفاضل حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، ولد في جازان سنة ١٣٤٢هـ، عُرف بقوة حفظه والتمكن في الفهم والذكاء الخارق، حثه الشيخ عبد الله القرعاوي على التفرغ للعلم واهتم به، ثم اشتهر بالعلم والتحصيل رغم صغره، من مؤلفاته: سلم الوصول إلى علم الأصول، وأعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة، وآثار علمية أخرى، توفي بمكة سنة ١٣٧٧هـ. الدعوة الإصلاحية وأعلامها (ص٢٢٩).

(٣) هو العلامة عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرزاق آل غديان، ولد في الزلفي سنة ١٣٤٥هـ، تلقى مبادئ القراءة والكتابة منذ صغره، وتلقى فنون العلم الشرعي على عدد من علماء عصره، عُين رئيسًا لمحكمة الخبر، ثم مدرسًا في المعهد العلمي، وعضوًا للإفتاء في دار الإفتاء، وعضوًا للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، بالإضافة إلى عضوية كبار العلماء، أمضى عمره في التدريس والإفتاء، من تلامذته: صالح آل الشيخ، والشيخ سعود الشريم، توفي سنة ١٤٣١هـ.

(٤) هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، ولد سنة ١٣٥٢هـ، تلقى العلم عن عدد من المشايخ أمثال العلامة محمد بن إبراهيم، وابن باز، كان له نشاط دعوي بارز، متنوع بين الإمامة والخطابة والتدريس والتأليف، والعمل الخيري، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ترك إرثًا علميًّا هامًّا، فمن مؤلفاته: أخبار الآحاد في الحديث النبوي، والإسلام بين الغلو والجفاء، والآداب والأخلاق الشرعية، توفي سنة ١٤٣٠هـ. أعجوبة العصر سيرة سماحة الشيخ العلامة الإمام د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، د. عبد الرحمن الجبرين (ص٢٤٦).

الصعوبات والعراقل، استطاع الدعاة والعلماء بإخلاصهم وصبرهم وحكمتهم التغلب عليها، واستطاعوا بجهدهم تقديم الإسلام نقيًّا إلى الناس، وأن يوسعوا رفقة الخلفاء والحكام والأمراء دائرة الإسلام، تاركين إرثًا علميًّا زاخرًا بالفائدة، ومنهجًا دعويًّا، حري بالدعاة اليوم الرجوع إليه والعمل به، فالحاجة ماسة إلى الاقتداء بالسلف، وبذل المزيد من الجهد لدعوة الناس إلى الدين الحق، خاصة مع توفر الوسائل الحديثة النافعة، وكثرة المناهج المنحرفة، وانتشار الشبهات والإغراق في الماديات والشهوات، وحاجة الأمة إلى من يوصل لها المنهج الصافي.

أسئلة للمراجعة والاستذكار

١. تحدث بإيجاز عن جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله في الداخل والخارج.
٢. ما أهم المؤسسات التي تُعنى بالدعوة إلى الله في المملكة العربية السعودية، مع ذكر أهم نشاطاتها.
٣. ما دور الإعلام في المملكة العربية السعودية في خدمة الدعوة إلى الله.
٤. أذكر خمسة من أشهر الدعاة في العصر الحاضر في المملكة العربية السعودية، معددًا بعضًا من جهودهم في الدعوة إلى الله.

الخاتمة

في نهاية المطاف وبعد هذه الجولة المختصرة الماتعة حول تاريخ الدعوة الإسلامية من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى عصرنا الحاضر، وما فيها من فوائد وعبر وعظات، ومن خلال ما تم عرضه في الفصول السابقة يُمكن إيراد أهم الخلاصات ومن ذلك:

١. دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية فيه عبرة وعظة وتأسِّيًا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن بعدهم من الصالحين، والاطلاع على منهجهم في دعواتهم لأقوامهم، وبيان عاقبة المؤمنين الذين انقادوا للحق وآمنوا بالله وبرسله، ومآل المكذبين الذين عاندوا وأنكروا الرسل والرسلات، وبيان أن النصر والعزة لدين الله تعالى ولأوليائه الصالحين والمصلحين.

٢. من رحمة الله بهذه الأمة؛ أن بعث إليهم خاتم الأنبياء والرسل محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن دياجير الكفر والظلم، إلى نور الهداية والإيمان، وقد انتشر الإسلام بعد ذلك فعم الأرض من أقصاها إلى أقصاها.

٣. حمل مشعل الدعوة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخلفاء الراشدون، فأدوا واجبهم وأتموا نور الله بما أوتوا من سبل، وقاموا بجهود عظيمة في الدعوة إلى الله تعالى والدفاع عن الإسلام، وخدمة الوحيين، وتعاملوا بحكمة مع المواقف الصعاب، والمشاكلات التي ألمت بالأمة الإسلامية بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤. في تاريخ الدعوة الطويل من بعد الخلفاء الراشدين إلى العصر الحاضر علماء ودعاة صالحون، تنوعت جهودهم في الدعوة إلى الله تعالى، بين التأليف والوعظ والتدريس، والعمل الخيري، والقدوة الحسنة، مما يجدر بالداعية الاطلاع على أخبارهم والوقوف على منهجهم في الدعوة، والاستفادة من ذلك.

٥. للفرقة والاختلاف آثار سلبية على المجتمع وداخل الوسط الدعوي، فهي تُضعف وتنخر، وتهز الكيان ولا تُقيمه، وكم تألمت الأمة ولا زالت بسبب تلك الفرق والطوائف التي ظهرت تحمل أفكارًا مختلفة وضالة باسم الدين.

٦. شهدت الأمة الإسلامية يقظة علمية ونهضة فكرية، بعد الرقاد الذي أصابها بسبب الفتن الداخلية والخارجية، فاتسعت العلوم، وانتشرت دائرة التدوين، ونبغ علماء ودعاة صالحون.

٧. للملكة العربية السعودية حفظها الله جهود متنوعة في الدعوة إلى الله تعالى في الداخل والخارج، حيث سخرت كل إمكانياتها خدمة للإسلام والمسلمين.

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر الأخرى:

١. ابن عثيمين، الإمام الزاهد، د. ناصر مسفر الزهراني، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢. ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه، د. محمد الزحيلي، دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣. الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة، للإمام الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٤. الأحكام السلطانية، لأبو الحسن الماوردي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٥. الإسلام الفاتح، د. حسين مؤنس، مجلة دعوة الحق، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠١هـ.

٦. أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٧. الأعلام في القرآن الكريم، يحيى المعلّمي، دار المعلّمي للنشر، الرياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٨. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

٩. الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، عبد العزيز بن باز، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤١١هـ.

١٠. الإنباء في تاريخ الخلفاء، محمد بن علي العمراني، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١١. الأنبياء في القرآن، سعد صادق، دار اللواء، الرياض، السعودية، بتاريخ ١٤٠٢هـ.
١٢. انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا ومناهضة الغرب له، د. محمد عبد الله النقيرة، دار المريخ، الرياض، بدون تاريخ.
١٣. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ١٤٢٤هـ.
١٤. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر، ١٤٠٧هـ.
١٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.
١٦. التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
١٧. تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، د. محمد الطيب النجاراً دار الاعتصام،١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٨. تاريخ الأنبياء للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
١٩. تاريخ البلاد العربية السعودية، منير العجلاني، دار النفائس، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
٢٠. تاريخ الخلفاء، للسيوطي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
٢١. تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين، جميل المصري، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٤٠٧هـ.
٢٢. تاريخ الدعوة، د. جمعة علي الخولي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م
٢٣. تاريخ الدولة السعودية، (عهد سعود بن عبد العزيز)، أمين سعد، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٣٨٥هـ.

٢٤. تاريخ الدولة العثمانية، إيناس البهجي، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٧م.
٢٥. تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٤م.
٢٦. تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧هـ.
٢٧. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٢٨. تاريخ دمشق، علي بن عساكر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٢٩. تاريخ ملوك آل سعود، سعود بن هذلول، طبعة خاصة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٣٠. التصوف في مصر إبان العصر العثماني، د. توفيق الطويل، مكتبة الآداب، مصر، بدون معلومات.
٣١. التعليم العربي الإسلامي في أفريقيا، د. جعفر عبد السلام، دار الكلمة، مصر، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
٣٢. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.
٣٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠ه/ ٢٠٠٠م.
٣٤. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.
٣٥. الجامع الكبير؛ سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
٣٦. الجامع لأحكام القرآن، محمد القرطبي، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ.
٣٧. الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، د. عمر محمد عمر باحاذق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٨. جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، أ. د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، حقوق محفظة للمؤلف، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٩. جهود الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة والاحتساب، خالد بن راشد بن مساعد العبدان، جامعة الإمام، الرياض، ١٤١٨هـ

٤٠. جهود الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود في الدعوة إلى الله حتى عام ١٤١٩هـ، سمو الأميرة ملكة بنت سعود زيد آل جربا، دار الرفاعي، الرياض، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤١. جهود الجامعة الإسلامية في مجال إعداد الكفاءات الدعوية ورعايتهم، سلطان بن عمر الحصين، ١٤٣٨هـ.

٤٢. جهود الشيخ العلامة بكر أبو زيد في الدعوة إلى الله تعالى، عمر بن عامر الخرماني، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، عام: ١٤٣١هـ.

٤٣. جهود الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلى الله، سلطان بن عمر الحصين، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد، المدينة المنورة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٤٤. جهود الملك خالد بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خدمة الإسلام، د. أحمد يوسف الدريويش، مكتبة العبيكان، ١٤٣١هـ.

٤٥. جهود المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى الله تعالى في الخارج من خلال الجامعة الإسلامية، د. عبد الله صالح العبود، المدينة المنورة، ٢٠٠٤م.

٤٦. جهود المملكة العربية السعودية في تسجيل القرآن الكريم ودوره في الدعوة إلى الله، د. حمود بن جابر الحارثي، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، ١٤٣٢هـ، فاس، المغرب.

٤٧. حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٤٨. حركة التجديد والإصلاح في نجد في العصر الحديث، عبد الله العجلان، الرياض، ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٩م.
٤٩. الحرمان الشريفان التوسعة والخدمات خلال مائة عام، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ١٤١٩هـ.
٥٠. الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، د سهام مصطفى أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
٥١. حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، سليمان بن عبد الرحمن الحقيل.
٥٢. الخلفاء الراشدون أعمال وأحداث، د. أمين القضاة، دار الفرقان، الأردن، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
٥٣. الخلفاء الراشدون، محمود شاكر، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٥٤. الداء والدواء، ابن القيم، ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٩ه/ ١٩٩٩م ط٣.
٥٥. داود وسليمان، أ.د عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، ٢٠١٠م.
٥٦. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٩٢هـ.
٥٧. دعوة الإمام محمد بن عبد الله سلفية لا وهابية، أحمد عبد العزيز الحصين، دار عالم الكتب، السعودية، ١٤٢٠هـ.
٥٨. الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.
٥٩. دور التجارة والتجار في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا، د. قاسم غنيمات، ومحمد حمودي إمام، دار الخليج، الأردن، ٢٠١٧م.
٦٠. دور المملكة العربية السعودية في إنشاء رابطة العالم الإسلامي ودعم مسيرتها، د. خالد الشراري، المؤتمر العالمي الأول عن جهود المملكة العربية السعودية في خدمة القضايا الإسلامية، الجامعة الإسلامية، ١٤٣١هـ.

٦١. الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ.

٦٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٦٣. الرسائل الشخصية، محمد بن عبد الوهاب النجدي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، بدءا من ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٦٥. السنة، أبو بكر أحمد الخلال، دار الراية، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٦٦. السنة، لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٦٧. السنة، لأبي عبد الله محمد المروزي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٦٨. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن ماجة، دار الرسالة العلمية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٦٩. سنن أبي داود، المكتبة العصرية، دار الرسالة، ٤١٣٠هـ/ ٢٠٠٩.

٧٠. سنن الدارقطني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

٧١. السنن الكبرى، للإمام أحمد أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧٢. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، ١٤١٨هـ.

٧٣. سياسة الملك فيصل الدعوية، د. إبراهيم بن عبد الله السماري، رسالة جامعية، دارة الملك عبد العزيز، عدد: ١٤٢٩هـ.

٧٤. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد الحافظ الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ.

٧٥. سيرة ابن إسحاق= السير والمغازي، محمد بن إسحاق، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٧٦. سيرة الخلفاء الراشدين، سليمان معرفي، مكتبة الإمام الذهبي، ٢٠٠١م.
٧٧. السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥ه / ١٩٨٥م
٧٨. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة، د. مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢ه/ ١٩٩٢م.
٧٩. السيرة النبوية، لابن هشام، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.
٨٠. سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، عبد الله بن عبد الحكم المصري، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
٨١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي العكري، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ.
٨٢. الشريعة، للإمام الآجري، دار الوطن، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٨٣. الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، د. عبد الله السامرائي، بدون معلومات.
٨٤. الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، أحمد زاده، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٨٥. شمس العرب تشرق على الغرب، سيجريد هونكه، ترجمة: فؤاد علي، دار العالم العربي، ١٤٣٢هـ.
٨٦. شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٨٧. صحيح ابـن حبان، تحقيق شعيب الأرنـــاؤوط، مؤسسة الرسالة، بـيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م
٨٨. صحيح الإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
٨٩. صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون معلومات.
٩٠. صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية، والكتب مرقم آليًّا.
٩١. صحيح وضعيف سنن الترمذي، محمد الألباني، إنتاج مركز الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.
٩٢. صراعنا مع اليهود في ضوء السياسة الشرعية، د. محمد عثمان شبير، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٩٣. صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ.
٩٤. صفة جزيرة العرب، الحسن بن أحمد الهمذاني، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٨م.
٩٥. العبر في أحسن القصص وروائـع السير، أ.د ناصر بن محمد الغامدي، دار طيبة، مكة،١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥م.
٩٦. العبر في خبر من غبر، للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، نسخة الشاملة.
٩٧. العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٩٨. عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٩٩. العقيدة الإسلامية وجهود علماء السلف في تقريرها والدفاع عنها حتى نهاية العصر الأموي، د. عطا الله بخيت المعايطة، رسالة جامعية، جامعة أم القرى، ١٩٩٦م.

١٠٠. علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ.

١٠١. علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف، الرياض، ط٤، بدون تاريخ.

١٠٢. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون معلومات.

١٠٣. عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم، عبد الوهاب أبو سليمان، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ.

١٠٤. عنوان المجد في تاريخ نجد، للشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٠٥. العهد المملوكي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٠٦. فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٠٧. فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.

١٠٨. الفتوحات الإسلامية، محمود شاكر، دار أسامة للنشر، الأردن، ٢٠٠٢م.

١٠٩. الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م.

١١٠. فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب عواجي، المكتبة العصرية، جدة، ١٤٢٢هـ.

١١١. قصة الحضارة، وول ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

١١٢. قصص الأنبياء عظات وعبر، د. سعيد عبد العظيم، دار العقيدة، الاسكندرية، بدون ذكر التاريخ.

١١٣. قصص الأنبياء، ابن كثير، دار القلم، بيروت،١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١١٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١٥. القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د: فضل حسن عباس، دار الفرقان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١١٦. القصص في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، د. علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر، القاهرة ،١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
١١٧. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
١١٨. المجتبى من السنن= سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ.
١١٩. مجمع الفقه الإسلامي الدولي وإسهاماته في الاقتصاد الدولي والبنوك الإسلامية، د. عبد السلام داود العبادي.
١٢٠. مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية، مجمع الملك فهد، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ.
١٢١. مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بإشراف: محمد بن سعد الشويعر.
١٢٢. مجموع فتاوى ورسائل بن عثيمين، دار الوطن- دار الثريا، الطبعة الأخيرة، ١٤١٣هـ.
١٢٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
١٢٤. مختصر سيرة الرسول، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وزارة الشئون الإسلامية والاوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤١٨هـ.
١٢٥. المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي، المكتبة العصرية، جدة، ١٤٢٧هـ.
١٢٦. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

١٢٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٦هـ.
١٢٨. مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
١٢٩. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
١٣٠. معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ١٣٤٦هـ.
١٣١. معجم المؤلفين، عمر كحالة، مكتبة المثنى - دار إحياء التراث العربي بيروت، نسخة الشاملة.
١٣٢. الملل والنحل، محمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي، بدون معلومات.
١٣٣. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ.
١٣٤. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢.
١٣٥. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧، أحمد معمور العسيري، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٣٦. الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، مجموعة من المؤلفين، نسخة الشاملة.
١٣٧. نظرات في أحسن القصص، د. محمد السيّد الوكيل، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
١٣٨. نفحة عبير من سيرة البشير النذير، د. يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار القاسم، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
١٣٩. الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م.
١٤٠. يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أ.د عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٢م.

تم بحمد الله

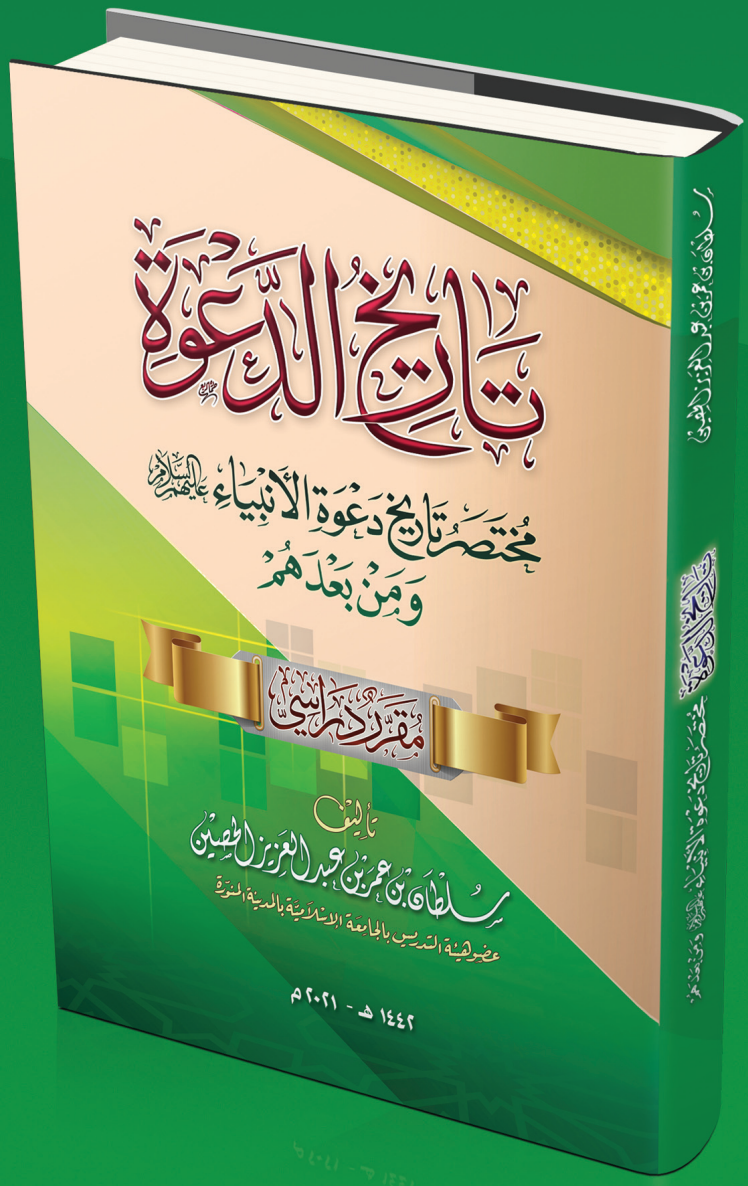
تاريخ الدعوة
مختصر تاريخ دعوة الأنبياء عليهم السلام
ومن بعدهم
مقرر دراسي
تأليف
سلطان بن عمر بن عبد العزيز الحصين
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م